

النظرات

الجزء الثاني



البيان



قال لي أحد الوزراء ذات يوم: «إني لتأتيني أحياناً رقاغ الشكوى فأكادُ أهملها لما تشتملُ عليه من الأساليب المفرّة^(١)، والكلمات الجارحة، لولا أن الله تعالى يُلهمني نياتِ كاتبها وأين يذهبون، ولولا ذلك لكنتُ من الظالمين».

ذلك ما يراه القارئُ في كثير من المخطوطات التي يخطُّها اليوم كاتبوها في الصُّحفِ ورُقاعِ الشكوى والكتبِ الخاصّةِ والمؤلَّفاتِ العامّةِ.

هزلٌ في موضع الجدد، وجدٌّ في موضع الهزل، وإسهابٌ في مكان الإيجاز، وإيجازٌ في مكان الإسهاب^(٢)، وجَهْلٌ لا يفرِّقُ ما بين العتاب والتأنيب، والانتقام والتأديب، والاستعفاف والاستخفاف، وقصورٌ عن إدراكِ منازلِ الخطابِ ومواقفه بين الشوكة^(٣) والأمرأءِ، والعلماءِ والجهلاءِ، حتى أن الكاتبَ ليقيمُ في الشوكة يشاكها مناحةً^(٤) لا يقيمُها في الفاجعة يفعجُ بها، ويكتب في الحوادثِ الصغار ما يعجزُ عن كتابةٍ مثله في الحوادثِ الكبار، ويخاطبُ صديقه بما يخاطبُ عدوّه ويناجي أجبره بما يناجي به أميره.

ذهب الناسُ في معنى البيانِ مذاهبَ متشعبةً، واختلفوا في شأنه اختلافًا كثيرًا، ولا أدري علامَ يختلفون وأين يذهبون؟! وهذا لفظُهُ دالٌّ على معناه دلالةً واضحةً لا تشبهه وجوهها ولا تشعبُ مسالكها.

ليس البيانُ إلا الإبانة^(٥) عن المعنى القائم في النفس، وتصويره في نظر القارئ أو مسمع السامع تصويرًا صحيحًا لا يتجاوزُه، ولا يُقصرُ عنه، فإن علقَتْ به أفةٌ تبتك الأفتينِ فهي العيُّ^(٦) والحصرُّ.

(١) المفرّة: يعني المفرزة والمقرزة.
 (٢) الإسهاب: الإطالة.
 (٣) الشوكة: عامة الناس.
 (٤) المناحة: البكاء والوعيل.
 (٥) الإبانة: التوضيح والتصريح بالشيء، والإفصاح.
 (٦) العيُّ: المعجز عن البيان، وفي الأثر: "إنما شفاء العين السؤال".

جَهْلَ الْبَيَانِ قَوْمٌ فَظَنُوا أَنَّهُ الْاسْتِكْثَارُ مِنْ غَرِيبِ اللَّغَةِ وَنَادِرِ الْأَسَالِيبِ فَأَغَضُوا بِهَا صُدُورَ كِتَابَتِهِمْ، وَحَشَوْهَا فِي حُلُوقِهَا حَشْوًا يَقْبِضُ أَوْدَاجَهَا وَيَحْبِسُ أَنْفَاسَهَا. فَإِذَا قُدِّرَ لَكَ أَنْ تَقْرَأَهَا، وَكُنْتَ مَمَّنْ وَهَبَهُمُ اللَّهُ صَدْرًا رَحْبًا، وَفُوَادًا جَلْدًا، وَجَنَانًا يَحْتَمِلُ مَا حَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ آفَاتِ الدَّهْرِ وَأَرْزَائِهِ^(١)، قَرَأْتَ مَتْنًا مُشَوِّشًا مِنْ مُتُونِ اللَّغَةِ، أَوْ كِتَابًا مُضْطَرِبًا مِنْ كُتُبِ الْمُتَرَادِفَاتِ.

وَجَهْلُهُ آخَرُونَ فَظَنُوا أَنَّهُ الْهَذْرُ فِي الْقَوْلِ، وَالتَّبْسُطُ فِي الْحَدِيثِ وَإِقْعًا ذَلِكَ مَحَالُ الْكَلَامِ وَمُقْتَضَاهُ حَيْثُ وَقَعَ، فَلَا يَزَالُونَ يَجْتَرُونَ بِالْكَلِمَةِ اجْتِرَارَ النَّاقَةِ بِجَرَّتِهَا، وَيَتَمَطَّقُونَ بِهَا تَمَطَّقَ الشَّفَاهِ بِرِقِيهَا، حَى تَسْفَ وَتَتَبَدَّلَ، وَحَتَّى مَا تَكَادُ تَسِيغُهَا^(٢) الْحُلُوقُ وَلَا تَطْرَفُ عَلَيْهَا الْعَيُونَ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

يَخْتِيلُ إِلَيَّ أَنَّ الْكُتَّابَ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَكْتُبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَكْتُبُونَ لِلنَّاسِ، وَأَنَّ كِتَابَتَهُمْ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَحَادِيثِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَتَلَجَّلُجُ فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِ حَيْثَمَا يَخْلُو بِنَفْسِهِ، وَيَأْتِسُ بِوَحْدَتِهِ. فَإِنِّي لَا أَكَادُ أَرَى بَيْنَهُمْ مِمَّنْ يُحْكِمُ وَضَعَ فِيمِهِ عَلَى أُذُنِ السَّمَاعِ، وَيَنْفُثُ فِي رُوعِهِ مَا يَرِيدُ أَنْ يَنْفُثَ مِنْ خَوَاطِرِ قَلْبِهِ، وَخَوَالِجِ نَفْسِهِ.

الْكَلَامُ صَلَةٌ بَيْنَ مُتَكَلِّمٍ يُفْهَمُ، وَسَامِعٍ يُفْهَمُ، فَبِمَقْدَارِ تِلْكَ الصَّلَاةِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ تَكُونُ مَنْزِلَةُ الْكَاتِبِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْإِسْفَافِ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَاتِبًا فَاجْعَلْ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ فِي الْبَيَانِ قَاعِدَتَكَ، وَاحْرَصِ الْحَرَصَ كُلَّهُ عَلَى أَلَّا يَخْدَعَكَ مِنْهَا خَادِعٌ فَتَسْقُطَ مَعَ السَّاقِطِينَ.

مَا أَصِيبَ الْبَيَانَ الْعَرَبِيَّ بِمَا أَصِيبَ بِهِ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ الْجَهْلِ بِأَسَالِيبِ اللَّغَةِ، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ يَسْتَطِيعُ الْكَاتِبُ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا عَرَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى أُسَالِيبِ الْعَرَبِ فِي أَوْصَافِهِمْ وَنُعُوتِهِمْ، وَتَصَوُّرَاتِهِمْ وَخِيَالَاتِهِمْ، وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَمُسَاجَلَاتِهِمْ، وَقَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ كَانُوا يُعَاقِبُونَ وَيُؤَنِّبُونَ، وَيَعْطُونَ وَيَنْصَحُونَ، وَيَتَغَزَّلُونَ وَيَنْسَبُونَ^(٣)، وَيَسْتَعِطِفُونَ وَيَسْتَوْحِمُونَ، وَبِأَيَّةِ لُغَةٍ يَحَاوِلُ أَنْ يَكْتُبَ مَا يَرِيدُ إِنْ لَمْ يَسْتَمِدَّ تِلْكَ الرُّوحَ الْعَرَبِيَّةَ اسْتِمْدَادًا يَمَلَأُ مَا بَيْنَ جَانِحَتَيْهِ حَتَّى يَتَدَفَّقَ مَعَ الْمِدَادِ^(٤) مِنْ أَنْثُوبٍ يَرَاعَتِهِ^(٥) عَلَى صَفْحَاتِ قِرْطَاسِهِ.

(٢) تسيغها: تستسيغها وتقبلها.

(١) الأرزاء: الدواهي والكوارث.

(٣) التسيب: نوع من الغزل.

(٤) المداد: الحبر، وفي القرآن: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكُنْتُ رَبِّي﴾. (٥) البراع: القلم.

إنِّي لأقرأ ما كتبه الجاحظُ وابنُ المقفَعُ والصاحبُ والصابئُ والهمذانيُّ والخوارزميُّ
وأمثالهم من كُتَّابِ العربيَّةِ الأولى، ثم أقرأ ما خطَّهُ هؤلاءُ الكاتبونَ في هذه الصحفِ
والأسفارِ^(١)، فأشعرُ بما يشعرُ به المتنقِّلُ دُفْعَةً واحدةً من غرفةٍ مُحكَّمةِ النوافذِ، مُسَبِّلةِ
الستورِ^(٢)، إلى جوٍّ يسيلُ قرًا وصرًا^(٣)، وبتترقرقٍ نلجًا وبزَداً.

ذلك؛ لأنِّي أقرأ لغةً لا هي بالعربية فأغتبطُ بها، ولا هي بالعاميَّةِ فألثُّهُ بأحماضِها^(٤)
ومجونها.

رأيتُ أكثرَ الكاتبينَ في هذا العصرِ بينَ رجلينَ: رجلٌ يستمدُّ روحَ كتابتِهِ من مُطالعةِ
الصُّحفِ وما يُشاكلُها في أساليبها من المؤلفاتِ الحديثِ والرواياتِ المترجمَةِ، فإذا
عَلِقَتْ بنفسه تلكَ المَلَكَةُ الصحفيَّةُ ألقى بها في رُوعِ قارئِ كتابتِهِ أدونَ^(٥) مما أخذها،
فِيدلي أخذها كذلك إلى غيرِهِ أَسَمَجَ^(٦) صورةً وأكثرَ تشويهاً، وهكذا حتَّى لا يبقى
فيها من روحِ العربيَّةِ إلا كما يبقى من أستاذه: نحوُ اللغةِ وصرُفُها، وبديعُها وبيانُها،
ورسُمُها وإملاؤها، ومُترادفُها ومُتوارِدُها، وغيرُ ذلك من آلاتها وأدواتها، أمَّا روحُها
وجوهرُها فأكثرُ أستاذةِ البيانِ عنده علماءٌ غيرُ أدباءٍ، وحاجةُ طالبِ اللغةِ إلى أستاذٍ
يُفيضُ عليه روحَ اللُغةِ، ويُوحي إليه بسرِّها، ويُفضي له بلبُّها وجوهرها أكثرُ من حاجتِهِ
إلى أستاذِ البيانِ، فكما أنَّ طالبَ الأخلاقِ لا يستفيدُها إلا من أستاذٍ كَمَلَتْ أخلاقُه
وسَمَّتْ آدابه، كذلك طالبُ البيانِ لا يستفيدُه إلا من أستاذٍ مُبينِ.

ولا يقدِّفنَ في رُوعِ القارئِ أنِّي أحاولُ استلابَ^(٧) فضلِ الفاضلينَ، أو أني أريدُ أن
أنكرَ على شعراءِ الأُمَّةِ وكُتَّابها ما وهبَهُمُ اللُّهُ من نعمةِ البيانِ. فما هذا أردتُ ولا إليه
ذهبتُ؛ وإنما أقولُ إن عَشْرَةَ مِنَ الكُتَّابِ المُجيدينَ، وخمسةً من الشعراءِ البارعينَ،
قليلٌ في بلدٍ يقولونَ إنه مهَّدُ اللغةِ العربيَّةِ اليومَ ومرعاها الخصبُ.

وبعدُ، فإنني لا أرى لك، يا طالبَ البيانِ العربيِّ، سبيلاً إليه إلا مُزاولةَ المنشآتِ

(١) الأسفار: جمع سفر، وهي الكتب، وفي القرآن حكاية عن اليهود: ﴿كَكَلِّ الْحِمَارِ يَحِيلُ أَتَعَارَفَا﴾.

(٢) مسبلة الستور: من سبَل الشيء، أرسله.

(٣) القر: الحر، والضر: الهزال، وله معانٍ مجازية قال بها بعض علماء العربية ومنه الصقيع.

(٤) حُض الشيء: ما بتفكه به، يقال: أحض القوم سمروا وتضاحكوا.

(٥) الأدون: الأقل.

(٦) السمج: الذي لا ملاحه فيه، ومنه قول أبي ذؤيب:

فإن تصرمي حَبسلي وإن تنندمي
خليلاً فمنهم صالحٌ وسَميج

(٧) استلاب الشيء: التنقض من قدره، وعدم الاعتراف بفضله.

العربية^(١)، مَثَوْرها ومَنْظومِها، والوقوفُ بها وقوفُ الْمُتَبَيَّنَاتِ الْمُتَفَهِّمِ لا وقوفُ الْمُتَنَزِّهِ الْمُتَفَرِّجِ. فَإِن رَأَيْتَ أَنَّكَ قَدْ شَغَفْتَ بِهَا وَكَلَّفْتَ بِمَعَاوَدَتِهَا وَالِاخْتِلَافِ إِلَيْهَا، وَأَنَّ قَدْ لَدَّكَ مِنْهَا مَا يَلِدُ لِلْمَعَاشِقِ مِنْ زَوْرَةِ الطِّيفِ فِي غُرَّةِ الظَّلامِ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ قَدْ أَخَذْتَ مِنَ الْبَيَانِ بِنَصِيبٍ، فَاْمُضِ لِشَأْنِكَ وَلَا تَلُوْ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا وَرَاءَكَ، تَبْلُغُ مِنْ طَلِبَتِكَ مَا تُرِيدُ.

ولا تحدِّثْكَ نَفْسُكَ أَنِّي أَحْمِلُكَ عَلَى مُطَالَعَةِ الْمُنشآتِ الْعَرَبِيَّةِ لِأَسْلُوبِ تَسْتَرْفِهِ أَوْ تَرْكِيْبِ تَحْتَلِسُهُ، فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ تَكُونَ سَارِقًا أَوْ مُخْتَلِسًا، فَإِن فَعَلْتَ لَمْ يَكُنْ دَرْكُكَ^(٢) دَرْكًا، وَلَا بَيَانُكَ بَيَانًا، وَكَانَ كُلُّ مَا أَفَدْتَهُ أَنْ تُخْرَجَ لِلنَّاسِ مِنَ الْبَيَانِ صُورَةً مُشَوَّهَةً لَا تَحْصِلُ لِنَفْسِكَ مَلَكَةً فِي الْبَيَانِ رَاسِخَةً تَصْدُرُ عَنْهَا آثَارُهَا عَفْوًا بِلَا تَكْلِفٍ وَلَا تَعْمَلُ، وَإِلَّا كَانَ شَأْنُكَ شَأْنَ أَوْلِيكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ عَلِقَتْ ذَاكِرَاتُهُمْ بِطَائِفَةٍ مِنْ مَنَشَوْرِ الْعَرَبِ وَمَنْظُومِهَا، فَفَنِعُوا بِهَا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا مِنَ الْبَيَانِ إِلَى صَمِيمِهِ. فَإِذَا جَدَّ الْجَدُّ وَأَرَادُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْإِنْفِصَاحِ عَنْ شَيْءٍ مِّمَّا تَخْتَلِجُ بِهِ نَفُوسُهُمْ، رَجَعُوا إِلَى تِلْكَ الْمَحْفُوظَاتِ وَتَبَشَّروا دَفَائِنَهَا، فَإِن وَجَدُوا بَيْنَهَا قَالِبًا لِذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي يُرِيدُونَهُ انْتَرَعَوْهُ مِنْ مَكَانِهِ انْتِزَاعًا وَحَشَرُوهُ فِي كِتَابَتِهِمْ حَشْرًا. وَإِلَّا تَبَدَّلُوا بِاسْتِعْمَالِ التَّرَاكِيْبِ السَّاقِطَةِ الْمَشْنُوعَةِ^(٣) أَوْ هَجَرُوا تِلْكَ الْمَعَانِي إِلَى مَعَانٍ أُخْرَى غَيْرِهَا، لَا عِلَاقَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَابِقَاتِهَا وَلَا حِقَاتِهَا، فَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ إِحْدَى السَّوَأَتَيْنِ: إِمَّا فِسَادُ الْمَعَانِي وَاضْطِرَابُهَا، أَوْ هُجْنَةٌ^(٤) التَّرَاكِيْبِ وَبَشَاعَتُهَا.

فاحذَرُ أَنْ تَكُونَ وَاحِدًا مِنْهُمْ، أَوْ أَنْ تَصَدِّقَ مَا يَقُولُونَهُ فِي تَلْمِيسِ الْعُذْرِ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ أَضْيَقُ مِنْ أَنْ تَنْسَعَ لِجَمِيعِ الْمَعَانِي الْمُسْتَحْدَثَةِ، وَأَنَّهَا مَا لَجِنُوا إِلَى التَّبَدُّلِ فِي التَّرَاكِيْبِ إِلَّا لِاسْتِحَالَةِ التَّرْفُعِ فِيهَا؛ فَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ أَرْحَبُ صَدْرًا مِنْ أَنْ تَضْيَقَ بِهَذِهِ الْمَعَانِي الْعَامَّةِ الْمَطْرُوقَةِ بَعْدَ مَا احْتَمَلَتْ مِنْ دَقَائِقِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مَا لَا قَبِيلَ لغيرِهَا بِاحْتِمَالِهِ، وَقَدَّرْتَ مِنْ هَوَاجِسِ الصَّدُورِ وَخَوَالِجِ النُّفُوسِ عَلَى مَا عَيَّتْ بِهِ اللُّغَاتُ الْقَادِرَاتُ.

(١) يقال: زاول الشيء حتى رفعه عن مكانه، وزاوله ساعة حتى صرعه، والمزاولة هنا بمعنى المطالعة والمعرفة.

(٢) درك: إدراك وفهمك، يقال: درك، طلب الشيء حتى أدركه.

(٣) المشنوعة: من الشناعة، وهي الفعل القبيح، يقال: شنع شناعة بمعنى: قبح.

(٤) الهجنة: الكلام الغريب البعيد عن فصاحة العرب، يقال رجل هجين، وفرس هجين، إذا لم تكن الأم عربية؟

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها، وإنما الشأن في عجز المُشغَلين بها عن الاضطراب في أرجائها، والتغلغل في أعماقها، واقتناعهم من بحرِها بهذه البلية التي لا تُثلج صدرًا، ولا تشفي أوامًا^(١).

وكلُّ ما يُعدُّ عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام لبعض هذه الهنات المستحدثة. وهو في مذهبي أهون الذنوب وأضعفها شأنًا، ما دُمننا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه، أو التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق. فالأمر أهون من أن نحار فيه، وأحقر من أن نقضي أعمارنا في العراكِ ببابه، والمناظرة في اختيار أقرب الطُرُق إليه، وأجداها^(٢) عليه.

واعلم أنه لا بُدَّ لك من حُسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشآت العربية، فليس كلُّ مُتقدِّمٍ يَنْفَعُكَ، ولا كلُّ مُتأخِّرٍ يَضُرُّكَ. ولا أحسبُك إلا واقفًا بين يدي هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب؛ لأنَّ حُسن الاختيار طلبه تتعثر بين يديها الآمالُ، وتتقطع دونها أعناق الرجال. فالجأ في ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف الناس منهم ذوقًا سليمًا، وقريحة صافية، وملكة في الأدب كمصفاة الذهب. فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاءً وفطنةً وقريحةً خصبةً صالحةً لنماء ما يلقى إليها من البذور الطيبة عُدت وبين جنبيك ملكة في البيان زاهرة، يتناثر منها مثورُ الأدبِ ومنظومة، تنائرُ الورودِ والأنوارِ من حديقة الأزهار.



(١) الأوم: حرارة العطش، يقال: أوم في جوفه أوم وأدار.

(٢) الأجدى: الاصح والأنفع.

السريرة



لو كُشِفَ لِلإِنسَانِ عَن سَرِيرَةِ الإِنسَانِ لَرَأَى مِنْهَا مَا يَرَى الأَعْمَى
مِن غَرَائِبِ هَذَا الكَوْنِ وَعَجَائِبِهِ حِينَ تُدْرِكُهُ رَحْمَةُ اللّهِ بَعْدَ طَوِيلِ مِحْنَتِهِ
فَيَرْتَدُّ بِصِيرًا. ■

تترأى لك السريرة في ظاهرها كأنها أديم السماء أو صفحة الماء. إن بدا لك أن
تكتنه باطنها فإنك غير بالغ من ذلك مأربك إلا إذا استطعت أن تخترق جلدة السماء،
فترى ما وراءها من بدائع الكائنات، وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من
عجائب المخلوقات.

يعجز المرء عن رؤية الهباء^(١) فيترث ريشما تمج الشمس لعابها^(٢) من نافذة
غرفته فإذا هو مائج وضأ يروح ويغدو وراح السانحات وغدو البارحات^(٣)، ويعجز
عن رؤية الجرائيم فيستعين عليها بمنظار يحسّمها له ويُدنيها منه حتى ليكاد يلمسها
بيمينه، ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد إلى الوصول إليها سبيلًا.

وقف آدم أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه فاستعصى عليه، ثم وقف
بنوه من بعده موقفة فعجزوا وعجزه، فلج بهم الشوق إليها لجاجا طار بعقولهم وذهب
بألبابهم، فتراموا على أقدام المنجمين والعرفان لثما وتقبيلا، وابتدروا النصب
والتماثيل ركوغا وسجودا، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى^(٤) هيام
الإبل العطاش بمنازل الماء، يطلبون ما وراء السريرة والسريرة كنز مرصود لا تنجع
فيه النفثات، ولا تجدي معه العزائم والرقي

إنك لترى الرجل يتلأأ جبينه تلالؤ الكواكب في جنح ليل مبرد، ويفتر ثغره عن

(١) الهباء: دقيق التراب الذي يسطع في الجو كالدخان وينبث في ضوء الشمس.

(٢) تمج الشمس لعابها: من المجازات الدالة على ضوء الشمس ونورها، يقال: مجت الشمس ريقها، قال النابغة:

يُسزَن الحَصَا حَتَّى يَإْيَسُزْنَ بِسُزْدَةِ إِذَا الشَّمْسُ مَجَّتْ رِيقَهَا بِالكَلاَكِلِ

(٣) سنح: مرَّ به الطائر سانحًا عن يمينه، ومن المجاز: سنح له رأي، أي عرض له، وعكسها البارحات.

(٤) الضوارب بالحصى: الكاهنات المدعيات الغيب.

الأنوار افتراز الأكمام عن الأزهار، فتحسده على نعمته وسعاده، وتمنى أن لو منحك الله ما منح من هناءٍ ورغدٍ، وإن بين جنبيه - لو علمت - همًا يعتلج، وقلبا يدب فيه اليأس ديب الآجال في الأعمار، وكبدًا مقروحةً لو عرضها في سوق الهموم والأحزان ما وجد من يتاعها منه بأخس الأثمان. وإنك لترى الصديق فيعجبك منه حديثه الحلو، وثغره المتسم، ويروقك منه كلفه بك وإعظامه لك وإعجابُه بشمائلك ومحاسنك، وتشيعةً لأرائك، ولو كشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو تيسر لك أن تتاع أقدام السليك^(١) بجميع ما تملك يدك ففرزت من وجهه فرارك من وجه الأسود السالخ^(٢)، ووججت بجذع الأنف أن لا يصفح وجهه وجهك من بعدها حتى في جنات النعيم. لولا ما أسدل على السرائر من الحجب لبذلت الأرض غير الأرض، والسموات غير هذه الصفحات.

لو علم الجند أنهم لا يحاربون إلا ليضعوا «نيشاناً»^(٣) في صدر القائد، أو جوهره في تاج الملك، وأنهم كثيرًا ما يكونون مخدوعين في مواقفهم بأشراك الوطنية وحبائل الدين، لما دالت الدول، ولا انتقلت التيجان، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان. ولو علم جهلة المتدينين أن أكثر زعماء الأديان إنما يشترون منهم عقولهم وأموالهم بالقليل التافه من المدهشات الدينية والأحلام النفسية، ويملئون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات؛ لبيعوهم الأمن والسلام بثمن غال، لضعفت لأصوات النواقيس، وقصرت قامات المنائر، ولهلك أرباب الطيالس والقلانس جوعًا وسغبًا، ولأصبحت حبات الشيح أكسد في سوق الأديان من بعر الآرام في سوق الأنعام. ولو علم الابن أن أباه يحبه لما يرجوه من منفعته في شيخوخته، وأنه إنما يعجب بنفسه في إعجاب به وثناؤه عليه، ويفخر بقوة عقله وحسن تدبيره في فخره بذكائه ونبوغه، لضعفت صلة الود بينه وبينه، وما كانت بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر. ولو علمت الزوجة أن زوجها يحب منها جسمها أكثر مما يحب نفسها، وأنه يتربص بها الدوائر ويعد ليومها الساعات والأيام ليستبدل بها خيرًا منها، لما وثقت بوده ولا اطمأنت لعهدِهِ ولما كان للمنازل سُقوف تظل الأسرة والمهاد.

(١) السليك: رجل معروف بسرعة الإحري في العرب.

(٢) السالخ: الحية ولدغتها يقال: أرق من سلخ الحية ومسلخها، ويقال عن ذكر الحية: أسود سالخ.

(٣) النيشان: الوسام التي تهبه الدول للعظاماء.

زيد وعمرو



أرادَ داودُ باشا - أحدُ وزراءِ تركيا في العهدِ القديم - أن يتعلَّم
اللغةَ العربيَّةَ فأحضرَ أحدَ علَمائِهِ، وأخذَ يتلقَّى عنهُ علومَهُ عهدًا طويلًا،
فكانتَ نتيجةُ عملِهِ ما سترَاهُ. ■

سألَ شيخَهُ يومًا: ما الذي جناهُ عمرو من الذنوبِ حتى استحقَّ أن يضربهُ زيدٌ كلَّ
يومٍ ويُبْرِحَ بهِ هذا التبريحَ المؤلِّمَ؟! وهل بلغَ عمرو من الذلِّ والعجزِ منزلةً من يضعفُ
عن الانتقامِ لنفسِهِ، وضربَ ضارِبِهِ ضربةً تقضي عليه القضاةَ الخيرَ؟

سألَ شيخَهُ هذا السؤالَ وهو يتحرَّقُ غيظًا وحنقًا، ويضربُ الأرضَ بقدمَيْهِ؛ فأجابَهُ
الشيخُ: ليسَ هناك ضاربٌ ولا مضروبٌ، يا مولاي، وإنما هي أمثلةٌ يأتي بها النُحاةُ
لتقريبِ القواعدِ من أذهانِ المتعلِّمينَ. فلم يُعجِبَهُ هذا الجوابُ، وأكْبَرَ أن يُعجَزَ مثلُ
هذا الشيخِ عن معرفةِ الحقيقةِ في هذه القضيةِ، فغضبَ عليه وأمرَ بسجنِهِ، ثم أرسلَ
إلى نَحْوِيِّ آخَرَ فسألهُ كما سألَ الأولَ، فأجابَهُ بمثلِ جوابِهِ، فسجنَهُ كذلك، ثم ما زالَ
يأتي بهم واحدًا بعدَ واحدٍ، حتَّى امتلأتِ السُّجونُ وأفقرتِ المدارسُ وأصبحتْ هذه
القضيةُ المشؤومةُ الشغلَ الشاغلَ عن جميعِ قضايا الدولةِ ومصالِحِها.

ثم بدا لَهُ أن يَسْتَوْفِدَ علماءَ بغدادَ، فأمرَ بإحضارِهِم، فحَضَرُوا وقد عَلِمُوا قَبْلَ
الوُصُولِ إليه ماذا يُرادُ بِهِم. وكانَ رَئِيسُ هؤلاءِ العُلَماءِ بمكانَةٍ مِنَ الفضلِ والحدقِ
والبَصَرِ بمواردِ الأمورِ ومُصادِرِها، فلما اجتمَعُوا في حَضْرَةِ الوَزيزِ أعادَ عليهم ذلكَ
السؤالَ بَعينِهِ، فأجابَهُ رَئِيسُ العُلَماءِ: إن الجنايةَ التي جناها عمرو يا مولاي يستحقُّ
أن ينالَ لأجلِها مِنَ العُقوبةِ أكثرَ ممَّا نال؛ فانبسطتْ نفسُهُ قليلاً وبرقتْ أساريرُ وجهِهِ،
وأقبلَ على مُحدِّثِهِ يسألهُ: ما هي جنائيتُهُ؟ فقالَ له: إنه هَجَمَ على اسمِ مَوْلانا الوَزيزِ
واغتصبَ منه الواو، فسَلَطَ النَحْوِيُّونَ عليه زيدًا يضربهُ كلَّ يومٍ جزاءً وقَاحتهِ وفُضلهِ -
يُشيرُ إلى زيادةِ واو عمرو وإسقاطِ الواو الثانيةِ من داود؛ فأعجبَ الوَزيزُ بهذا الجوابِ
كلَّ الإعجابِ، وقالَ لرئيسِ العُلَماءِ: أنتَ أعلمُ من أَقلَّتِهِ الغبراءُ، وأظنُّهُ الخضرَاءُ،
فاقتَرَحَ عليَّ ما تشاءُ، فلم يقترحْ عليه سِوى إطلاقِ سبيلِ العُلَماءِ المسجونينَ؛ فأمرَ
بإطلاقِهِم، وأنعمَ عليهم وعلى عُلَماءِ بغدادَ بالجوائزِ والصَّلَاتِ.

أحسن داودُ باشا في الأولى وأساء في الأخرى، ولو كنتُ مكانه لما أطلقتُ سبيلَ هؤلاء النُّحاةِ من سجنهم حتى آخذَ عليهم عهدًا وثيقًا أن يتركوا هذه الأمثلةَ الباليةَ إلى أمثلةٍ جديدةٍ مُستطرفةٍ تُؤنسُ نفوسَ المتعلمين وتذهبُ بوحشتهم، وتحوّلَ بينهم وبين النُفوسِ من سنظر هذه الحوادثِ الدمويةِ بينَ زيدٍ وعمرو، وخالدٍ وبكر.

لا ينالُ المتعلمُ حظَّهُ من العِلْمِ إلا إذا استطاعَ تطبيقَهُ على العملِ والانتفاعِ به في مواضعِهِ ومواطنِهِ التي وُضِعَ لأجلِها، ولن يستطيعَ ذلكَ إلا إذا استكثرَ له معلّمُهُ من الأمثلةِ والشواهدِ الملائمةِ لقواعدِ ذلكَ العِلْمِ، وافتنَّ له في إيرادِها افتنانًا يُقربُ إلى ذهنِهِ تلكَ الصِّلةِ مِنَ العِلْمِ والعملِ، ويُسهّلُ له الوصولَ إلى القدرةِ على تلكِ المُطابَقةِ. وإن أكثرَ المتعلمينَ في مدرسةِ الأزهرِ أبعدُ الناسِ عن القدرةِ على المُطابَقةِ، لما حالَ بينهم وبينَ ذلكَ من الوُقوفِ عندَ المثلِ الواحدِ لكلِّ قاعدةٍ من قواعدِ العِلْمِ. فلو أنك أردتَ أحدهمَ على أن يخرجَ في المنطقِ عن الحيوانيةِ والناطقيةِ، وفي النحوِ عن «ضربَ زيدٍ عمرًا»، و«قتلَ خالدٌ بكرًا»، وفي البيانِ عن تشبيهِ زيدٍ بالبدرِ، واستعارةِ الأظافرِ للمنيّةِ، وفي الصّرفِ عن «فعللَ وأفعولَ»، لوجدتَ في نفسه من الجهدِ والمشقةِ، وفي لسانِهِ مِنَ العيِّ والحضِرِ ما يُحزنُك على أعوامٍ طوالٍ قضّاها بينَ المحابرِ والدفاترِ، ثم لم يحصلَ من بعدها على طائلٍ. عَلّامٌ يتعلّمُ الطالبُ النحوَ والصرفَ إن عَجَزَ عن أن يقرأَ صحيحًا كلَّ كتابٍ وكلَّ صحيفةٍ؟! وَعَلّامٌ يتعلّمُ علومَ البلاغةِ إن عَجَزَ عن معرفةِ أسرارِ الكلامِ، وأوجهِ بلاغتهِ وفهْمِ المرادِ من مختلفاتِ أساليبهِ، وعن الإبانةِ عمّا يدورُ في نفسه إبانةً واضحةً لا يشوبها قلقٌ ولا اضطرابٌ؟! وَعَلّامٌ يتعلّمُ المنطقَ إن عَجَزَ عن التمييزِ بينَ فاسِدِ القضايا وصحيحها في كلِّ ما يعرضُ عليه منها، وإن لم يكنِ الموضوعُ الإنسانَ، والمحمولُ الحيوانَ الناطقَ!؟

عجيبٌ جدًّا أن يفهمَ الصانعُ الأميُّ أن العِلْمَ للعملِ، فلا يتعلّمُ النجارةَ إلا ليصنعَ الأبوابَ والصناديقَ، ولا الحدّادةَ إلا ليصنعَ الأقفالَ والمفاتيحَ، وأن يجهلَ المتعلمُ هذه القضيةَ الضروريةَ، فلا يهتمُّ من العِلْمِ إلا الاستكثارُ من المعلوماتِ والقواعدِ، وإن عَجَزَ بعدَ ذلكَ عن التصرّفِ فيها، والانتفاعِ بها في مواطنِها.

ما دامت مدرسةُ الأزهرِ على هذه الحالِ من أسلوبِ التعليمِ العقيمِ، فليسَ بمقدورٍ لها في مُستقبلِ الأيامِ أن ينبغَ منها العلماءُ الذين تستطيعُ أن تنتفعَ بهم الأمةُ انتفاعَ أمثالِها بأمثالِهِم في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها. فَوَيْلٌ للعِلْمِ مِنَ العُلَماءِ.

أبو الشمقمق (١)



إن كثيراً من الفقراء لم تمتد يد الفقر إلى رءوسهم، كما امتدت إلى جيوبهم، فهم يُدركون كما يدرك الأغنياء، ويفهمون كما يفهمون. وكما أن في أغنياء الجيوب فقراء الرءوس، كذلك في فقراء الجيوب أغنياء الرءوس.

ولقد جلست في منزلي صبيحة يوم مع قوم من الماديين الذاهبين الذين ملأ المال فراغ أذهانهم حتى أنساهم كل شيء وأنساهم أنفسهم قبل ذلك، فأخذوا يتجادون أسلاك الأحاديث الذهبيّة ما بين تاجر يُعجبُ بصفقتِهِ الرابحة، وزارع يفخرُ بقلّة ما أعطى وكثرة ما أخذ، وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الأسعار. والكل متفقون على أن السعادة التي أظلتهم أجنحتها في هذا العهد الأخير، عهد العدل والإنصاف، عهد الحرّيّة والمساواة، عهد الرقيّ والعُمران، هي أشبه شيء بسعادة المتّقين في جنّات النعيم.

كلُّ هذا وأبو الشمقمق جالسٌ ناحيةٍ يخرز طرفه^(٢)، ويهزُّ رأسه، ويصعدُ أنفاسه، ويمضغُ أضراسه، ويثنُّ من أعماق قلبه أنيناً يكادُ يسمَعُ فيه السامعُ قولَ الشاعر:

فيا لكَ بَحْرًا لم أجِدْ فِيهِ مَشْرَبًا عَلَيَّ أَنْ غَيْرِي وَاجِدٌ فِيهِ مَسْبَحًا

فما هو إلا أن قَضُوا لِبَانَتَهُمْ^(٣)، من الكلام المملول، والحديث المُعاد حتى قاموا يُطَيِّرُونَ الأمالَ وراءَ الأموال. فأشْرُتْ إلى أبي الشمقمق أن يختلفَ ففعل. فسألته: ما لكَ لم تشتركَ معنا فيما كُنَّا فِيهِ؟! فأجاب: إنني أكرهُ الفُضُولَ في الحديث، وقد فَرَّقَ المقدارُ بيني وبينكم في المال، فلا أشتركُ في المقال، فقلتُ: ألا يُعجبُك يا أبا الشمقمق حديثُ النهضةِ الحديثِ التي نهضتْها الأُمّةُ المصربيّةُ في عهدها الأخير وأمنَ فَرْدٌ من أفرادها، وجزءٌ من أجزاءِ جسمِها؟! فهو ضُها

(١) هو في الأصل رجل أديب من أدباء المولدين، كان شديد الفقر.

(٢) يخرز طرفه: يحرکہا فتحًا وغلطًا، يقال خرز من ركب ومن رمد قال الشاعر:

لَنْ تَدْرِكَا خِرَزَاتِ أَرْ بَدَ لَأَبْكِيَا حَتَّى تَفُودَا

(٣) قضاوا لبانتهم: انتهوا من كلامهم الممجوج، وهو من المجازات.

نهوضك، وسقوطها سقوطك، والأمة - كما تعلم - هي الفرد المتكرر والواحد الدائر، فأنت الأمة والأمة أنت.

فقال: والله لا أدري أتكلّمني بلسان الصوفية، ولست بصوفي، أم بلغّة الفلاسفة، ولا أفهم للفلسفة معنى؟ وكأنك تقصدني بالفرد المتكرر؛ فإن كنت تريد أنني فرد متكرر كثير الأشباه والأمثال في العوز والفاقة، وواحد لا سند لي ولا عضد، ودائر في مدارج الطرق ومعابر السبل، فقد أصبت وأحسنت. وإن كنت تريد معنى غير ذلك، فأنا لا أفهم إلا كذلك. فهل لك أن تُعفيني من الجواب على هذه المُعمّيات، وتزّن كلامك على مقدار عقلي، وتحذّثني فيما يتناوله سمعي وبصري؟

فقلت: أنا لم أخرج بك عن المألوف المعروف، ولا أريد إلا أن الأمة ليست في الخارج شيئاً غير أفرادها، فإذا سعدت أو شقيت فالسعداء والأشقياء أبنائها. وحسبك أن ترى تقدّم الأمة المصرية في ثروتها وعمرانها، وبدخها وترفها، وكثرة ناطقها وصامتها^(١)، فتسعد بسعادتها وتهنأ بهنأتها.

فقال: إن لم تُبين لي سهمي من هذه السعادة، ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء، وما دُمْتُ أرى أن لي هوية مستقلة عن هوية سواي من السعداء، ويداً تقصر عما تتناوله أيديهم، وبطناً لا يمتليء به بطونهم، وما دُمْتُ أرى واحداً بينهم يلبس معي ردائي الممزق.. وقميصي المخرق.. ويُقاسمني همي.. ويُشاطرني فقري.. فهيهات أن أسعد بسعادتهم، وأسرّ بسرورهم.. وهيهات أن أفهم معنى قولك: أنت الأمة والأمة أنت.. فقلت: إن الغيث إذا نزل يسقي الخصب والجديب.. والنجد والوهد^(٢)، وينتظم من الأرض الميت والحَي، فقال: كل سماءٍ فيها هذا الغيث إلا سماء مصر فإني أراه:

كبير أضاء الأرض شرقاً ومغرباً وموضع رجلي منه أسود مظلم
ما لي وللروض الذي لا أستشقُّ روحه وريحانه.. والقصر الذي لا أدخله مالكا
ولا زائراً.. وهب أن الطرُق مفروشة بالحريير والديباج.. لا بالحصى والمدر.. فهل
أبقى لي الدهر من حاسة اللمس شيئاً فأستطيع أن أميّز بين خشن الملمس وناعمه،

(١) الناطق: ما له كيد، والصامت: الذهب والفضة قال الشاعر:

فلا المال يُخلدني صامتا مُبلت ولا ناطقا أكبد

(٢) النجد: المرتفع، والوهد: المنخفض.

ومُعْوجَّ الأرض ومُسْتَقِيمها؟! وهَبْنِي إِذَا مَشَيْتُ خُضْتُ فِي بَحْرِ مَائِحِ بِأَنْوَارِ الْكَهْرِبَاءِ، فَهَلْ يُعْنِي ذَلِكَ عَنِي شَيْئًا؟! وَهَلْ يُكُونُ نَصِيبي مِنْهُ إِلَّا انْكِشَافَ سَوَاتِي وَرِثَاةَ حَالَتِي لِأَعْيُنِ النَّاطِرِينَ؟! وَلَقَدْ حُبَّبَ إِلَيَّ الظَّلَامُ حَتَّى تَمَنَيْتُ دَوَامَهُ؛ لِأَلْبَسَ مِنْ ثَوْبِهِ الطَّبِيعِيَّ مَا يَكْفِينِي مُؤَنَةَ الرَّتْقِ^(١) وَالْفَتْقُ.. وَالتَّمْزِيقُ وَالتَّرْقِيعُ.. وَبَعْدُ، فَمَا هُوَ الْارْتِقَاءُ الَّذِي تَزَعَّمُهُ وَتَزَعَّمُ أَنَّهُ يَعْنِينِي وَيَسْمُلُنِي؟ هَلْ تَرَقَّتْ غَرَائِزُ الْإِحْسَانِ فِي نَفُوسِ الْمُحْسِنِينَ؟ وَهَلْ خَفَقَتْ قُلُوبُ الْأَغْنِيَاءِ رَحْمَةً بِالْفُقَرَاءِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ.. أَمَّا تَرَى الْأَمْوَالَ الَّتِي يَتَّبَرَعُ بِهَا الْأَغْنِيَاءُ لِلْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةِ، وَالَّتِي يُنْفِقُهَا الْمُحْسِنُونَ عَلَى بِنَاءِ الْمَدَارِسِ وَالْمَكَاتِبِ وَالْمَسْتَشْفِيَّاتِ؟! فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الَّتِي تُسَمِّي بِهَا مَكَارِمَ، لَا يُسَمِّي بِهَا أَصْحَابُهَا إِلَّا مَغَارِمَ، أَلْجَأَهُمْ إِلَيْهَا التَّمَلُّقُ لِلْكَبْرَاءِ، وَحُبُّ التَّقَرُّبِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ، وَالطَّمَعُ فِي الزَّخْرِفِ الْبَاطِلِ وَالْجَاهِ الْكَاذِبِ.

مَا لِي وَلِلْمَدَارِسِ وَالْمَسْتَشْفِيَّاتِ، وَأَنَا جَوْعَانٌ خَبِيزٌ لَا جَوْعَانَ عِلْمٍ.. وَلَا مَرَضٌ عِنْدِي إِلَّا مَرَضُ الْفَاقَةِ^(٢)، فَهَلْ أَجِدُ فِي الْمَدَارِسِ خُبْرًا أَوْ فِي الْمَسْتَشْفِيَّاتِ دَوَاءً كَذَلِكَ الدَّوَاءِ الَّذِي وَصَفَهُ أَحَدُ الْأَطْبَاءِ الْكِرَامِ لِرَجُلٍ جَائِعٍ دَخَلَ عَلَيْهِ وَشَكَا إِلَيْهِ مَرَضًا فَعَرَفَ سِرَّ مَرَضِهِ فَأَعطَاهُ عُلْبَةً وَكَتَبَ عَلَى غَطَائِهَا «يُؤَخِّدُ مِنْهُ عِنْدَ اللُّزُومِ» فَلَمَّا ذَهَبَ بِهَا الْفَقِيرُ، وَفَتَحَهَا وَجَدَ فِيهَا عَشْرَةَ دَنَانِيرٍ.

أَنَا رَجُلٌ ضَعِيفُ الْبَصْرِ، ضَعِيفُ الْقُوَّةِ كَمَا تَرَى.. فَلَا قُدْرَةَ لِي عَلَى الْعَمَلِ.. وَعِنْدِي صَبِيَّةٌ صَغِيرَةٌ لَيْسَ بَيْنَهُمْ مَنْ يَسْتَطِيعُ عَمَلًا أَوْ يُحْسِنُ صُنْعًا. وَلَقَدْ كَانَ لِي فِي الزَّمَنِ الَّذِي تَذَمُّونَهُ، وَالْعَهْدِ الَّذِي تَنْقَمُونَ عَلَيْهِ، مَنْفَسَحٌ عَظِيمٌ فِي مَنَازِلِ الْمُحْسِنِينَ، وَمُورِدٌ نَمِيرٌ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ وَهَبَاتِهِمْ، وَظِلٌّ ظَلِيلٌ مِنْ تَحَنُّنِ الْأَغْنِيَاءِ وَرَحْمَتِهِمْ بِالْفُقَرَاءِ الْبَائِسِينَ. أَمَّا الْيَوْمَ فَإِنِّي أَبِيتُ طَاوِيًا، وَأَصْبِحُ شَاكِيًا، وَأَعْدُو رَاجِيًا، وَأَرُوحُ يَائِسًا.

وَهَذَا أَرْسَلْتُ مِنْ جَفْنِيهِ دَمْعَةً لَيْسَتْ بِأَوَّلِ دَمْعَةٍ أَرْسَلْتُهَا عَلَى رِدَائِهِ، وَلَكِنَّهَا أَحْرٌ مِنْ سَابِقَاتِهَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَبْكْ فِي غَيْرِ خَلْوَتِهِ غَيْرَ هَذِهِ الْمَرَّةِ.

ثُمَّ نَهَضَ وَمَدَّ يَدَهُ إِلَيَّ مُودِّعًا، فَمَسَحَتْ بِيَمِينِي دَمْعَةً وَاحِدَةً مِنْ دُمُوعِهِ الْكَثِيرَاتِ.



(١) رَتَّقَ الثَّوبَ: خَطَّاهُ وَأَصْلَحَهُ.

(٢) الْفَاقَةُ: الْفَقْرُ الشَّدِيدُ.

دورة الفلك (١)



أيها القصر

أين الكوكب الزاهر الذي كان يتنقل في أبراجك؟! أين النسر الطائر
الذي كان يحلق في أجوائك؟! أين الملك القادر الذي كان يطلع شمساً
في صباحك وبدراً في مسائك؟! ■

أين الأعلام والبنود تخفق في شرفاتك؟! والقواد والجنود تخطر في عرصاتك^(٢)؟!
أين الشفاه التي كانت تلمم ترائبك؟! والأفواه التي كانت تقبل أعتابك؟! والرءوس التي
كانت تطرق لهيبك؟! والقلوب التي كانت تخفق لرضوعتك؟!
أين الصوت الذي كان يجلجلل فيقرع أذن الجوزاء^(٣)؟! ويهدر فتلتفت عيون
السماء؟! أين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس، والتعيم والبؤس، والرفع
والخفض، والإبرام والنقض؟!
كيف استطاع الدهر أن يمد يده إلى شملك فيبده؟! وجمعك فيفرقه؟! وسمائك
فيكور شمسها؟! وأرضك فيزعج أنيسها؟!
أين كانت أسوارك وأبوابك، وحراسك وحجائبك؟! وكيف عجزت أن تمتنع على
القضاء؟! وتصد عن نفسك عادة البلاء؟!
ولم أزم مثل القصر إذ ريع سربه
وإذا دعت أطلاؤه وجاذره
تحمل عنه ساكنوه وهتك
على عجل استاره وستائره

أيها السجن

حل بأرجائك اليوم ملك تضييق به الدنيا، فكيف وسعته؟! وتعجز عن احتمال
قلل الجبال الرواسي فكيف احتملته؟! رفقا به لا تزعبه، ولا تخرج صدره، وضم

(١) جاء في طبعة سنة ١٩١٠م أنها كتبت بمناسبة سقوط عبد الحميد.

(٢) العرصة والعرصات: أرض الدار وساحتها، والمراد بها هنا الساحات في المعارك أو قصر السلطان عبد الحميد.

(٣) الجوزاء: الفضاء الواسع.

جانحَتْكَ عَلَيْهِ كَمَا تَضُمُّ عَلَى الْقَلْبِ حَنَائِيَا الضَّلُوعِ، وَاَعْطِفْ عَلَيْهِ عَطْفَ الْمَرْضَعَاتِ عَلَى الرُّضِيعِ، وَارْحَمْ هَذَا الْجَلَالَ الذَّاهِبَ، وَالْعِزَّ الزَّائِلَ، وَالرَّأْسَ الَّذِي بَيَّضَتْهُ حَوَادِثُ الدَّهْوَرِ، وَالظَّهَرَ الَّذِي قَوَّسَتْهُ أَيْدِي الْمَقْدُورِ.

أيها الدهر

أَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنَامَ عَنِ الْإِنْسَانِ لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ؟ أَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْقِيَهُ كَأْسَ الشُّرُورِ خَالِصَةً، لَا يَمَارِزُهَا كَدْرًا، وَلَا يَشُوبُهَا عَنَاءً؟

إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ تَسْلُبَهُ فَلِمَ أَعْطَيْتَهُ؟! وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ تَعْطِيَهُ فَلِمَ سَلَبْتَهُ؟! كَانَ خَيْرًا لَهُ أَنْ لَا تُعْطِيَهُ حَتَّى لَا تَفْجَعَهُ فِي تِلْكَ الْعَطِيَّةِ، وَأَنْ لَا تَسْقِيَهُ كَأْسَ السُّرُورِ حَتَّى لَا يَتَجَرَّعَ ذَلِكَ السِّمَّ الَّذِي أَوْدَعْتَهُ تِلْكَ الْكَأْسَ.

أيها الرجل المودع

كَانَ ارْتِفَاعُكَ عَظِيمًا، فَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ سُقُوطُكَ عَظِيمًا.

إِنَّكَ ذُقْتَ حَلَاوَةَ الْحَيَاةِ خَالِصَةً، فَلَمَّا ذُقْتَ مَرَارَتَهَا جَزَعْتَ وَقَطَبْتَ كَمَا يَجْرَعُ وَيُقَطِّبُ كُلُّ مَنْ ذَاقَ مِنَ الشَّرَابِ مَا لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ وَلَا قَبْلَ لَهُ بِاحْتِمَالِهِ.

لَا تَأْسُ عَلَى مَا فَاتَكَ، فَإِنَّمَا كَانَ وَدِيعَةً مِنَ وَدَائِعِ الدَّهْرِ، أَعَارَكَهَا بَرَهَةٌ مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ اسْتَرَدَّهَا.

إِنَّكَ لَا تَدْرِي، لَعَلَّ اللَّهَ أَرَادَ بِكَ: خَيْرًا فَمِنْحَكَ قَبْلَ حُلُولِ أَجَلِكَ فَرِصَةً مِنَ الزَّمَانِ تَخْلُو فِيهَا بِنَفْسِكَ، وَتَرَاجِعُ فِيهَا فَهْرَسَ أَعْمَالِكَ، فَإِنْ رَأَيْتَ خَيْرًا اغْتَبَطْتَ، أَوْ شَرًّا اسْتَغْفَرْتَ.

قَضَى اللَّهُ أَنْ يَقِيمَ فِي كُلِّ حِينٍ لِهَذَا الْعَالَمِ الْغَافِلِ عِبْرَةً مِنَ الْعِبَرِ تُرْعِجُهُ مِنْ رَقَدَتِهِ، وَتُوقِظُهُ مِنْ غَفْلَتِهِ، فَكُنْتَ أَنْتَ عِبْرَةً هَذَا الدَّهْرِ وَمَوْعِظَتُهُ.

مَنْ بَاتَ بِعَدْلِكَ فِي مُلْكٍ يُسَرُّ بِهِ فَإِنَّمَا بَاتَ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورًا



تأبين فولتير



في ٣ مايو ١٨٧٨ م احتفلت فرنسا بتذكار مرور مائة سنة على وفاة فولتير، ودُعِيَ فكتور هوجو فألقى في الحفلة في باريس خطبة التأبين^(١).

في مثل هذا اليوم - منذ مائة سنة - مات الرجل العظيم، مات الرجل الخالد، مات فولتير بعد أن احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال، وأثقال جلائل الأعمال، وأثقال الأمانة العظيمة التي عرّضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملها الإنسان وحده، وهي تهذيب السريرة الإنسانية، فهذبها فاستنارت فاستقام أمرها.

مات فولتير مرذولاً محبوباً في آنٍ واحدٍ. يبغيه الماضي؛ لأنه يجهله ويحبه المستقبل لأنه عرفه.

أيها القوم إن في هاتين العاطفتين - البغض والحب - سرّاً عظيماً من أسرار المجد العظيم لذلك الرجل العظيم.

كان وهو على سرير الموت مُحاطاً بعاطفتين مختلفتين شكلاً، مُتَفَقِّتَيْن جَوْاً وحققة؛ لأنهما جميعاً في سبيل مجده وفخاره. كان ينظر أمامه فيسره منظر التبجيل والتعظيم من حاضره ومستقبله. ويلتفت وراءه فيطربه به مثل البغض والازدراء والحق الذي يكنه الماضي في صدره لأولئك الرجال البواسل الذين قاتلوه فانتصروا عليه.

كان فولتير رجلاً وأكبر من رجل، كان وحده أمة كاملة، إنه عاهد نفسه على إنجاز عمل فأنجزه ولم تخلف وعده. وكان الإرادة الإلهية المتجلية في الشرائع تجليها في الصنائع، بعثت كنانة هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه، فوجدت فولتير أصلبها عوداً، فانتدبته للقيام بالعمل الذي قام به فآتمه.



(١) جاء في طبعة ١٩١٠م أنها ترجمة خطبة خطبها «فيكتور هوجو» في باريس في حفلة تأبين «فولتير» الفيلسوف المشهور سنة ١٨٧٨م بعد مرور قرن على وفاته مع بعض التصرف.

سلخ هذا الرجل أربعةً وثمانينَ حولًا كانت ملءَ الفضاءِ الكائن بين مغرب الشمس ومشرقها، بين غروب الملكيّة وشروق الثّورة. وُلد في عهد لويس الرابع عشر ومات بعد انقضاء ملك لويس السادس عشر. أشرق على مهده الشعاعُ الأخيرُ من أشعة العرش العظيم، وعلى نَعشه الشعاعُ الأوّل من أشعة الهاوية العظيمة. كيف تكون للهاوية أشعة؟! أجل إن في الكونِ هوىً طيبةً مباركةً وهي التي تجذب الشرَّ إليه وتطويه في جوفها.

الآن أمضى في بياني، فقد شرحتُ الكلمة الغامضة، وما كنتُ لأمضي قبل أن أشرحها لأننا ما اجتمعنا هنا إلا لننطق بالصواب من القول، والرائع من الحكمة. إنّا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسألة الاجتماعية، جئنا؛ لترفع شأن المدينة ونكرم الفلسفة إكرامًا ينفعها ويفيدها، جئنا؛ لتتلو على القرن الثامن عشر رأي القرن التاسع عشر فيه، جئنا؛ لنكرم المجاهدين والعاملين المخلصين، اجتمعنا؛ لنمهّد الطريق للوحدة الإنسانية التي يسعى إليها العلماء والعاملون، والصنّاعُ المُجدّون. وجملة القول إنّا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجّد العاطفة الشريفة السامية، عاطفة السلام العام. إنّا نمجّد السلامَ حُبًا في المدينة وحرصًا على روثقها وروائها فإن السلامَ فضيلة المدينة، والحربَ رذيلتها.



نحن، في هذه اللَّمحة الكبيرة في هذا الموقفِ المُهيب، نَجثوا على الركب ونعفّر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية، ونقول للعالم الذي ينصتُ لسماع صوتِ فرنسا «لا قوّة إلا قوّة الضمير، ولا مجدٌ إلا مجدُ الذكاء». ذلك في سبيل العدل، وهذا في سبيل الحق.

أيها القوم

لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة على هذا المثال: الشعبُ في المنزل الدنيا، وفوق الشعب الدين والقضاء. هذا يمثلُه القضاء، وذاك يمثلُه الأكليروس. أتدرون كيف كان الشعب، وكيف كان الدين والقضاء في ذلك العهد؟! كان الشعبُ جهلاً، والدينُ رياءً، والقضاءُ ظلمًا. إن كنتم في شكٍّ مما أقول فإنني أقصُّ عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناءً ومقنعا للحائر المتردد.

في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١م وُجد شابٌ مَشْنُوقًا في الطبقة الأرضية من بيت في مدينة طولوز، فهاج الشعبُ ولَغَطَ الأكليروس، وبحثَ القضاةُ، فكانتِ النتيجةُ أن كان الشابُّ مُنتَحِرًا فَسَمِّي قَتيلًا، ووالدهُ بريئًا فَسَمِّي قَاتِلًا.

هكذا أرادَ الدينُ وأرادتُ مصلحتهُ أن يهلكَ والدُ الفتى؛ لأنه كان بروتستانتيًا، وكان يمانعُ فتاهُ أن يتمدَّهَبَ بالكثلكة. إنها لجنائيةٌ فظيعةٌ جدًّا يُنكرها الدينُ ويحيلها العقلُ، ولكنْ هانَ عليها أمرُها ولم يحفلوا بالشريعتين، فحكّموا أن الشيخَ الكبيرَ قَتَلَ ولدهُ الصَّغيرَ.

هكذا قضى القضاءُ، وهكذا كانتِ النتيجةُ فاستمعوها.



في شهر مارس سنة ١٧٦٢م سيقَ إلى الميدانِ العامِّ شيخٌ أبيضُ الشعرِ، هو جان كالاس، ثم جُرِّدَ من ثيابه، وطُرِحَ على دولابِ العذابِ، وشُدَّتْ به أطرافُه، وتركوا رأسه مُتَدَلِّيًا.

ثلاثةُ رجالٍ تلوَّثتْ أيديهم بدمِ القتلِ؛ كاهنٌ يحملُ الصليبَ، وجَلَّادٌ يحملُ القضيبَ، وقاضٍ اسمه داودُ يحملُ في صدره عهدَ القومِ إليه بالتنكيلِ والتعذيبِ. لم يكن الشيخُ المسكينُ، وقد شقَّ الخوفُ مرارتهُ وتمشَّى قلبُه في صدره، ليُنظَرَ إلى الصليبِ في يَدِ الكاهنِ، بل إلى القضيبِ في يَدِ الجَلَّادِ.



رفعَ الجَلَّادُ القضيبَ وضربَ ذراعَ الشيخِ ضربةً كاسرةً صاحَ على أثرها صيحةً مؤلمةً، ثم أُغمِيَ عليه. فتقدَّم القاضي الرحيمُ وأمرَ له بالمُنْبَهِاتِ، فانتعشَ وأفاقَ، فضربَهُ الجَلَّادُ الضربةَ الأخرى فوقَ الذراعِ الأخرى، فعادَ إلى صرختِهِ وإغمائه، وعادوا إلى تنبيهه وإنعاشه حتى تمَّ لكلِّ ذراعٍ من ذراعَيْهِ ضربتانِ وكِسرانِ؛ فكأنما قتلوه قبلَ موتهِ ثمانِي مَرَّاتٍ.

في الإغماءِ الثامنِ بعدَ مرورِ ساعتينِ من العذابِ، تقدَّم الكاهنُ ومدَّ إليه الصليبَ ليقبَلَهُ، فحوَّلَ وجهه عنه، فأقبلَ الجَلَّادُ وسدَّدَ إلى صدره الطرفَ الغليظَ من القضيبِ الحديدِ، وضربَهُ ضربةً ألصقتْ صدره بظهره فكانتِ القاضيةُ.

على هذه الصورة ماتَ جان كالاس.

وما هي أيامٌ قلائلٌ حتى عرفَ الناسُ أن الفتى ماتَ مُنتحِرًا لا مَقْتولًا، فحَكَمُوا ببراءةِ الشيخِ بعدَ أن نَفَذَ فِيهِ سَهْمُ القَضَاءِ. وماذا يَعْنِيهِ بَعْدَ المَوْتِ، أَمَاتَ ظالمًا أم مَظْلومًا؟!

لم يَجِنِ الشَّيْخُ على الفتى، وَجَنَى على الشيخِ القَضَاءُ.
أما الحادثةُ الأخرى فهي عِبْرَةٌ للشبابِ كما كانتِ الأولى مَوْعِظَةً للشَّيْخِ وَخَوْعَةً.

بعدَ مَضَى ثلاثِ سنينَ من تاريخِ الحادثةِ الأولى وَجَدُوا في «إيفل» صَليبيًا عَتيقًا، أَكَلَ السُّوسُ أحشاءَهُ حتى عَافَ البَقَاءَ فِيهِ، مُطَّرِحًا فوقَ الجَسْرِ بعدَ أن عاشَ فوقَ السُّورِ ثلاثةَ فُرُونٍ، وكانَ ذلكَ في لَيْلَةٍ عاصِفةٍ.

مَنْ أَلْقَى بِهِ منَ أعلى السُّورِ؟! مَنْ أَهانَهُ؟! مَنْ ذَا الذي دَنَسَ هذا الأثرَ المَقْدَسَ؟! مَنْ ذَا الذي أَجْرَمَ هذا الجُزْمَ العَظِيمَ؟! رَيمًا عَصَفَتْ بِهِ رِيحٌ، أو عَبَثَ بِهِ عابِرُ طَريقٍ، أو هَوَى بِهِ ضَعْفُ الشَّيْخِ وَخَوِجَةُ وإِعياءُ الهَرَمِ. وعلى كلِّ حالٍ لم يُعَرَفِ المَجْرِمُ. ولكنَّ أبى الدينَ إلا أن يُوجَدَ مُجرِمًا. هنالكَ أعلنَ مطرانُ أُميانَ بَراءَةَ مِن غُفْرانِ الله وَرحمتهِ لكلِّ مَنْ عَلِمَ أو ظَنَّ أَنَّهُ عَلِمَ شَيْئًا عن هذه الحادثةِ فَكَتَمَهُ.



إن الحِرمانَ في الكَثَلِكَةِ جَريمةٌ هائلةٌ فظيعةٌ قاتلةٌ متى أوحى بِهِ التَعَصُّبُ الذَمِيمُ إلى الجَهِلِ العَظِيمِ.

كانَ هذا الحِرمانُ سَببًا في أن القَضَاءَ عَرَفَ، أو ظَنَّ أَنَّهُ عَرَفَ أن ضابطينَ؛ اسمُ إحداهما لبارِ والأخر ديتالون، مرًّا على جَسْرِ إيفلِ في تلكَ اللَّيلةِ المشهُومَةِ يترنَّحانَ سَكْرًا وينشِدانَ نَشيدًا عَسْكَرِيًّا. مرًّا بالجَسْرِ وأنشدا النَشيدَ فهُما المُجرمانِ. وكانتِ المَحْكَمَةُ تُقَدِّسُ إيفلَ، ولم تُكُنْ بأقلَّ عَدَلًا وإِنصافًا من مجلسِ الكابيتولِ في طُولوز، فأمرَتْ بالقَبْضِ على الرَجُلَيْنِ فاخْتَفَى ديتالون وقَبِضَ على لَبارِ، وأسَلِمَ إلى القَضَاءِ، فاعترفَ بالنَشيدِ وأنكَرَ المَروَرَ على الجَسْرِ. فَحَكَمَتْ عَلَيْهِ مَحْكَمَةُ إيفلِ بالإعدامِ، وأيَّدَ حُكْمَها برلمانُ باريسَ، فَذَنَبَتِ السَّاعَةُ المَخيْفَةُ الهائلةُ. لقد تَفَنَّنوا في تَعذيبِ الشَّيفاليهِ دي لَبارِ وإِرهاقِهِ؛ ليَكشِفوا عن سِرِّ فَعَلتِهِ وَعَن شِركائِهِ في جَريمَتِهِ، أي جَريمةِ المَروَرَ على الجَسْرِ وإِنشادِ النَشيدِ. لقد عَذَّبُوهُ عَذابًا أليمًا حَتَّى أن الكاهنَ الذي جِيءَ بِهِ؛ لِيَسْمَعَ اعترافَهُ أغمِيَ عَلَيْهِ حينَما سَمِعَ قَرَقَعَةَ عِظامِ رُكْبَتَيْهِ.

مَضَى هذا اليوم، وجاءَ اليوم الثاني وهو يوم من يونيو سنة ١٧٦٦ م. وجيء بالشابِّ المظلوم إلى ساحةِ إيفل الكبرى حيث تَشْتَمِل نَارُ العذابِ وتَضَطْرْمُ اضْطِرَامًا، فأَسْمَعُوهُ نَصْرَ الحُكْمِ، ثم بَتَرُوا يَدَهُ، ثم اسْتَلُّوا لسانَهُ بقابضٍ من الحديد فاستأصلوه. ولكنهم رَحِمُوهُ بعدَ ذلك ففَقَطَعُوا رأسَهُ وأَلْقَوْا بها في النارِ.

على هذه الصورة مات الشيفاليه دي لا بار كما من قبله جان لاكاس. أحرزك هذا المنظرُ يا فولتير، وآلمَ نفسك، ومَلَكَ عليك شعوركُ ووجدانك، فصِحتُ صيحةَ الرُّعبِ والجَزَعِ، فكانتِ تلك الصيحةُ الحَجَرَ الأولَ في بناءِ مجدك العظيم الخالد.

هنالك انبعتت نفسك إلى النزولِ في ميدانِ المجتمع الإنساني؛ لتكفَ عاديةِ الظالمين، وتُقَلِّمَ أظفارَ الوحوش الضارية، وجلست في منْصِبِ القضاء؛ لتُحاكِمَ الماضيَ على جَرائِمِهِ وتنتصِفَ منه للمستقبل، فانتصفت وانتصرت وكنت من المحسنين.

أيها الرجل العظيم

طبتَ حَيًّا ومَيِّتًا.

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتها على مشهد من المجتمع المهذب الراقي، ومن حياة حافلة بالسعادة مُغتَبطة بالهناء، يَغْدُو إليها الإنسانُ لاهيًّا، ويروحُ سَاهِيًّا، لا يرفعُ رأسه فيعلم ما فوقه، ولا يُخفِضُها فيدري ما تحته.

حدث ذلك وأيامُ البلاطِ أعيادٌ، و"فرساي" تتلألُ حُسْنًا وبهاءً وَرَونقًا وماءً، وظرفاءُ الشعراءِ، مثل سان أولاير، ونوفلير، وجنتيل برنار، لاهون بالغرل الرقيقِ والوصفِ الجميلِ.

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها، فاستطاع القضاء الظالم بمساعدة القسوة الدينية أن يمثل بالشيوخ ذلك التمثيل الفظيع بذلك القضيب الحديد، وأن يستل لسان الفتى؛ لأنه أنشد الأناشيد.

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفاً من قُوَى عظيمة هائلة: قوّة البلاط، وقوّة الأشراف، وقوّة المال، قوّة الشعب المائج المندفع، وقوّة الحكومة التي كانت أسداً على الرعيّة، نعاماً بين يدعي الملك تجثو أمامه خاضعة صاغرة إلا أن جثتها كان على جثّة الشعب، وقوّة الأكليروس المؤلّف من الرّياء الكاذب والتعصّب الأعمى.

تقدّم فولتير وحده وأثار حرباً عواناً^(١) على هذا العالم القويّ المخيف، ولم يره أكبر من أن ينخدل، ولم ير نفسه أصغر من أن يتصرّر.

أندري ما كان سلاحه؟! ما كان له سلاح غير تلك الأداة التي تُجاري العاصفة في هبوبها وتسبّق الصّاعقة في انقضاضها، ما كان له سلاح غير القلم فبالقلم حارب، وبالقلم انتصر.



انتصر فولتير. فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة. فولتير أدار وحده رحي تلك الحروب الهائلة: حرب العلم والجهل، والعدل والظلم، العقل والهوى، الصّلاح والفساد، فتمّ على يديه الغلبة للخير على الشرّ وفاز فوزاً مميّناً.

كان فولتير قلباً وعقلاً، كان له رقة الفتاة في غلاّتها^(٢)، وشدة البطل في شكّته^(٣).

فولتير محا الخرافات الدينيّة، والعادات الفاسدة، وأزغم أنف الكبرياء، وأذلّ عزّ الرؤساء، ورفع السوقي إلى حيث لا يصل إليه ظلم القاضي ولا تنطع الكاهن.

وعلم ومدن وهذب، ولقى في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والتّفي والقهر ما يكسر سورة التّفنّس. فلم تنكسر سورته، ولم تفتّر عزمته، بل كان يلقى الاستبداد بالسّخرية، والغضب بالاستخفاف، والقوّة القاهرة بالابتسام المؤثّرة.

أقف هنا قليلاً إجلالاً لابتسام فولتير.



فولتير هو الابتسام، والابتسام هي فولتير. أفضل مزايا الرجل الحكيم أن يملك نفسه عند الغضب، وكذلك كان فولتير، كان عقله ميزان أعماله، فما غلبه حتى الغضب للحق. كنت تراه عابساً مقطّباً فما هي إلا كره الطرف أن ترى فولتير الضاحك المتبسّم

(٢) الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب.

(١) حرباً شديدة لا هوانة فيها.

(٣) الشكّية: السلاح وقوّة الشكّية.

في مكان فولتير العابس المقطَّب، يكادُ يكونُ ابتِسَامُهُ ضَحِكًا لولا حزنُ الحكيمِ وهَمُّ العاقلِ. كان ابتِسَامُهُ كِبَارِقَةَ السيفِ يَرْتَاغُ لها الأعداءُ وَيَرْتَاخُ لها الأولياءُ. كان يبسَمُ للقويِّ فيُخجلُهُ بتيههِ واستخفافِهِ، وللضعيفِ فيسرُهُ بتحنُّنِهِ وانعطافِهِ. فلنُتمجِّدَ ذلك الابتِسَامَ الذي كانت أشعَّتُهُ كأشعَّةِ الفجرِ تَمْحُو الظلامَ وتبعثُ الأضواءَ. نِعَمَ الابتِسَامُ ابتِسَامٌ أَنَارَ الطريقَ للعدْلِ والحقِّ والصِّلاحِ، وكشَفَ عن ظلماتِ التقليدِ.



إن ابتِسَامَةَ فولتير أنشأت هذه الهيئةَ الاجتماعيةَ الجديدةَ، وزَيَّنَتْهَا بالإخاءِ والمَوَدَّةِ والحَرِّيَّةِ والمساوَاةِ، فنالَ العقلُ منزلتَهُ من الإجلالِ والإعظامِ، سواءً أسكنَ القصرَ الكبيرَ أم الكوخَ الحقيقير. ولَبَسَ المعلمُ تاجَ المُلِكِ فتصرَّفَ في العقائدِ الباطلةِ والعاداتِ الفاسدةِ والخرافاتِ الدينيةِ تصرُّفَ الحاكمِ القدير. ونَشَرَ السَّلَامَ أَجَنَحَتَهُ البيضاءَ على المجتمعِ الإنساني فقَرَّتْ^(١) السيوفُ في الأعمادِ، وهدأتِ الدماءُ في العروقِ، والأرواحُ في الأجسامِ.

كُلُّ ذَلِكَ بفضلِ ابتِسَامَةِ فولتير. ولَسَوْفَ يَأْتِي ذلكَ اليومُ العظيمُ، يومُ الرحمةِ بالضعفاءِ والعَفْوِ عن الخاطئينِ، فَيَبْسِمُ فولتير في السماءِ ابتِسَامَةً تتلألأُ بينَ لآلِيءِ النجومِ. فلنُتمجِّدِ ابتِسَامَةَ فولتير كَلِّ التمجيدِ، ولنُكَبِّرُها كَلِّ الإكبارِ.



أيها القوم

إن بينَ المصلحِ الأولِ والمُصلِحِ الثاني سِرًّا خَفِيًّا وَأَتَصَالًا عَجِيًّا وإن كان بينَ عصرَيْهِمَا ثمانيةَ عَشَرَ قَرْنًا.

إن قتالَ الفرنسيينِ، ورَفْعَ الستارِ عن الدَسائِسِ، وإرغامَ أَنْفِ الظُّلمِ والكَذِبِ، وهَدْمَ الهيكلِ لتجديدِ بنايِهِ - أي إصلاحِ الفاسدِ - والانقِصاضِ على القضاءِ المستبدِّ والكهنوتِ السَّفاحِ، وطَرْدَ الصَّرَافِينَ من بيتِ المقدسِ بالسَّياطِ، وإعادةِ الميراثِ للمحرورينِ منه، والرَّفَقَ بالضعيفِ والعاجزِ، وتعزيةِ اليائسِ والمَحزُونِ، ومساعدةِ المظلومِ والمقهورِ، كل ذلكَ كان جهادَ المسيحِ بالأمسِ وهو أشبهُ شيءٍ بجهادِ فولتير اليومِ.

(١) قَرَّتْ السيوفُ: استقرت ودخلت في جرابها.

النظريات الجزء الثاني

إن الفلسفة ساعدت الإنجيل. إن اللطف أتم ما بدأت به الرأفة. وتبسم فولتير، ومن تلك الدُموع وذلك الأبتسام تألق جمال المدينة الحديثة.
هل كان فولتير يحلم دائماً فلا يستخف حلمه الغضب؟! كلا. بل كان يغضب أحياناً في سبيل الحق.



أنا لا أنكر أن التوسط وحفظ الموازنة بين الأخلاق هو القانون العقلي للإنسان حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى، وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض. ولا أنكر أن الفلسفة هي الاعتدال، وإظهار الحقائق واضحة بين مؤلفات الأعمال والأقوال، ولكن أرى أن حب الحق يجب أن يكون في مرتبة الغلو حتى تهبط عاطفته هبوب العاصفة فتذهب بالأقذاء والأقذار.



يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله. أما الأولى فيكفلها العدل، وأما الثانية فيحرسها الرجاء والأمل؛ لذلك يحب الناس القاضي العادل، والكاهن الصالح؛ لأن الأول صورة العدل والثاني مثال الرجاء. فإذا انقلب العدل ظلمًا، والأمل يأسًا، عافاهما الإنسان ولوى وجهه عنهما وقال للقاضي: لا أحب قانونك، وللكاهن: لا أعتقد بدعتك. وهناك يهبط الفيلسوف الغيور غاضبًا فيحاكم القضاء أمام العدل، والكهنوت أمام الله، كذلك فعل فولتير فكان من المحسنين.



أيها القوم

صورت لكم فولتير كما هو، والآن أصور لكم عصر فولتير.
إن الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيدًا إلا قليلًا، وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره؛ فهو كالشجرة تكون في نظر الناظر أطول في الغابة الشجرا منها في التربة الجرداء؛ لأنها تكون في منبتها ومستقرها، وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة: روسو^(١)، وديدرو أولًا، ثم بوفون وبومارشيه ومونتسكيو. أولئك

(١) روسو، هو «جان جاك روسو» المتوفي سنة ١٧٧٨م وهو صاحب «العقد الاجتماعي»، وقد أخرجته مكتبة ابن سينا بترجمة العلامة عادل زعيتر، وتقديمنا.

القومُ المُفكِّرونَ علِّموا الناسَ النظرَ في حقائقِ الأشياءِ والتفكَّرِ المُوصِلِ إلى إتقانِ الأعمالِ، وعلِّمُوهم أنَّ صلاحَ القلبِ أنزَّ من آثارِ صلاحِ العقلِ، فأجادوا وأفادوا. ووضَعَ بوفون أساسَ العِلْمِ بطبائعِ الكائناتِ، واكتشَفَ نوعًا من الكوميديا الاجتماعيَّةِ كانَ لم يزلْ مجهولًا بعضَ الجهلِ إلى ذلكَ التاريخِ. واهتدى مُونتسكيو إلى أسرارِ الشرائعِ فأحيا بإحيائها الحقَّ الدفينَ.

أما روسو وديدرو فلَهُما الشأنُ الأعلى والمقامُ الأسمى.

كانَ ديدرو شُعلَةً متوقِّدَةً من الذكاءِ، كانَ كثيرَ التعمُّقِ والعَوَوصِ والتغلغلِ في حقائقِ الأشياءِ، كانَ رقيقَ القلبِ، مُحِبًّا للعدلِ، مُتَعَطِّشًا إليه، فَبَدَأَ لَهُ أن يَصِلَ إلى المبادئِ الساميةِ الصَّحيحةِ من طريقِ الخيالِ فوضَعَ الانسكلوبيديا.

أما روسو فإنه خَدَمَ المرأةَ خدمةً جليَّةً، وأجَمَلُ آثاره فيها أنه وَحَدَّ الأُمِّ والمُرُضِعِ وأنزَلَهُمَا مِنْ مَهْدِ الطِّفْلِ مَنْزِلًا واحِدًا. إن روسو كاتبٌ بليغٌ، شاعرٌ في كتابتِه، مؤنَّرٌ على الوجداناتِ، يعرفُ كيفَ يلمسُها فيهيِّجُها. طارَ بأجنحةِ الخيالِ في جَوِّ السياسةِ حتى لَمَسَ بيدهِ حقائقَها. لَهُ فضلُ السَّبَقِ على كلِّ مَنْ هَتَفَ باسمِ الوطنِ. كانَ قلبُ روسو أَضيقَ ميدانًا من فولتير؛ فميدانُ الأولِ فرنسا، وميدانُ الثاني رقعةُ الأرضِ.

ماتَ أولئك القومُ العظامُ، وهوتَ من أفقِها كواكبُهم. كانوا جَسَدًا وَرُوحًا، أما الجَسَدُ فَقَدَ طَواهُ القَبْرُ، وأما الرُوحُ فهي الثورَةُ التي تَرَكوها من بعدهم.

أجل إن الثورَةَ رُوحهم والمظهرُ الساطعُ المتلألئُ بحكمتِهِم ومبادئِهِم. همُ في الحقيقةِ أبطالُ الثورَةِ المقدَّسةِ التي هي خاتِمَةُ الماضيِ وفاتِحَةُ المستقبلِ. إنك تراهمُ بعينِ بصيرتِكَ في كلِّ مواقفها وَوَقائِعِها. إذا اختَرَقَتِ أشعَّةُ العقلِ حجابَ المسيباتِ ونفَذَتِ إلى الأسبابِ نَزَى في نورِ الثورَةِ الساطعِ أن ديدرو كانَ واقفًا وراءَ دانتون، وروسو وراءَ روبسبير، وفولتير وَرَاءَ ميرابو^(١)، ونجد أن أبطالَ الثورَةِ صَنِيعَةُ أبطالِ الفِلسَفَةِ.

(١) دانتون، وروبير، وميرابو: أبطال الثورَةِ الفرنسيةِ.

أيها القوم

إن تسمية العصر باسم رَجُلِهِ العظيم عَمَلٌ جليلٌ وفكرةٌ ساميةٌ بدأت بها ثلاثةُ شعوبٍ: اليونان وإيطاليا وفرنسا. فقول: «عصرُ بيريلكيس، وعصرُ أغسطس، وعصر لاون العاشر، وعصر لويس الرابع عشر، وعصر فولتير».

إنها فكرةٌ ساميةٌ تشتملُ على سِرِّ عظيمٍ من أسرار المدنية، وتدلُّ على أَنَّ الأمةَ تدركُ مقدارَ ما تمتدُّ إليه عَظْمَةُ الرَّجُلِ العظيم. كان ينقُصُها قبلَ عهدِ فولتير أنها كانت خاصةً بالملوكِ ورؤساءِ الحكومات. ولما كانَ فولتيرَ أَجَلًا من ملكٍ وأكْبَرَ من رئيسِ بَطَلٍ هذا الاختِصاصَ وقيل عصرُ فولتير.



أجل، إن فولتير مَلِكُ المبادئ، ورئيسُ الإصلاح، والعزيرُ القادرُ الذي أمكَنَهُ أن يُنشِئَ عالمًا جديدًا على أطلالِ العالمِ القديم، وأن يسلبَ القوَّةَ الحاكمةَ سُلْطَتَهَا ويمنحَها للفكر، وأن يكسرَ الصولجانَ والسيفَ ليقيمَ مقامَهُما العَدْلَ والرَّحْمَةَ، وأن يمنحَ المجتمعَ حُرِّيَّتَهُ حتى لا سُلْطَةُ على الشعبِ إلا سُلْطَةُ القانونِ، ولا زاجرٌ للفردِ إلا زاجرُ الضميرِ.

كان الفرقُ بينَ الأنايةِ والوطنيةِ غامضًا مُبْهَمًا، فظَهَرَ ظُهورًا واضحًا جليًا وعَرَفَ الإنسانُ كيفَ يحفظُ حَقَّهُ ليكونَ رَجُلًا، ويقومَ بواجبِ الوطنِ ليكونَ وَطِنِيًّا. هذه المعرفةُ هي مَعْنَى قولنا: «عصر فولتير»، وهي معنى تلكِ الحادثةِ الجليةِ حادثةِ الثورةِ الفرنسيةِ.

ولا أنكرُ أَنَّ القرنينِ السادسَ عشرَ والسابعَ عشرَ مَهَّدَا كثيرًا من العقباتِ الاجتماعيةِ للقرنِ الثامنِ عشرِ؛ فقد أندَرَ رابلي الملكيّةِ في «غرغنتوا»، ومولير الكنيسةَ في «تروتوف»؛ لأن حُبَّ العَدْلِ وبُغْضَ القوَّةِ كان ظاهرًا في هاتينِ النفسينِ الكريمتينِ. إذا فالعَدُّ بسُلْطَانِ القوَّةِ بعيدٌ. فمنَ قال إن الحقَّ مع القوَّةِ فقد تَقَمَّصَ صُورَةَ من صُورِ الأجيالِ الوُسطى، وخاطَبَ أقوامًا بادوا قبلَ ثلاثةِ قرونٍ.

إن القرنَ التاسعَ عشرَ يجعلُ القرنَ الثامنَ عشرَ ويحترمهُ احترامَ المتعلِّمِ للمعلِّمِ. إن الأولَ دَعَا فَلْبِي الثاني دُعَاءَهُ، وأمرَ فائتمَرَ بأمره.



أيها القوم

إن الكلمة الأخيرة التي أنطقُ بها في هذا الموقف هي دعاء المجتمع البشري إلى التقدم بهدوءٍ وسكونٍ وثباتٍ ووقارٍ. لقد وجد الحقُّ ضالته التي كان ينشُدُها وهي الإخاء الإنساني، والتعارفُ النفسي. فمن العيب أن تشغل القوة بعد ذلك مكاناً من هذا المجتمع. فإن فعلتُ كان أليقُ الأسماءُ بها الاستبدادُ.



إن المجتمع الإنساني أنكر على القوة حقها المزعوم، وضاق صدره بجرائمها وآثامها ففاضها بين يدي التمذُن، ووضع بين يديه جريدة المتهَمين من الرؤساء والرُعماء، وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه، ففضى التمذُن له عليها، وجاء الحقُّ وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

شَفَّ ثوبُ الرِّياءِ عما تحته، وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبارَ عليها، فأصبح الأبطال المجرمون في نظر الإنسان سواءً.



هدم التمذُن تلك القاعدة الفاسدة وهي أن الجُرم العظيم أصغرُ من الجُرم الصغير؛ فأدرَك الإنسان أن قتل الشعوب أكبرُ إثماً وأعظمُ جريمة من قتل الأفراد، واستكبر أن يعتبر الحرب مجداً وهو يعتبر السرقة عاراً. وبالجملة عرَف أن الجريمة حيث حلت، وفي أي مظهرٍ ظهرت، وأن القاتل لا يغني عنه من الله شيئاً أن يُسمى القيصراً أو يُدعى الإمبراطور. ولا يخفى على الله من أمره شيءٌ سِوَا لَبَسِ تاجِ المُلكِ أو قلنسوة الإعدام.

فلنصْرُحْ بالحقيقة المقررة الواضحة، ولنحتقر الحرب أشد الاحتقار. إن الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود. إن منظرَ الدماء والأشلاء أفظع منظرٍ. لا يعقل أن يكون الشرُّ طريق الخير، وأن يكون الموتُ وظيفة الحياة.

أيُّها الأمهاتُ الجالساتُ حولي، خففن من أحزانكن فقد أوشكت يد الحرب أن تكف عن اختلاس أفلاد أكبادكن.

محال أن يستمر الحال على هذا المنوال. أتشقى المرأة فتلد، ويغرس الزراع فيكسو الأرض بساطها الأخضر، ويجهد العاملُ فيملأ الخزانَ ذهباً وفضةً، ويأتي

الصنع بعجائب المصنوعات وغرائب المُدهشات حتى إذا أخذت الأرض زخرفها،
وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها، وذهبتا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة
القتال!؟

إنما ساحة القتال الشريف هذا المجتمع الذي جمع بين جدرانها ما تفرق من
أعمال الإنسان الجليلية (وكان إلقاء هذا الخطاب أثناء افتتاح معرض باريس العام سنة
١٨٧٨م). والانتصار الشريف هو أن تعرض باريس هذا المجتمع على بني الإنسان.
غير أنني أقول مع الأسف أننا لا نستطيع أن نخدع أنفسنا وننكر أن الساعة التي نحن
فيها تستميل على بضع دقائق مُحزنة تكدر صفوها وتنقص من سرورها لا تزال في مرآة
السماء الصافية سحابة سوداء. إن الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن الحرب
لم تزال باقية. وأعجب ما في أمرها أنها ترفع رأسها بكل جرأة وسماجة في مثل هذا
العيد الجليل عيد السلام العام.



إن الملوك في السنتين الماضيتين أساء بعضهم ظناً ببعض فاختلّفوا وسيحلُّ
اختلافهم عقدة اتفاننا فلجأ بشؤمهم إلى القلب والاضطراب.



فلنذكر عند ملوك الحرب فلوتير، وجان جاك، وديدرو، ومونستكيو، ملوك السلام
ولتوجه وجهتنا إلى تلك الروح العالية، إلى تلك الحياة العظيمة إلى ذلك الدفين
المقدس، ولنخضع أمام قبره عسى أن يمدنا بروح منه ويهدينا إلى نصرته السلام. فإنه
بعد مرور قرن على حياته لم يزال في الأحياء الخالدين.



ولنفق في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال: كفى كفى.. إنها
هجمية. إنها تشوه وجه المدينة، ويستنصر القرن التاسع عشر عليهم بالقرن الثامن
عشر. إن أسلافنا من الفلاسفة هم رسل الحق إلى البشر. فلنصرع إليهم في تذكاريهم
هذا أن يتداركوا المقتلة قبل وقوعها وينادوا أن الحياة ملئك للإنسان، وعظيم عليه أن
تسلب منه، وأن التمتع بالحرية حق من حقوق العقول والأفكار.

إن النور لا أثر له بين أضواء القصور؛ فلنطلبه بين ظلمات القبور.

العلماء والجهلاء



لَا تَحَسَبَنَّ أَنَّ الْفَلَسَفَةَ الْإِصْطِلَاحِيَّةَ مَطْلَبٌ مِنَ الْمَطْلَبِ الَّتِي لَا تُرَامُ، أَوْ أَنَّ بَيْنَ مَنْ نُسَمِّيهِمُ الْعُلَمَاءَ وَمَنْ نُسَمِّيهِمُ الْجُهْلَاءَ ذَلِكَ الْفَرْقَ الْعَظِيمَ الَّذِي يَتَصَوَّرُهُ النَّاسُ عِنْدَمَا يَرَوْنَ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمَا، وَإِنْزَالَهُمَا مَنَازِلَهُمَا. فَالْعُلَمَاءُ وَالْجُهْلَاءُ - إِنْ دَقَّقْتَ النَّظَرَ - سَوَاءٌ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا. إِلَّا أَنْ هُوَ لَا يَعْلَمُونَ الْمَعْلُومَاتِ مَنْظَّمَةً، وَأُولَئِكَ يَعْلَمُونَهَا مَبْعَثَرَةً، وَإِنْ هُوَ لَا يُحَسِّنُونَ الْبَيَانَ عَنْهَا وَأُولَئِكَ لَا يُبَيِّنُونَ.

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْأَشْيَاءِ نَظْرًا نَافِذًا وَجَدَ أَنَّ الْمَعَانِي الصَّحِيحَةَ، وَالْقَضَايَا الْكُونِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالنَّفْعِ وَالضَّرَرِ، وَالْمَسَائِلَ الْمَنُوطَةَ بِالْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِيهِ الْمَادِيَةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، يَشْتَرِكُ فِي الْعِلْمِ بِهَا النَّاسُ جَمِيعًا عَامَّتُهُمْ وَخَاصَّتُهُمْ، كِبَارُهُمْ وَصِغَارُهُمْ، مَنْ نَشَأَ تَحْتَ سُقُوفِ الْجَامِعَاتِ وَمَنْ عَاشَ تَحْتَ سُقُوفِ السَّمَوَاتِ، لِأَنَّ الْعِلْمَ يُبْصَغُ بِفَوْزٍ مِنَ الدَّخِيلِ، لَا سَبِيلَ يَتَدَقَّقُ مِنَ الْخَارِجِ، وَلِأَنَّ الْمَعْلُومَاتِ كَامِنَةٌ فِي النَفُوسِ كُومُونَ النَّارِ فِي الزَّنْدِ، وَالقُوَّةِ فِي الْمَادَّةِ، وَمَا وَظِيفَةُ الْعِلْمِ إِلَّا اسْتِثَارَتُهَا مِنْ مَكَانِهَا، وَبِعَثُهَا مِنْ مَرَاقِدِهَا.

وَأَيَّةُ ذَلِكَ أَنَّكَ لَا تَجِدُ حِكْمَةً مِنَ الْحِكْمِ الَّتِي يَفْخَرُ بِهَا الْعُلَمَاءُ وَيَعُدُّونَهَا مَظْهَرَ عِلْمِهِمْ وَأَيَّةَ فَضْلِهِمْ، إِلَّا وَتَرَى فِي أَلْسِنَةِ الْعَامَّةِ وَشَوَارِدِ أَقْوَالِهَا وَأَمْثَالِهَا مَا يُرَادُفُهَا وَيُشَاكِلُهَا. كَمَا أَنَّكَ لَا تَجِدُ قَاعِدَةً مِنَ قَوَاعِدِ الْأَدَبِ، وَلَا قَضِيَّةً مِنَ قَضَايَا الْأَخْلَاقِ الَّتِي تَعُدُّهَا مِنْ ذَخَائِرِ الْأَسْفَارِ وَنَفَائِسِ الْأَعْلَاقِ^(١)، إِلَّا وَهِيَ مُلْقَاةٌ تَحْتَ أَقْدَامِ الْعَامَّةِ، وَمُذَلَّةٌ بَيْنَ أَيْدِي الْعَوْغَاءِ وَالْأَمِّيِّينَ.

وَعِنْدِي أَنَّهُ لَوْ لَا عَجَزُ الْعَامَّةِ عَنْ بَيَانِ مَا يَجُولُ فِي خَوَاطِرِهِمْ وَيَهْجِسُ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ عَلَى صُورَةٍ مُرْتَبَةٍ لَمَا خَبِلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ مِنَ الْخَاصَّةِ كَلَامًا عَجَبِيًّا، أَوْ مَعْنَى غَرِيبًا.

لَيْسَ هَذِهِ الْغِيبَةُ الَّتِي نَرَاهَا تَعَلَّقُ بِنُفُوسِهِمْ عِنْدَمَا يَتَلَقَّوْنَ أَحَادِيثَ الْخَاصَّةِ مِنْ

(١) أَعْلَاقٌ: لَهَا مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ، وَهِيَ هُنَا النِّفَاسُ الثَّمِينَةُ الْغَالِيَةُ.

أجل أَنَّهُمْ عَلِمُوا مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ، أَوْ أَدْرَكُوا مَا لَا عَهْدَ لَهُمْ بِهِ مِنْ قَبْلِ، بَلْ؛ لِأَنَّهُمْ ظَفَرُوا بِمَنْ يَتْرَجُمُ عَنْ أَفْكَارِهِمْ، وَيَجْمَعُ لَهُمْ شَتَاتِ الْمَعَانِي الْمَبْعُوثَةِ فِي أَنْحَاءِ أَدْمِغَتِهِمْ، وَلَا تَهُمُ وَجَدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ لَذَّةَ الْأَنْسِ بِأَفْكَارٍ تُشَابِهُ أَفْكَارَهُمْ، وَأَرَآءَهُمْ.

وَلَا أَحْشَى بِأَسَا إِنْ قُلْتُ: إِنَّ عِلْمَ الْعَامَّةِ أَفْضَلُ مِنْ عِلْمِ الْخَاصَّةِ؛ لِأَنَّهُ أَوْلَا عِلْمٌ خَالِصٌ مِنْ شَائِبَةِ التَّكْلِيفِ وَالتَّعْمَلِ، حَتَّى إِنَّكَ لِتَجِدَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَاءِ بَيْنَ مَعْلُومَاتِ الْخَاصَّةِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَأَرَائِهِمْ مَا يُضْحِكُ النَّكَلِيَّ لِغَرَابَتِهِ وَشُدُودِهِ، وَمَا يَتَرَفَّعُ أَضْيَقُ الْعَامَّةِ ذَهَبًا وَأَضْعَفُهُمْ فَهَمًّا أَنْ يَجْعَلَ لَهُ شَأْنًا، أَوْ يُقِيمَ لَهُ وَرْتًا. وَثَانِيًا: لِأَنَّهُ يَعْلُقُ بِالنَّفْسِ وَيَتَغَلَّعَلُ بَيْنَ أَطْوَائِهَا تَغَلُّعًا تَظْهَرُ أَثَارُهُ عَلَى الْجَوَارِحِ. وَكَثِيرًا مَا تَجِدُ بَيْنَ الْجُهَلَاءِ مَنْ تُعْجِبُكَ اسْتِقَامَتُهُ، وَبَيْنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَدْهُسُكَ اعْوَجَاجُهُ. وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا مَا يَقُولُونَ مِنْ أَنَّ الْعِلْمَ مَا يَنْتَفَعُ بِهِ صَاحِبُهُ فَكَثِيرٌ مِنَ الْجُهَلَاءِ أَعْلَمُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

فَلَا تُبَالِغْ فِي تَقْدِيرِ فِلْسَفَةِ وَعِلْمِ الْعُلَمَاءِ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَيْهِمْ نَظْرًا يَمَلَأُ قَلْبَكَ رَهْبَةً، وَلَا تَغُلْ^(١) فِي احْتِقَارِ الْجُهَلَاءِ وَازْدِرَاءِ الْعَامَّةِ وَالذَّهْمَاءِ، وَلَا تَكُنْ مَمَّنْ يَقْضُونَ حَيَاتَهُمْ أَسْرَى الْعَنَاوِينِ وَعَبِيدِ الْأَلْقَابِ.

إِنَّ فِي اخْتِفَاءِ الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ وَتَنَكُّرِهَا، وَضَلَالِ هَذَا الْعَالَمِ فِي مَذَاهِبِهِ وَمَرَامِيهِ، وَتَفَرُّقِهِ مَذَاهِبٍ وَشَيْعًا، وَرُكُوبِ كُلِّ فَرِيقٍ رَأْسَهُ، وَهِيَامِهِ عَلَى وَجْهِهِ، وَوُقُوفِ طُلَّابِ الْحَقِيقَةِ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَعَصْرِ فِي مَفَارِقِ الطَّرِيقِ وَرُءُوسِ الْمَسَالِكِ حَيَارَى - يَنْشُدُونَ فَلَا يَجِدُونَ، وَيَجِدُونَ فَلَا يَصِلُونَ - لِدَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْفَلَسِيفَةَ وَالْحُكَمَاءَ وَالْعُلَمَاءَ كَلِمَاتٌ غَيْرُ مَفْهُومَاتٍ وَأَسْمَاءٍ بِلَا مُسَمِّيَّاتٍ، وَأَنَّ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ وَأَسْرَارَ الْكَائِنَاتِ قَدْ اسْتَأْتَرَ اللَّهُ بِلَعْمِهَا وَاحْتَجَجَهَا مِنْ دُونِ عِبَادِهِ، وَلَمْ يَمْنَحْهُمْ إِلَّا بَلَّةً تَزِيدُهُمْ وَجْدًا كَلَّمَا وَجَدُوا بَرْدَهَا وَتَمَلَأَ قُلُوبَهُمْ شَوْقًا كَلَّمَا تَذَوَّقُوا طَعْمَهَا:

ضَرْبُكَ فِي بَنِي الدُّنْيَا كَثِيرٌ وَعَزَّ اللَّهُ رَبُّكَ مِنْ ضَرْبِ

وَمَا الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَلَاءُ إِلَّا قَرِيبٌ حِينَ تَنْظُرُ مِنْ قَرِيبٍ



(١) لَا تَغُلْ: بِمَعْنَى لَا تَغَالِي وَلَا تَبَالِغْ.

الرجل والمرأة



[جاءني بالأمس من الإسكندرية الكتاب الآتي:]^(١)

سيدي المحترم

لا تَعْجَبْ إن رأيت إعجابي بكَ ظاهرًا في كلِّ سطرٍ من سَطُورِ كتابي هذا، فإنما أنطقُ بلسانِ كثيرٍ من العُقلاءِ الذين يحُبُّونَكَ حُبًّا جَمًّا، ويعتقدونَ أَنَّكَ فريدٌ في أدبِكَ، فريدٌ في قلمِكَ، فريدٌ في تسامُحِكَ وتساهُلِكَ؛ لذلكَ أَرَدْنَا أن نوجِّهَ إليكَ السؤالَ الآتي راجينَ منك الإجابةَ عليه:

لماذا نرى الهيئةَ الاجتماعيةَ تحكُمُ على المرأةِ الفاسقةِ حُكمًا صارمًا فتنبذُها وتحتقرُها، ولا تحكُمُ على الرجلِ الفاسقِ مع أن جريمتَهما واحدة؟
هذا ما أَرَدْنَا أن نَسْتَرشدَ برأيِكَ فيه، والسلام؟

«سائل»

يعتقدُ كثيرٌ من الناسِ أن الرجلَ والمرأةَ سواءً في الذكاءِ والعقلِ، وعِندي أنهم أصابوا في الأولى وأخطئوا في الأخرى.
تستطيعُ المرأةُ أن تجاريَ الرجلَ في سُرعةِ الفَهمِ وحضورِ البديهةِ، ولا تستطيعُ أن تجاريه في الإناةِ والرَّفقِ وامتلاكِ هوى النفسِ، والأخذِ بفضيلةِ الصَّبْرِ على ما تكرهه وعمَّا تحبُّ.

تستطيعُ المرأةُ أن تُدركَ ما يُدركُه الرجلُ من الشئونِ والأطوارِ، وأن تستطيعَ أن تنتفعَ بمعلوماتها كما ينتفعُ؛ لأنَّ بينَ جَنبَيْها نفسًا غيرَ نفسه، وهوى غيرَ هواه، ولأنَّ قلبًا صغيرًا لا يقوى على احتِمالِ ما يحتملُه عقلُه الكبيرُ. يمشي الرجلُ وراءَ عقله فيهديه.. وتمشي المرأةُ وراءَ قلبها فيضلُّها^(٢)، فما وقفتَ معه في موقِفٍ إلا سقطتْ بينَ يديه عجزًا وضمغًا.. لأنه يعرفُ السبيلَ إلى قلبها.. ولا تعرفُ السبيلَ إلى عقله.

(١) ساقطة من كل الطبعات عدا طبعة ١٩١٠ م. (٢) بضلها: هنا بمعنى لا يهديها إلى الصواب.

لا تَعَجَبَ إِنْ قُلْتَ لَكَ: إِنْ الذِّكَاءَ غَيْرُ الْعَقْلِ، فَاللُّصُوصُ وَالْمُحْتَالُونَ وَالْمَزُورُونَ وَالكَاذِبُونَ وَالْفَاسِقُونَ وَالْمُنَافِقُونَ أَذْكَيَاءٌ.. وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ عَاقِلٌ وَاحِدٌ.. لِأَنَّهُمْ يُورَدُونَ أَنْفُسَهُمْ مَوَارِدَ التَّلَفِّ وَالهِلَاكِ، مِنْ حَيْثُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ ذُكَاؤُهُمْ شَيْئًا.. وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ الذِّكَاءُ السَّيِّدُ دَاعِيَةَ الْجَنُونَ، حَتَّى إِنَّكَ لَا تَكَادُ تَرَى ذُكِيًّا مِنَ الْأَذْكَيَاءِ، إِلَّا وَتَرَى لَهُ فِي شَتُونِهِ وَأَطْوَارِهِ أَحْوَالًا شَادَّةً لَا تَنْطَبِقُ عَلَى قَانُونٍ مِنْ قَوَانِينِ الْعَقْلِ.. وَلَا قَاعِدَةً مِنْ قَوَاعِدِ الطَّبِيعَةِ. وَعِنْدِي أَنْ أَكْثَرَ مَا يُصِيبُ النَّوَابِغَ وَالْأَذْكَيَاءَ مِنْ بؤْسِ الْعَيْشِ وَسُوءِ الْحَالِ عَائِدٌ إِلَى ضَعْفِ فِي عُقُولِهِمْ.. وَنَقْصِ فِي تَصَوُّرَاتِهِمْ.

وَبَعْدُ، فَالذِّكَاءُ فِي رَأْسِ الْإِنْسَانِ كَالسَّيْفِ فِي يَدِ الشُّجَاعِ.. وَكَثِيرًا مَا يَضْرِبُ الشُّجَاعُ عُنُقَ نَفْسِهِ بِسَيْفِهِ إِذَا كَانَ طَائِشًا أَمْوَجًا لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ فِي مَوَاقِفِ الْحُزَنِ أَوْ الْغَضَبِ.

فَمَا يُغْنِي الْمَرْأَةَ ذُكَاؤُهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ وَرَاءَهُ عَقْلٌ يَمْلِكُهَا وَيَصْرِفُهَا وَيُمْسِكُ بِيَدِهَا أَنْ تَعْتُرَّ فِي عَدَاوَتِهَا وَاشْتِدَادِهَا بِعَقَبَةٍ مِنْ عَقَبَاتِ هَذِهِ الْحَيَاةِ.

سَيَثْقُلُ هَذَا الْحُكْمُ عَلَى نَفُوسِ النِّسَاءِ وَنَفُوسِ الرِّجَالِ الَّذِينَ يُجَامِلُونَهُنَّ وَلَكِنْ مَاذَا أَعْمَلُ وَبَيْنَ يَدَيَّ بُرْهَانٌ قَاطِعٌ لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِهِنَّ أَنْ يُنَازِعْنِي فِيهِ مَعَ شِدَّةِ ذُكَاؤِهِنَّ، وَلَا فِي اسْتِطَاعَةِ أَنْصَارِهِنَّ مِنَ الرِّجَالِ أَنْ يَنْقُضُوهُ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا.

لَوْلَا أَنَّ الرَّجُلَ أَعْقَلَ مِنَ الْمَرْأَةِ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهَا هَذَا السُّلْطَانُ، وَذَلِكَ الْعَلْبُ، وَلَا اسْتِطَاعَ أَنْ يَقُودَهَا وَرَاءَهُ كَمَا يُقَادُ الْجَنْبِ (١) وَلَا أَنْ يَمْلِكَ عَلَيْهَا أَمْرَ فِقْرِهَا وَغِنَاهَا، وَحَبْسِهَا وَإِطْلَاقِهَا، وَحِجَابِهَا وَسُفُورِهَا، وَيَسْتَأْثِرُ مِنْ دُونِهَا بِوَضْعِ الْقَوَانِينِ وَالشَّرَائِعِ الْخَاصَّةِ بِهَا مِنْ حَيْثُ لَا تَرَى فِي نَفْسِهَا قُوَّةً لَدَفْعِهَا، وَالخُرُوجِ عَلَيْهَا.

الْقَوِيُّ يَمْلِكُ عَلَى الضَّعِيفِ بِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى نَفْسَهُ وَهَوَاهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُ الْإِنْسَانِ مَعَ الْحَيَوَانِ، وَشَأْنُ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ.

الْإِنْسَانُ نَوْعٌ مِنَ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، لَمْ يَكُنْ فِي مَبْدَأِ خَلْقَتِهِ خَيْرًا مِنْهَا فِي شَأْنِ مِنْ شُؤْنِ الْحَيَاةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَوْفَرَ مِنْهَا عَقْلًا وَأَوْسَعَ حَيْلَةً، فَمَا زَالَ يَطْلُبُ لِنَفْسِهِ الْغَايَةَ الَّتِي تَنَاسَبُ اسْتِعْدَادَهُ وَفَطْرَتَهُ؛ حَتَّى أَصْبَحَ سَيِّدَ الْحَيَوَانِ فَمَدَّنَ الْمُدُنَ وَمَصَّرَ الْأَمْصَارَ، وَشَادَ وَبَنَى، وَتَأَنَّقَ وَتَرَفَّهَ، ثُمَّ طَرَدَ صَاحِبَهُ إِلَى الصَّحَارِيِّ وَالرَّمَالِ، وَرُءِوسِ الْجِبَالِ،

(١) الجنب: المهر الذي يقاد إلى مهر آخر.

يَأْكُلُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيَتَفَانَى شَقَاءً وَجَهْلًا. وَالرَّجُلُ أَخُو الْمَرْأَةِ وَقَسِيمُهَا فِي الرَّحِمِ وَالْمَهْدِ، وَالْأَبُوتَةُ وَالْأُمُومَةُ، وَالْقَوْمَةُ وَالْقَعْدَةُ، وَالنُّومَةُ وَالْيَقْظَةُ، وَلَكِنَّهُ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَضْلًا عَلَيْهَا فِي قُوَّةِ الْعَقْلِ وَالتَّدْبِيرِ. وَكَانَ ظَالِمًا حَشِينِ النَّفْسِ قَاسِيِ الْقَلْبِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَأْسُرَهَا وَيَغْلِبَهَا عَلَى أَمْرِهَا وَيَمْلِكَ عَلَيْهَا جِسْمَهَا وَنَفْسَهَا؛ فَتَمَّ مَا أَرَادَ.

مَلَكَ عَلَيْهَا جِسْمَهَا؛ لِأَنَّهُ حَجَبَهَا عَنِ النُّورِ وَالْهَوَاءِ فَأَذَعَنَتْ، وَمَلَكَ عَلَيْهَا نَفْسَهَا؛ لِأَنَّهُ أَلْقَى فِي رُوعِهَا أَنَّ ذَنْبَهَا فِي جَرِيْمَةِ الْفِسْقِ الْمَشْتَرِكَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَكْبَرُ مِنْ ذَنْبِهِ، وَأَنَّ جُنَايَتَهَا ضِعْفٌ جُنَايَتِهِ فَضَدَّقَتْ، وَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تُسَلِّمَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ فِي تَدْبِيرِ شُئُونِهَا وَالتَّصَرُّفِ بِأَمْوَالِهَا فَسَلَّمَتْ. وَأَصْبَحَتْ تَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْجَائِزَةِ الَّتِي وَضَعَهَا لَهَا، وَالاعتباراتِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي اعْتَبَرَهَا مِنْهَا، كَمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا هُوَ بَعِينَ الْإِجْلَالِ وَالْإِعْظَامِ.

يَخْدَعُ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ عَنِ شَرَفِهَا فَيَسْلُبُهَا إِيَّاهُ، فَإِذَا سَقَطَتْ هَاجَ الْمَجْتَمَعُ الْإِنْسَانِيُّ عَلَيْهَا رِجَالَهُ وَنِسَاؤُهُ، وَمَلَأَ قَلْبَهَا هَوْلًا وَرُغْبًا، وَأَوْسَعَ نَفْسَهَا تَقْرِيْبًا وَتَأْنِيْبًا مِنْ حَيْثُ لَا تَصْبِرُ عَلَى شِرَارَةِ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ النَّارِ الْمَتَأَجِّجَةِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَ هَذَا الْقَانُونَ وَشَرَعَ تِلْكَ الشَّرِيعَةَ، وَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يُقْصَرَ فِي مَمَالَاةِ نَفْسِهِ وَمُحَابَاتِهَا؛ لِأَنَّهُ شَرُّ طَمَاحٍ مُحِبِّ لِدَايَتِهِ، وَلَا أَنْ يَعْدِلَ فِي الْقَضَاءِ فِي قِضِيَّةِ هُوَ الْخِصْمُ فِيهَا وَالْحَكْمُ؛ لِأَنَّهُ ظَالِمٌ جَبَّارٌ.

وَلَوْ كَانَ لِلْمَرْأَةِ مَا لِلرَّجُلِ مِنْ قُوَّةِ الْعَقْلِ لَاسْتَطَاعَتْ هِيَ أَنْ تَحْجِبَهُ فِي الْمَنْزِلِ، وَأَنْ تَتَوَلَّى التَّصَرُّفَ فِي شَأْنِهِ، وَأَنْ تَعْبَثَ بِعَقْلِهِ مَا شَاءَتْ، فَتَعْظِمَ جَرِيْمَتَهُ وَتَصَغُرَ جَرِيْمَتُهَا فِي عَيْنِهِ، وَأَنْ تَنْفِذَ إِلَى قَلْبِهِ فَتَلْعَبَ بِهِ لَعِبَ الصَّبِيِّ بِالْكُرَّةِ، وَأَنْ تَحْدِثُهُ فَيُصَدِّقَ، وَتَأْمُرَهُ فَيَأْتِمَرَ، وَأَنْ تَسْنَ لَهُ الْقَوَانِينِ الْجَائِزَةَ وَالشَّرَائِعَ الْفَاسِدَةَ فَيُؤْمِنَ بِهَا إِيمَانَهُ بِالْإِلَهِ الْمَعْبُودِ كَمَا صَنَعَ هُوَ بِهَا فِي جَمِيعِ ذَلِكَ فَبَلَغَ مِنْهَا مَا أَرَادَ.

لَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ: إِنَّ هَذَا الْفَرْقَ فِي الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ يَمْنَحُهُ هَذَا الْحَقُّ فِي ظُلْمِهَا وَعَلْبَتِهَا عَلَى حَقِّهَا، بَلْ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ: إِنَّ هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا هُوَ سَبَبُ ذَلِكَ السُّلْطَانِ الْقَاهِرِ، وَالْحُكْمِ الْجَائِزِ.

وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ: إِنَّ حُكْمَ الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ بِإِدَانَةِ الْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ وَبِرَاءَةِ الرَّجُلِ الزَّانِيِ حُكْمٌ ظَالِمٌ، وَلَوْ أَنَّهُ أَنْصَفَهَا لَعَرَفَ فَرْقَ مَا بَيْنَهُمَا فِي الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، فَجَعَلَ عِقَابَ الرَّجُلِ الْقَوِيِّ الْمَهَاجِمِ فَوْقَ عِقَابِ الْمَرْأَةِ الضَّعِيفَةِ الْمُدَافِعَةِ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لِأَنَّ رِجَالَهُ ظَلَمَةُ جَائِرُونَ، وَلِأَنَّ نِسَاءَهُ سَازِجَاتٌ بَسِيطَاتٌ، يُصَدِّقْنَ الرِّجَالَ فِي أَقْوَالِهِمْ، وَيَنْظُرْنَ

إلى المُسْتَحْسِنَاتِ والمتسَهِّجَاتِ بِأَنْظَارِهِمْ. فَإِنْ أَرَدْنَا أَنْ تَنَالَ الْمَرْأَةُ حَقَّهَا مِنَ الرَّجُلِ، وَأَنْ تَنْتَصِفَ مِنْهُ، فَلَيْسَ سَبِيلُهَا إِلَى ذَلِكَ الْمَغَالِبَةِ وَالْمَصَارَعَةِ، فَإِنَّهَا أضعفُ مِنْ جِسْمًا وَعَقْلًا، بَلِ السَّبِيلُ إِلَيْهِ أَنْ نَعْلَمَهَا لِتَعْرِفَ كَيْفَ تَسْتَعِظُفُهُ وَتَسْتَسْمِحُهُ، وَكَيْفَ تَحْمِلُهُ عَلَى إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا، وَأَنْ تَعْلَمَهُ لَيْسْتَطِيعَ أَنْ يَكُونَ شَخْصًا كَرِيمًا، وَإِنْسَانًا رَحِيمًا.

الدعوة



ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعيًا إلى تَرْكِ ضَلَالَةٍ مِنَ الضَّلَالَاتِ إِلَّا وَقَدِ آذَنَ نَفْسَهُ بِحَرْبٍ لَا تَخْمُدُ نَارُهَا وَلَا يَخْبُو أَوَارُهَا حَتَّى تَهْلِكَ تِلْكَ الضَّلَالَةُ أَوْ يَهْلِكَ دَوْنَهَا.

ليس موقفُ الجندِيِّ في معتركِ الحربِ بأخْرَجَ مِنْ مَوْقِفِ المُرْشِدِ فِي مَعْتَرِكِ الدَّعْوَةِ، وَلَيْسَ سَلْبُ الأَجْسَامِ أرواحَهَا بِأَقْرَبَ مَنَالًا مِنْ سَلْبِ النُّفُوسِ غَرَائِزَهَا وَمُيُولَهَا.

لا يَضُنُّ الإنسانُ بشيءٍ مما تَمْلِكُ يَمِينُهُ ضَنْنَهُ بما تَنْطَوِي عَلَيْهِ جَوَانِحُهُ مِنَ المُمْتَقِدَاتِ. وَإِنَّهُ لَوْلَا تَمَرَّقَتِ الأَشْلَاءُ فِي مَوْقِفِ الحُرُوبِ البَشَرِيَّةِ مِنْ عَهْدِ آدَمَ إِلَى اليَوْمِ إِلَّا لَيَبْذُلُ دَمَهُ صِيَانَةً لِعَقِيدَتِهِ، وَلَا يَبْذُلُ عَقِيدَتَهُ صِيَانَةً لَدَمِهِ. وما سالتِ الدماءُ حِمَايَةَ لِلْمَبَادِي وَذُودًا^(١) عَنِ العَقَائِدِ.

لذَلِكَ كَانَ الدَّعَاةُ فِي الأُمَّمِ أَعْدَاءُهَا وَخِصُومَهَا؛ لِأَنَّهُمْ يَحَاوِلُونَ أَنْ يُزْرِئُوهَا فِي ذَخَائِرِ نَفُوسِهَا وَيُفْجِعُوهَا فِي أَعْلَاقِ قُلُوبِهَا.

الدَّعَاةُ الصَّادِقُونَ لَا يُبَالُونَ أَنْ يُسَمِّيَهُمُ النَّاسُ خَوَنَةً أَوْ جَهْلَةً أَوْ مُلْحِدِينَ أَوْ ضَالِّينَ أَوْ كَافِرِينَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مَا لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ.

الدَّعَاةُ الصَّادِقُونَ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَاشَ بَيْنَ أَعْدَائِهِ سَاحِرًا كَذَّابًا، فَلَمَّا مَاتَ، مَاتَ سَيِّدُ المُرْسَلِينَ، وَأَنَّ الغَزَالِي عَاشَ مَتَّهَمًا بِالكُفْرِ وَالإِلْحَادِ وَمَاتَ حِجَّةَ الإِسْلَامِ،

(١) اللذود عن الشيء: الدفاع عنه.

وأن ابن رشد عاش دليلاً مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه ومات فيلسوف الشرق، فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياء وأمواتاً. سيقول كثير من الناس: وما يعني الداعي دعاؤه أمة لا تحسن به ظناً، ولا تسمع له قولا؟! إنه يضر لا ينفع أمة فيكون أجهل الناس وأحمق الناس.

هذا ما يوسوس به الشيطان للناجزين الجاهلين، وهذا هو الداء الذي ألم بنفوس كثير من العلماء، فأسكت ألسنتهم عن قول الحق، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والإرشاد، فأصبخوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون، ويعيدوا عليهم ما يحفظون، فجمدت الأذهان وسكنت المدارك، وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ولا ينفذ إليه الهواء.

الجهل غشاء سميك يغشى العقول^(١)، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً، فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها حتى إذا آتت عليه انكشفت له الغطاء فرأى النار نوراً، والألم لذة وسروراً.

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان؛ لأن الحق وجود والباطل عدم، وإنما يصرعه جهل العلماء بقوته وبأسهم من غلبته وإغفالهم النداء به والدعاء إليه.

محال أن يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد، وإنما يهدمه أفراد متعددون في عصور متعددة، فبهيئة الأولى هزة تباعد ما بين أحجاره، ثم ينقص الثاني منه حجراً، والثالث آخر، وهكذا حتى لا يبقى فيه حجر على حجر.

الجهلاء مَرْضَى والعلماء أطباء، ولا يجمل بالطبيب أن يحجم عن العمل الجراحي فراراً من إزعاج المريض أو خوفاً من صريخه وعويله، أو اتقاءً لسببه وشتمه؛ فإنه سيكون غداً أصدق أصدقائه وأحب الناس إليه.

وبعد، فقليل أن يكون الداعي في الأمة حبيباً إليها إلا إذا كان خائناً في دعوته، سالكا سبيل الرياء والدهاء في هدايته. وقليل أن ينال حظاً من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة دوائه وتشعر بحلاوة الشفاء، بعد مرارة ذلك الدواء.

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء، وكظة^(٢) الأرض والسماء ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع؛ لأنه لا يوجد بينهم شجاع.

(١) بنشاهها: يغطيها بظلامه.

(٢) الكظة: البطة.

أصحابُ الصحفِ، وكتَّابُ الرسائلِ، والمؤلفونَ، وخطباءُ المَجامعِ، وخطباءُ المنابرِ، كلُّهم يدعون إلى الحقِّ، وكلُّهم يعطونَ وينصحونَ ويأمرُونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ، ولكن لا يوجدُ بينهم مَنْ يستطيعُ أن يحملَ في سبيلِ الدعوةِ ضرًّا أو يلاقي طريقها شرًّا.

رَأَيْتُ الدُّعَاةَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَرْبَعَةً: رَجُلٌ يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَكْتُمُهُ عَجْزًا وَجُبْنًا، فَهُوَ سَاكِتٌ طَوْلَ حَيَاتِهِ لَا يَنْطِقُ بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ، وَرَجُلٌ يَعْرِفُ الْحَقَّ، وَيَنْطِقُ بِهِ، وَلَكِنَّهُ يَجْهَلُ طَرِيقَ الْحِكْمَةِ وَالسِّيَاسَةِ فِي دَعْوَتِهِ، فَيَهْجُمُ عَلَى النَّفُوسِ بِمَا يُزَعِّجُهَا وَيُنْفِرُهَا، وَكَانَ خَيْرًا لَوْ صَنَعَ مَا يَصْنَعُهُ الطَّبِيبُ الْمَاهِرُ الَّذِي يَضَعُ الدُّوَاءَ الْمُرَّ فِي «بِرْشَامَةٍ» لِيَسْهَلَ تَنَاوُلُهُ وَازْدِرَائُهُ وَرَجُلٌ لَا يَعْرِفُ حَقًّا وَلَا بَاطِلًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي دَعْوَتِهِ خَبْطَ النَّاقَةِ الْعَشْوَاءِ فِي بَيْدَاتِهَا، فَيَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالضَّارِّ وَالنَّافِعِ، فِي مَوْقِفٍ وَاحِدٍ، فَكَأَنَّهُ جَوَادُ امْرِئِ الْقَيْسِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ:

مَكَرٌّ مَفْرَرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَاً (١)

وَرَجُلٌ يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَدْعُو الْأُمَّةَ إِلَى الْبَاطِلِ دَعْوَةَ الْمُجَدِّ الْمُجْتَهِدِ، وَهُوَ أَخْبَثُ الْأَرْبَعَةِ وَأَكْثَرُهُمْ غَائِلَةً؛ لِأَنَّهُ صَاحِبُ هَوَى يَرَى أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ غَايَتَهُ مِنْهُ إِلَّا إِذَا أَهْلَكَ الْأُمَّةَ فِي سَبِيلِهِ، فَهُوَ عَدُوُّهَا فِي ثِيَابِ صَدِيقِهَا؛ لِأَنَّهُ يُورِدُهَا مَوَارِدَ التَّلْفِ وَالْهَلَاكِ بِاسْمِ الْهَدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ. فَلَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ تَسْتَفِيدُ الْأُمَّةُ رُشْدَهَا وَهَدَايَاها؟!!

مَا أَعْظَمَ شِقَاءَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَشَدَّ بَلَاءَهَا! فَكَيْفَ أَصْبَحَ دُعَاتُهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى دُعَاةٍ، يُنِيرُونَ لَهُمْ طَرِيقَ الدُّعَاةِ، وَيُعَلِّمُونَهُمْ كَيْفَ يَكُونُ الصَّبْرُ وَالْإِحْتِمَالُ فِي سَبِيلِهَا. فَلَيْتَ شِعْرِي، مَتَى يَتَعَلَّمُونَ، ثُمَّ يَرُشِدُونَ؟!!



(١) وتمام البيت:

كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلِيٍّ

الحياة الذاتية



أكثرُ الناس يعيشونَ في نفوسِ الناسِ أكثرَ مما يعيشونَ في نفوسِ أنفسهمِ أي أنهم لا يتحرَّكونَ ولا يسكنونَ، ولا يأخذونَ ولا يدعونَ إلا لأنَّ الناسَ هكذا يريدونَ.

حياةُ الإنسانِ في هذا العالمِ حياةٌ ضمنيَّةٌ^(١) في حياةِ الآخرينَ، فلو فَتَّشَ عنها لا يجدُ لها أثرًا إلا في عُيُونِ الناظرينَ، وأذَانِ السامعينَ، وأفواهِ المتكلمينَ.

يُحَيَّلُ إلَيَّ أن الإنسانَ لو عَلِمَ أن سُبُحِّحَ في يومٍ من أيامِ حَيَاتِهِ وَحِيدًا في هَذَا العالمِ لا يجدُ بجانبِهِ أذُنًا تَسْمَعُ صَوْتَهُ، ولا عَيْنًا تَنْظُرُ شَكْلَهُ، ولا لِسَانًا يُرَدِّدُ ذَكَرَهُ، لَأَثَرَ المَوْتِ على الحَيَاةِ عِلهُ يجدُ في عالمٍ غيرِ هذا العالمِ - مِن آذَانِ الملائكةِ أو عُيُونِ الجِنَّةِ - مَقَاعِدَ يَتَعَدُّهَا فيطِيبُ لَهُ العيشَ فيها.

إِذَا كَانَتْ حَيَاةُ كُلِّ إنسانٍ مُتَلَاشِيَّةً في حَيَاةِ الآخرينَ، فأَيُّ مانعٍ يَمْنَعُنِي مِنَ القَوْلِ بأنَّ تلكَ الحَيَاةِ التي نَحْسِبُهَا مُتَكَثِّرَةً مُتَعَدِّدَةً، إنما هي حَيَاةٌ واحدةٌ يَتَّفِقُ جَوْهَرُهَا، وتَتَعَدَّدُ صُورُهَا، كالبَحْرِ المَائِحِ نَرَاهُ على البُعْدِ فَنَحْسِبُهُ طَرَائِقَ قِدْدًا^(٢)، ونَحْسِبُ كُلَّ موجَةٍ مِنَ أمواجِهِ قِسْمًا من أَقْسَامِهِ، فإذا دَنَوْنَا مِنْهُ لا نَرَى غَيْرَهُ، ولا نَجِدُ لجزءٍ مِنَ أَجْزَائِهِ حَيَزًا مُسْتَقِلًّا، ولا وَصْفًا ثابِتًا.

لا يَحْيَا في هذا العالمِ حَيَاةً حَقِيقِيَّةً، إلا ذَلِكَ الشاذُّ الغريبُ في شُؤْنِهِ وَأَطْوَارِهِ وَأَرَائِهِ وَأَعْمَالِهِ، الذي كَثِيرًا ما نَسْمِيهِ مَجْنُونًا. فإن رَضِينَا عَنْهُ بَعْضَ الرِّضَا سَمِينًا فِيلَسُوفًا، ونريدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ نَصِفُ مَجْنُونٍ، فهو الذي يَتَوَلَّى شَأْنَ الإنسانِ، وتَغْيِيرَ نِظَامَاتِهِ وقَوَانِينِهِ، وَيَنْتَقِلُ بِهِ حَالٍ إلى حَالٍ بما يَغَيِّرُ من عَادَاتِهِ ويحوِّلُ مِنْ أَفْكَارِهِ.

أَيُّ قِيَمَةٍ لِحَيَاةِ امرئٍ، لا عَمَلٌ لَهُ فِيهَا إلا مُعَالَجَةُ نَفْسِهِ على الرِّضَا بما يَرْضَى بِهِ النَّاسُ، فَيَأْكُلُ ما لا يَسْتَهِي، ويَصْدَفُ^(٣) نَفْسَهُ عما تَشْتَهِي، ويسهرُ حيثُ لا يَعْذِبُ

(١) داخلة ضمن حياة الآخرين على سبيل التضامن.

(٢) طرائق قِدْدًا: قطعًا وأقسامًا، وفي القرآن: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ ..

(٣) يصدف عنها ويصدفها: يمتنعها.

طعمَ السهر، ويناُم حيث لا يطيبُ له المنامُ ويلبسُ من اللباسِ ما يُحرجُ^(١) صدره، ويقصمُ ظهره، ويشربُ من الشرابِ ما يُحرقُ أمعائه، ويأكلُ أحشاءه، ويضحكُ لما يبكي ويبكي لما يضحكُ، ويتسممُ لعدوه، ويُقطبُ في وجهِ صديقه، ويُنفقُ في دراسةٍ ما يسمونه علمَ السؤل - أي علمَ المُداهنةِ والمَلق - زَمناً لو أنفقَ عُشرَ معشاره في الناس، وازدلاًفاً^(٢) إلى قلوبهم.

ليست شهوةُ الخمر من الشهواتِ الطبيعيةِ المركبةِ في غرائزِ الناسِ فلو لم يذوقوها لما طلبوها ولا كلفوا بها، وما جناها عليهم إلا كلفُ تاركها برضاءِ شاربها. وما كان الترفُ خُلُقاً من الأخلاقِ الفِطريةِ في الإنسانِ ولكن كلفاً^(٣) المتشققون برضاءِ المترفينِ فترَفُوا، فحملوا في ذلك السبيلِ من شقاءِ العيشِ وبلائهِ وأثقالِ الحياةِ وأعبائها، ما نغصَ عليهم عيشهم وأفسدَ عليهم حياتهم. وإنك لتري الرجلَ العاقلَ الذي يعرفُ ما يجبُ ويعلمُ ما يأخذُ وما يدعُ، يبيعُ منزلهُ في نفقةِ عرسِ ولده أو ابنته، فلا تجدُ لفعله تأويلاً، إلا خوفاً من سخطِ الناسِ واتقاءً مُدَمَّتِهِمْ. وكثيراً ما قتل الخوفُ من سخطِ الناسِ والكلفُ برضاهم ذكاءَ الأذكياءِ، وأطفاً عقولِ العقلاءِ. وكَم رأينا من ذكيٍّ يظلُّ طولَ حياتهِ خاملاً مُتلففاً لا يجرؤُ على إظهار أثر من آثارِ فِطنته وذكائه مخافةً هُزءِ الناسِ وسُخريتهم، وعاقل لا يمتنعُ من الإقدامِ على إصلاحِ شأنِ أمتهِ وتقويمها إلا سخطُ الساخطينِ ونقمةُ الناقمينِ.

وما أعجبتُ برجلٍ في حياتي إعجابي بأديبٍ من أدباءِ هذه الأُمَّةِ يكتبُ الرسالةَ التي يريدُ كتابتها بينه وبين نفسه، ثم يُدلي بها إلى صحيفةٍ من الصُحفِ آيةً كانت ثم يمضي لسبيله كأنه ما صنعَ شيئاً، فلا يسيرُ وراءها سيرَ المتسمعِ المتجسسِ ليعلمَ ما لرأيي الناسِ فيها، وما حديثهم عنها، وهل سخطوا عليها، أو رضوا بها؟! ولا يُمسي مُتلقاً في المجامعِ والأنديةِ، مُسائلاً عنها كلَّ غادٍ ورائح، ليجدَ خيراً فيضحكُ ويستبشر، أو شراً فيبكي ويبتس. بل كثيراً ما رأيتُه يسمعُ حديثَ الناسِ عنه في حالتي رضاهم وسخطهم ساكناً هادئاً؛ كأنما يتحدثون عن غيره، ويعنون شخصاً سواه، حتى كدتُ أتخيّلُ ألا فرقَ عنده بين: أحسنتُ وأجذتُ، وأسأتُ وأخطأتُ. بل قلما رأيتُه على كثرةِ لصوقي به، وتفقدِي مواقعَ سَمِعه وبصره يقرأ ما تكتبُهُ الصُحفُ عنه، وما تعلقُهُ

(١) يحرج صدره: يصاب بالضيق، وفي القرآن: ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ صَخْرًا حَرِيًّا﴾.

(٢) الازدلاف والزلزلي: التقرب. (٣) الكلف بالشيء: الولوج به.

على آرائه وأفكاره، من مدح أو ذم، حتى كدت أحمل تلك الحال الغريبة من أمره علي البله والغفلة، أو العظمة والكبرياء، لولا أنني فاتحته مرة في ذلك وسألته: لم لا تحفل برأي الكتاب فيك ولم تقرأ ما يكتبون عنك؟ فأجاب:

إنني ما أقدمت على الكتابة للناس في إصلاح شؤونهم، وتقويم معوججهم، إلا بعد أن عرفت أنني أستطيع أن أنزل منهم منزلة المعلم من المتعلم، للناس خاصة وعمامة.

أما خاصتهم فلا شأن لي معهم، ولا علاقة لي بهم، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم، فلا أفرح برضاهم، ولا أجزع لسخطهم، ولأنني لم أكتب لهم، ولم أتحدث إليهم، ولم أشهدهم أمري، ولم أحضرهم عملي، بل أنا أتجنب جهد المستطيع أن أستمع منهم كل ما يتعلق بي من خير أو شر؛ لأنني راض عن آرائي التي أودعها إياها، فلا أحب أن يشككني فيها مشكك. ولم يهيني الله من قوة الفراسة ما أستطيع أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم، فأقبل على الأول لأستفيد علمه، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه. فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لابد له أن يفرغ منها في ساعة محدودة، ثم علم أن على يمين الطريق الذي يسلكه روضة غناء تعني أغصانها، وتشتجر أفنانها، وتغرّد أطيأرها، وتألّق أزهارها، وأن على يساره غابا تزار أسوده، وتعوي ذئابها، وتفتح أفاعيه وصلاله^(١)، فمشى قدما لا يلتفت يمنا مخافة أن يلهو عن غايته بشهوان سمعه وبصره، ولا يسره مخافة أن يهيج بنظرته فضول تلك السباع المفعية والصلال الناشرة فتعرض دون طريقه.

وأما عامتهم فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب وسلامة الوجدان ما يعدّه لاستماع القول واتباع أحسنه، فأنا أحمد الله في أمره؛ وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبّه، ولا يسمع إلا ما يطربّه، فأكل أمره إلى الله وأستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل له من بعد عسر يسرا.

فأنا إنما أكتب للناس لأعجبهم، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم أنت أحسنت، بل لأجد في نفوسهم أثرا مما كتبت. فلو أن هذه الملايين الأثنى عشر التي يحتضنها هذان الجبلان أجمعت أمرها على الإعجاب بي والرضا عني، ثم رأيت من بينها رجلا واحدا ينتفع بما أقول؛ لكان الواحد المستفيد أثر في نفسي من الملايين المعجبين.

أندري لم عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها؟!؛ لأنهم يظنون أنهم لا يزالون حتى

(١) الصلال: الحيات الخبيثة اللادغة.

اليوم طلبة يتعلمون في مدارسهم وأنهم جالسون بين يدي أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان؛ فترى واحدا منهم يكتب وهمه المالى قلبه أن يعجب اللغويين، أو يروق المنشئين، أو يطرب الأدباء، أو يضحك الظرفاء، ولا يدخل باب أغراضه ومقاصده أن يتفقد المسلك الذي يجب أن يسلكه إلى قلوب الذين يقول إنه يعظمهم أو ينصحهم أو يهدبهم أو يثقفهم ليعلم كيف ينفذ إلى نفوسهم، وكيف بهجم على قلوبهم، وكيف يملك ناصية عقولهم؛ فيعدل بها عن ضلالها إلى هداها، وعن فسادها إلى صلاحها. فمثل كمثل الفارس الكذاب الذي تراه حاملا سيفه كل يوم إلى الجوهرى ليرع له قبضته، أو الحداد ليشحذ له حده، أو الصقيل ليجلو له صفحته، ولا تراه يوما في ساحة الحرب ضاربا به.

نعم، قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهباً من مذاهب الخير وطريقاً من طرق الهداية للضال عنها، لو أن الفضيلة هي الخلق المنتشر فيهم، والغالب على أمرهم. ولو كان الأمر كذلك لآثرت أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي، لا من حيث تشخيصها في أذهان الناس وقولهم. فإذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطت قلبه وأخذت مستقرها من نفسه جعلها ميزانا يزن به أقواله وأفعاله كما يزن به أقوال الناس وأفعالهم، ثم لا يبالي بعد ذلك أَرْضُوا عنه أم سَخَطُوا عليه، أَحَبُّوه أم أَبْغَضُوهُ؛ فإنما يبكي على الحبِّ النَّسَاء.



العبرات



كُنْتُ أَغْبِطُ نَفْسِي عَلَى التَّجَلُّدِ وَالصَّبْرِ، وَأَحْسِبُنِي قَادِرًا عَلَى
الاسْتِمْسَاكِ فِي كُلِّ رُزْءٍ مَهْمَا جَلَّ شَأْنُهُ، وَعَظُمَ وَقْتُهُ، فَلَمَّا مَاتَ
«مصطفى كامل» عَلِمْتُ أَنَّ مِنَ الرِّزَايَا مَا لَا يُطَاقُ احْتِمَالُهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ
تَجَرُّعُهُ.

كُلَّ يَوْمٍ نَرَى الْمَوْتَ، وَلَا نَزَالُ نَعُدُّ الْمَوْتَ غَرِيبًا، هِيَهَاتِ! لَا غَرَابَةَ فِي الْمَوْتِ،
وَلَكِنَّ الْغَرِيبَ مَوْتُ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ.

كُلَّ يَوْمٍ تَمَرُّ بِنَا قَوَافِلُ الْمَوْتَى فَلَا نَابَهُ لَهَا، وَأَكْبَرُ نَصِيحَتِنَا مِنَ الْحَوْقَلَةِ وَالاسْتِرْجَاعِ،
فَلَمَّا مَرَّتْ قَافِلَةُ «مصطفى كامل» دَهَشْنَا وَجَزَعْنَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ غَرِيبًا فِي حَيَاتِهِ، فَأُخْرَى أَنْ
يَكُونَ غَرِيبًا فِي مَمَاتِهِ.

مَاتَ «مصطفى كامل» فَعَرَفْنَا الْمَوْتَ، وَمَا كُنَّا نَعْرِفُهُ قَبْلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّا مَا كُنَّا نَرَى إِلَّا
أَمْوَاتًا يُنْقَلُونَ مِنْ ظَهْرِ الْأَرْضِ إِلَى بَطْنِهَا. أَمَّا «مصطفى كامل» فَكَانَ حَيًّا حَيَاةً حَقِيقِيَّةً،
فَكَانَ مَوْتُهُ كَذَلِكَ.

لَا يَحْسَبُ الْكَاتِبُونَ أَنَّهُمْ صَنَعُوا شَيْئًا إِذَا بَدَّلُوا لِذَلِكَ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ قَطْرَةً مِنْ
الْمِدَادِ، وَلَا الْبَاكُونَ أَنَّهُمْ أَبْلَوْا بِلَاءً حَسَنًا إِذَا بَدَّلُوا لَهُ قَطْرَةً مِنَ الدَّمْعِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَبْدُلُ
لَهُمْ مَاءَ حَيَاتِهِ قَطْرَةً فَقَطْرَةً حَتَّى أَفْنَاهُ، وَمَضَى لِسَبِيلِهِ وَشَتَانَ مَا بَيْنَ صَنِيعِهِمْ وَصَنِيعِهِ.
أَيْنَ قَطْرَاتِ الدَّمْعِ الَّتِي يُرِيحُ بِهَا الْبَاكُونَ أَنْفُسَهُمْ، أَوْ قَطْرَاتِ الْمِدَادِ الَّتِي يُرْصَعُ
بِهَا الْكُتُبُ بِيَاضِ صَحَائِفِهِمْ، مِنْ قَطْرَاتِ الْحَيَاةِ الَّتِي أَرَاقَهَا «مصطفى كامل» فِي سَبِيلِ
وَطْنِهِ وَأُمَّتِهِ؟

كَانَ «مصطفى كامل» سِرَاجًا كَبِيرَ الشُّعْلَةِ، وَكُلُّ سِرَاجٍ تَكْبُرُ شُعْلَتُهُ يَفْرُغُ زَيْتَهُ
وَشَيْكَا، وَتَحْتَرِقُ ذُبَالَتُهُ^(١)، فَيَنْطَفِئُ نَوْرُهُ.

كَانَ «مصطفى كامل» نَشِيطًا سَرِيعَ الْحَرَكََةِ، فَقَطَعَ جَسَرَ الْحَيَاةِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ.

(١) الذبالة: فئيل المصباح، ومنه قول الحكيم للعالم: «لا تكن كالذبالة تضيء للناس الطريق وتحرق نفسها».

كَانَ الْوَطْنِيُونَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَتَكَلَّمُونَ، فَلَمَّا صَاحَ «مُصْطَفَى كَامِلٌ» وَأَسْمَعَ فِي صِيَاحِهِ عَرَفُوا أَنَّ آذَانَ السِّيَاسَةِ لَا يَخْتَرِقُهَا إِلَّا الصَّوْتُ الْجَهْوَرِيُّ، وَلَوْلَا مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ.

كَانَ الْوَطْنِيُونَ يَحْتَقِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيُسَيِّئُونَ الظَّنَّ بِهِ، فَلَا يُصَدِّقُونَ أَنَّ تُرْبَةَ مِصْرَ تَنْبُتُ أَمْثَالَ «فُولْتِير، وَهُوجُو، وَغَارِبِيَالدي، وَوَأَشْنَطِن، فَلَمَّا تَبَعَّ بَيْنَهُمْ «مُصْطَفَى كَامِلٌ» عَرَفُوا أَنَّ تُرْبَةَ الشَّرْقِ لَا تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنِ تُرْبَةِ الْغَرْبِ لَوْ تَعَاهَدَهَا الزَّرَاعُونَ.

كَانَ لِمُصْطَفَى كَامِلٍ أَنْامِلٌ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِرِيشَةِ الْمَوْسِقَارِ يَضْرِبُ بِهَا عَلَى أوتَارِ الْقُلُوبِ، وَكَأَنَّمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا سَلْكٌ كَهَرْبَائِيٍّ، فَهِيَ تَحْتَرِّكُ بِحَرَكَتِهِ وَتَسْكُنُ بِسُكُونِهِ.

مَا كَانَ «مُصْطَفَى كَامِلٌ» أَذَكَى النَّاسِ، وَلَا أَعْلَمَ النَّاسِ، وَلَا أَعْقَلَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ.

كَانَ يَفْكُرُ فَيَقْتَنِعُ فَيَصْمُمُ فَيَمْضِي فَلَا يَنْتَبِي حَتَّى الْمَوْتِ. كَانَ يُخْطِئُ أحيانًا فِي اتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ إِلَى أَمَالِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ إِذَا اتَّخَذَهَا لَا يَتَمَهَّلُ رِشْمًا يَنْتَبِي أَيَّ طَرِيقٍ يَأْخُذُ، وَلَا أَيَّ مَسَلِكٍ يَسَلُكُ، وَمَخَافَةٌ أَنْ تَفْتُرَ هَمَّتُهُ بَيْنَ الْأَخْذِ وَالرَّدِّ، فَيَكُونُ خَطْوُهُ فِي تَرُدِّهِ أَكْثَرَ مِنْ خَطْوِهِ فِي جِهَادِهِ.

كَانَ لَهُ مَنَافِسُونَ يَرْمُونَهُ بِالْخِفَّةِ وَالطَّيْشِ وَيَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ مُخْطِئٌ أَوْ مُضِرٌّ، أَوْ غَيْرَ مُحْسِنٍ، أَوْ غَيْرَ عَظِيمٍ، فَمَا كَانَ يُصَدِّقُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَأَنَّمَا كَانَ يَنْظُرُ بَعَيْنَ الْغَيْبِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي اتَّفَقَ فِيهِ أَصْدِقَاؤُهُ وَأَعْدَاؤُهُ، وَخُصُومُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ، عَلَى أَنَّهُ رَجُلٌ عَظِيمٌ.

مَا كَانَ «مُصْطَفَى كَامِلٌ» مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، وَلَا مِنَ بَيْتِ الْمُلْكِ، وَمَا كَانَ أَمِيرًا وَلَا نَاهِيًا. وَلَا رَافِعًا وَلَا خَافِضًا. وَلَكِنَّهُ لَقِيَ مِنَ إِجْلَالِ النَّاسِ لِمَوْتِهِ وَإِعْظَامِهِمْ لِمُصِيبَتِهِ مَا لَمْ يَلْقَ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَلَا فَضَّلَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَهُوَ الَّذِي عَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَحْتَرِّمُونَ الْعُقُولَ، وَيُجِلُّونَ الْمَنَاقِبَ وَالْمَزَايَا.

فِيهَا أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ، إِنْ كَانَ لَكَ وَلَدٌ تُحِبُّ أَنْ تَجْعَلَهُ رَجُلًا فَاجْعَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ حَيَاةَ «مُصْطَفَى كَامِلٍ» لِيَتَعَلَّمَ مِنْهَا الشَّجَاعَةَ وَالْإِقْدَامَ.

وَيَا أَيُّهَا الْمِصْرِيُّ، كُنْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى وَطَنِيَّتِكَ. وَلَا تَبِعْ بِهَا بَدَلًا مِنْ عَرْضِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا. فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ كُنْتَ «مُصْطَفَى كَامِلٌ».

وَيَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، أَقْدِمْ عَلَى عِظَائِمِ الْأُمُورِ، وَلَا تَلْتَفِتْ يَمَنَةً وَلَا يَسْرَةً وَاخْتَرَقْ بِسَيْفِ

شَجَاعَتِكَ صُفُوفَ الْمُعْتَرِضِينَ وَالنَّاقِمِينَ وَالْهَازِئِينَ وَالسَّخِرِينَ فَإِنَّهُمْ سَيَعْتَرِفُونَ
بِفَضْلِكَ، وَيُسَمُّونَكَ عَظِيمًا كَمَا سَمَّوْا «مُصْطَفَى كَامِلًا».

وَبَا أَيُّهَا الرَّاحِلُ الْمُوَدَّعُ، إِنَّ بَيْنَ جَنَبِيَّ لَوْعَةً تَعْتَلِجُ لِفِرَاقِكَ لَا أَعْرِفُ سَبِيلًا إِلَى
التَّعْبِيرِ عَنْهَا إِلَّا الْقَلَمَ.

وَهَآنَذَا أَعَالِجُ الْقَلَمَ عِلَاجًا شَدِيدًا عَلَى أَنْ يُسَعِّفَنِي بِحَاجَتِي، وَأَقْلِبُهُ ظَهْرًا لِبَطْنِ،
وَأَكْثَرَ مِنْ اسْتِمْدَادِهِ، وَأَضْغَطُ بِهِ الْقِرطَاسَ ضَغْطًا شَدِيدًا، فَلَا أَرَاهُ يُغْنِي عَنِّي شَيْئًا.

خَطَرَ لِي أَنَّ الْحَزْنَ سُوِيْدَاءَ الْقَلْبِ، وَأَنَّهُ بَعِيدُ الْعُورِ وَلَا تَبْلُغُهُ هَذِهِ الْأَدَاةُ الْقَصِيرَةُ
الَّتِي فِي يَدِي، فَاسْتَبَدَلْتُ بِهَا أَدَاةً أَطْوَلَ مِنْهَا، فَكَانَ حُكْمُهَا حُكْمَ سَابِقَتِهَا.

إِذْنِ، كَيْفَ أُعَبِّرُ عَنِ وَجْدِي، أَيُّهَا الْفَقِيدُ الْكَرِيمِ، وَقَدْ خَرَسَ الْقَلَمُ وَعَيَّ اللِّسَانُ!
الآنَ عَرَفْتُ السَّبِيلَ وَوَصَلْتُ إِلَى مَا أُرِيدُ.

أَنْتَ الْآنَ فِي عَالَمِ الْأَرْوَاحِ. وَقَدْ انْكَشَفَ لَكَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِ النُّفُوسِ وَدَخَائِلِ
الْقُلُوبِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ انْكَشَفَ لَكَ مَا يَكُنُّ قَلْبِي مِنَ الْوَجْدِ عَلَيْكَ، وَالْأَسْفِ عَلَى
فِرَاقِكَ. فَمَا حَاجَتِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى تَرْجَمَةِ الْقَلَمِ أَوْ تَعْبِيرِ اللِّسَانِ.

أَيُّهَا الرَّاحِلُ الْمُوَدَّعُ، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا. خَدَمْتَ أُمَّتَكَ فِي حَيَاتِكَ وَبَعْدَ مَمَاتِكَ، وَلَوْلَا
حَيَاتُكَ مَا نَمَتِ الْعَاطِفَةُ الْوَطْنِيَّةُ فِي نُفُوسِ الْمَصْرِيِّينَ، وَلَوْلَا مَمَاتُكَ مَا عَرَفَ الْعَالَمُ
أَجْمَعُ أَنَّ الْأُمَّةَ الْمَصْرِيَّةَ عَلَى اخْتِلَافِ مَشَارِبِهَا وَمَذَاهِبِهَا تَجَمَّعُهَا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ
حُبُّ الْوَطَنِ وَحُبُّ رِجَالِهِ الْعَامِلِينَ.



دمعة على الإسلام



كَتَبَ إِلَيَّ أَحَدُ عِلْمَاءِ الْهِنْدِ كِتَابًا يَقُولُ فِيهِ: إِنَّهُ اطَّلَعَ عَلَى مُؤَلَّفٍ ظَهَرَ حَدِيثًا بِلُغَةِ «التَّامِيلِ»، وَهِيَ لُغَةُ الْهِنُودِ السَّاكِنِينَ بِنَاقُورَ وَمُلْحَقَاتِهَا بِجَنُوبِ مَدَارِسِ^(١) مَوْضُوعُهُ: «تَارِيخُ حَيَاةِ السَّيِّدِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ، وَذَكَرُ مَنَاقِبِهِ وَكِرَامَاتِهِ»، فَرَأَى فِيهِ مَنَ الصِّفَاتِ وَالْأَلْقَابِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا الْكَاتِبُ السَّيِّدَ عَبْدِ الْقَادِرِ وَلَقَّبَهُ بِهَا، صِفَاتٍ وَأَلْقَابًا هِيَ بِمَقَامِ الْأُلُوهِيَةِ أَلْبِقُ مِنْهَا بِمَقَامِ النَّبُوَّةِ. فَضَّلَا عَنَ مَقَامِ الْوِلَايَةِ، كَقَوْلِهِ: «سَيِّدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، وَ«النَّفَاعُ الضَّرَارِ»، وَ«الْمَتَصَرِّفُ فِي الْأَلْوَانِ»، وَ«الْمُطَّلَعُ عَلَى أَسْرَارِ الْخَلِيقَةِ»، وَ«مُحْيِي الْمَوْتَى»، وَ«مُبْرِئُ الْأَعْمَى وَالْأَبْرَصِ وَالْأَكْمَهَ»، وَ«أَمْرُهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»، وَ«مَاحِي الذُّنُوبِ»، وَ«دَافِعُ الْبَلَاءِ»، وَ«الرَّافِعُ الْوَاضِعِ»، وَ«صَاحِبُ الشَّرِيعَةِ»، وَ«صَاحِبُ الْوُجُودِ التَّامِّ»، إِلَى كَثِيرٍ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ التَّنَعُوتِ وَالْأَلْقَابِ!

وَيَقُولُ الْكَاتِبُ إِنَّهُ رَأَى فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ فَصْلًا يَشْرُحُ فِيهِ الْمَوْلُفُ الْكَيْفِيَّةَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَكَيَّفَ بِهَا الزَّائِرُ لِقَبْرِ السَّيِّدِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ يَقُولُ فِيهِ: «أَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى الزَّائِرِ: يَتَوَضَّأُ وَضُوءًا سَابِعًا، ثُمَّ يَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ بِخُشُوعٍ وَاسْتِحْضَارٍ، ثُمَّ يَتَوَجَّهُ إِلَى تِلْكَ الْكَعْبَةِ الْمَشْرِفَةِ، وَبَعْدَ السَّلَامِ عَلَى صَاحِبِ الضَّرِيحِ الْمَعْظَمِ يَقُولُ:

«يَا صَاحِبَ الثَّقَلَيْنِ أَغْنِنِي وَأَمِدَّنِي بِقَضَاءِ حَاجَتِي، وَتَفْرِيجِ كُرْبَتِي، أَغْنِنِي يَا مُحْيِيَ الدِّينِ عَبْدِ الْقَادِرِ، أَغْنِنِي يَا وَلِيَّ عَبْدِ الْقَادِرِ، أَغْنِنِي يَا سُلْطَانَ عَبْدِ الْقَادِرِ، أَغْنِنِي يَا بَادِشَاهَ عَبْدِ الْقَادِرِ، أَغْنِنِي يَا خُوجَةَ عَبْدِ الْقَادِرِ».

«يَا حَضْرَةَ الْغُوثِ الصَّمْدَانِيِّ، يَا سَيِّدِي عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ، عَبْدُكَ وَمَرِيدُكَ مَظْلُومٌ عَاجِزٌ مَحْتَاجٌ إِلَيْكَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٢).

وَيَقُولُ الْكَاتِبُ أَيْضًا: إِنَّ فِي بَلَدَةِ «فِي الْهِنْدِ قَبْرًا يُسَمَّى «شَاهِ الْحَمِيدِ» وَهُوَ أَحَدُ أَوْلَادِ السَّيِّدِ عَبْدِ الْقَادِرِ - كَمَا يَزْعَمُونَ - وَإِنَّ الْهِنُودَ يَسْجُدُونَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ الْقَبْرِ

(١) مدارس: اسم مكان ببلاد الهند.

(٢) هذه العبارات من كلام غلاة الصوفية ويرفضه المتصوفة الذين يسرون على الكتاب والسنة.. فتنبه.

سجودهم بين يديّ الله. وإن في كلّ بلدة من بلدان الهند وقرّاه مزارًا يمثّل مزار السيّد عبد القادر؛ فيكون القبلة التي يتوجّه إليها المسلمون في تلك البلاد والملجأ الذي يلجئون في حاجاتهم وشدائدهم إليه. ويُنفقون من الأموال على خدّمته وسدّته^(١)، وفي موالده وحضرته ما لو أنفق على فقراء الأرض جميعًا لصاروا أغنياء.

هذا ما كتبه إليّ ذلك الكاتب. ويعلم الله أنني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الأرض الفضاء، وأظلمت الدنيا في عيني. فما أبصرُ مما حوّلي شيئًا. حُزنًا وأسفًا على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوام أنكروه بعدما عرفوه، ووَضَعُوهُ بعدما رَفَعُوهُ.. وذَهَبُوا به مَذَاهِبَ لا يَعْرِفُهَا.. ولا شأنَ له بها.

أَيُّ عَيْنٍ يَجْمَلُ بها أن تَسْتَبْقِي في مَحَاجِرِهَا قَطْرَةً واحدةً منَ الدَمْعِ فلا تَرِيَقُهَا أَمَامَ هذا المنظر المؤثر المحزن؛ منظر أولئك المسلمين، وهم رَكَّعٌ سَجَّدٌ على أعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خيرٌ من ساكنه في حياته، فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته! أَيُّ قلبٍ يستطيع أن يستقرَّ بين جَنَبِيّ صاحبه ساعةً واحدةً فلا يطيرَ جَزَعًا حينما يَرَى المسلمين - أصحاب دين التوحيد - أكثرَ من المشركين إشرًا بالله، وأوسَعَهُمْ دائرٌ في تعدّدِ الآلهة وكثرة المعبودات!

لِمَ يَنْقِمُ المسلمونَ التّليثَ منَ المِسيحيّين.. لِمَ يَحْمِلُونَ لَهُم في صُدُورِهِم تلكَ الموجدةَ وذلكَ الضغنَ، وعلامَ يُحَارِبُونَهُم، وفيَمَ يُقَاتِلُونَهُم وهم لم يبلِغُوا مِنَ الشُّرْكِ بالله مَبْلَغَهُم، ولم يُغْرِقُوا فيه إغراقَهُمْ!؟

يدينُ المِسيحيونَ بِالْهَةِ ثَلَاثَةَ، ولكنَّهُم يَشْعرونَ بِغَرَابَةِ هذا التّعدّدِ وِبُعدِهِ عن العِقلِ، فَيَتَأَوَّلُونَ فيه ويقولونَ إِنَّ الثَلَاثَةَ في حُكْمِ الوَاحِدِ. أمّا المسلمونَ فيدينونَ بِأَلْفِ مِنَ الآلهَةِ أكثرَها مَجذُوعُ أشجارٍ، وَجُثَّتُ أمواتٍ، وَقِطْعُ أَحجارٍ، من حيث لا يشعرون!

كثيرًا ما يُضْمِرُ الإنسانُ في نَفْسِهِ أمرًا، وهو لا يَشْعُرُ به، وكثيرًا ما تشتمل نَفْسُهُ على عَقِيدَةٍ حَفِيَّةٍ لا يحسُّ بِاشْتِمَالِ نَفْسِهِ عليها، ولا أَرَى مَثَلًا لذلكَ أَقْرَبَ مِنَ المسلمين الذين يَلْتَجِئُونَ في حاجاتهم وَمَطَالِبِهِم إلى سُكَّانِ القُبُورِ ويتَضَرَّعونَ إليهِم تَضَرُّعُهُم لِلإلهِ المعبودِ. فإذا عَتَبَ عَلَيْهِم في ذلكَ عَاتِبٌ، قالوا: إنا لا نعبُدُهُم، وإنما نَتَوَسَّلُ بِهِم إلى الله؛ كأنهم يشعرونَ أن العبادةَ ما هُم فيه، وأنَّ أَكْبَرَ مَظْهَرِ لالُوهِيةِ الإلهِ المعبودِ أن

(١) سادن المكان: القائم على خدمته.

يَقِفَ عِبَادُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ضَارِعِينَ خَاشِعِينَ، يَلْتَمِسُونَ إِمدَادَهُ وَمَعُونَتَهُ، فَهَمَّ فِي الْحَقِيقَةِ عَابِدُونَ لِأَوْلَئِكَ الْأَمْوَاتِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

جاءَ الإسلامُ بعقيدةِ التوحيدِ؛ ليرْفَعَ نفوسَ المسلمينَ، وَيَغْرِسَ فِي قُلُوبِهِمُ الشَّرْفَ وَالْعِزَّةَ وَالْإِنْفَةَ وَالْحَمِيَّةَ، وَلِيُثَبِّتَ رِقَابَهُمْ مِنْ رِقِّ الْعِبُودِيَّةِ، فَلَا يَذَلُّ صَغِيرُهُمْ لِكَبِيرِهِمْ وَلَا يَهَابُ ضَعِيفُهُمْ قُوَّتَهُمْ، وَلَا يَكُونُ لَذِي سُلْطَانٍ بَيْنَهُمْ سُلْطَانٌ إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ. وَقَدْ تَرَكَ الْإِسْلَامُ بِفَضْلِ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ ذَلِكَ الْأَثَرَ الصَّالِحَ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعُصُورِ الْأُولَى، فَكَانُوا ذَوِي أَنْفَةٍ وَعِزَّةٍ، وَإِبَاءٍ وَغَيْرِ، يَضْرِبُونَ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ إِذَا ظَلَمَ، وَيَقُولُونَ لِلسُّلْطَانِ إِذَا جَاوَزَ حُدَّةً: قِفْ مَكَانَكَ، وَلَا تَغْلُ فِي تَقْدِيرِ مِقْدَارِ نَفْسِكَ؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ مَخْلُوقٌ لِأَرْبِّ مَعْبُودٍ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

هذه صورةٌ مِنْ صُورِ نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ فِي عَهْرِ التَّوْحِيدِ، أَمَّا الْيَوْمَ وَقَدْ دَاخَلَ عَقْدِيَّتُهُمْ مَا دَاخَلَهَا مِنَ الشَّرِكِ الْبَاطِنِ تَارَةً وَالظَّاهِرِ أُخْرَى، فَقَدْ ذَلَّتْ رِقَابُهُمْ، وَخَفَقَتْ رُءُوسُهُمْ، وَضَرَعَتْ نَفُوسُهُمْ، وَفَتَّرَتْ حَمِيَّتُهُمْ، فَارْتَضَوْا بِخُطَّةِ الْخُسْفِ (١)، وَاسْتَنَامُوا (٢) إِلَى الْمَنْزِلَةِ الدُّنْيَا، فَوَجَدَ أَعْدَاؤُهُمُ السَّبِيلَ إِلَيْهِمْ، فَغَلَبُوهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ، وَمَلَكَوا عَلَيْهِمْ نَفُوسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَوَاطِنَهُمْ وَدِيَارَهُمْ فَأَصْبَحُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ.

والله لَنْ يَسْتَرْجِعَ الْمُسْلِمُونَ سَالِفَ مَجْدِهِمْ، وَلَنْ يَبْلُغُوا مَا يُرِيدُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ سَعَادَةِ الْحَيَاةِ وَهَنَاءِهَا إِلَّا إِذَا اسْتَرْجَعُوا قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَضَاعُوهُ مِنْ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ. وَإِنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَانْصِبَابَ مَاءِ النَّهْرِ فِي مَنَبِعِهِ، أَقْرَبُ مِنْ رُجُوعِ الْإِسْلَامِ إِلَى سَالِفِ مَجْدِهِ، مَا دَامَ الْمُسْلِمُونَ يَقْفُونَ بَيْنَ يَدَيْ الْجِيلَانِي كَمَا يَقْفُونَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ لِلأَوَّلِ كَمَا يَقُولُونَ لِلثَّانِي: «أَنْتَ الْمَتَصَرِّفُ فِي الْكَائِنَاتِ، وَأَنْتَ سَيِّدُ الْأَرْضِينَ وَالسَّمَاوَاتِ».

إِنَّ اللَّهَ أَعْيَرَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يُسَعِدَ أَقْوَامًا يَزْدَرُونَهُ وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيَتَّخِذُونَهُ وَرَاءَهُمْ ظَهْرِيًّا، فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ جَانِحَةٌ، أَوْ أَلَمَّتْ بِهِمْ مُلَمَّةٌ، ذَكَرُوا الْحَجَرَ قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُوهُ، وَتَأَدُّوا الْجَدْعَ قَبْلَ أَنْ يُنَادُوهُ.

بِمَنْ أَسْتَعِيثُ؟! وَبِمَنْ أَسْتَجِدُّ؟! وَمَنْ الَّذِي أَدْعُوهُ لِهَذِهِ الْمُلَمَّةِ الْفَادِحَةِ؟! أَدْعُو

(١) خُطَّةُ الْخُسْفِ: الْمَذَلَّةُ، وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، «يَعْبِجُنِي مِنَ الرَّجْلِ أَنَّهُ إِذَا اسِيمَ خُطَّةَ خُسْفٍ أَنْ يَقُولَ بَمَلَاءِ فِيهِ:

لَا « أَيُّ إِذَا دُعِيَ إِلَى الْمَذَلَّةِ رَفِضَ.

(٢) الْاسْتِنَامَةُ: الْاسْتِكَانَةُ وَالْمَذَلَّةُ.

عُلَمَاءِ مِصْرَ وَهُمْ الَّذِينَ يَتَهَفَتُونَ عَلَى «يَوْمِ الْكَنْسِ»^(١) تَهَفَّتِ الذَّبَابُ عَلَى الشَّرَابِ؟! أم علماء الأستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام؛ ليحيوا أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية؟! أم علماء العجم وهم الذين يحججون إلى قبر الإمام كما يحججون إلى البيت الحرام، أم علماء الهند وبينهم أمثال مؤلف هذا الكتاب. يا قَادَةَ الأُمَّةِ ورؤساءها، عذرننا العامة في إشراكها وفساد عقائدها، وقلنا إن العامي أفسر نظرًا وأضعف بصيرة من أن يتصور الإلهية إلا إذا رآها ماثلة في النصب والتماثيل والأضرحة والقبور. فما عذركم أنتم وأنتم تلون كتاب الله، وتقرءون صفاته ونعوته، وتفهمون معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله مخاطبًا نبيه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ رَبٌّ اللَّهُ الرَّحْمَنُ﴾ [الأنفال: ١٧].

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم وزواحيكم: «كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف». فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يخصصون^(٢) قبرًا، أو يتوسلون بضريح؟! وهل تعلمون أن واحدًا منهم وقف عند قبر النبي ﷺ، أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته، يسأله قضاء حاجة أو تفریح هم؟! وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين؟! وهل تعلمون أن النبي ﷺ حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثًا ولعبًا؟! أم مخافة أن تعبد للمسلمين جاهليتهم الأولى؟! وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور، ما دام كل منها يجر إلى الشرك، ويفسد عقيدة التوحيد؟!

والله، ما جهلتم شيئًا من هذا؛ ولكنكم أنزتم الحياة الدنيا على الآخرة، فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاض أمركم، وسلط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم، ويستعبدون رقابكم، ويخربون دياركم، والله شديد العقاب.



(١) يوم الكنس: جاء في طبعة ١٩١٠م: يوم يذهب فيه جميع علماء الدين إلى ضريح الإمام الشافعي لحضور كنسه والتبرك بترابه، وكان ذلك في العصور الغابرة.
(٢) يخصصون القبر: يطلونه بالحصص.

السياسة



حضرة السيد الفاضل

ما لك لا تُكثِرُ مِنَ الكِتَابَةِ فِي الشُّونِ السِّيَاسِيَّةِ، إِكْتَارَكَ مِنْهَا فِي الشُّونِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ؟! وَكَيْفَ يَضِيقُ بِالسِّيَاسَةِ قَلْمَكَ، وَقَدْ وَسَّعَ مَا هُوَ أَدَقُّ مَذْهَبًا مِنْهَا. فَكُتِبْ لَنَا فِي السِّيَاسَةِ، فَأَمَّتْكَ تَحِبُّ أَنْ تَرَكَ سِيَاسِيًّا، وَالسَّلَامَ.

«فلان».

أيها الكاتب..

يَعْلَمُ اللَّهُ أَنِّي أَبْغَضُ السِّيَاسَةَ وَأَهْلِهَا بُغْضِي لِلْكَذِبِ وَالغُشِّ، وَالخِيَانَةِ وَالغَدْرِ. أَنَا لَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ سِيَاسِيًّا؛ لِأَنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ جَلَادًا فَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ السِّيَاسِيِّينَ وَالْجَلَادِينَ، إِلَّا أَنَّ هَؤُلَاءِ يَقْتُلُونَ الْأَفْرَادَ، وَأَوْلَئِكَ يَقْتُلُونَ الْأُمَّمَ وَالشُّعُوبَ. هَلِ السِّيَاسِيُّ إِلَّا رَجُلٌ قَدْ عَرَفَتْ أُمَّتُهُ أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ بَيْنَ أَفْرَادِهَا مَنْ هُوَ أَقْسَى مِنْهُ قَلْبًا، وَلَا أَعْظَمُ كَيْدًا، وَلَا أَكْثَرَ دَهَاءً وَمَكْرًا؛ فَنَصَبْتُهُ لِلْقَضَاءِ عَلَى الْأُمَّمِ الضَّعِيفَةِ، وَسَلَبْتُهَا مَا وَهَبَهَا اللَّهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَأَجْرَلْتُ لَهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ؟

أَلَيْسَ أَكْبَرُ السِّيَاسِيِّينَ مَقَامًا، وَأَعْظَمُهُمْ فَخْرًا، وَأَسِيرُهُمْ ذِكْرًا، ذَلِكَ الَّذِي نَقَرَأُ صَفْحَاتِ تَارِيخِهِ فَتَرَى حُرُوفَهَا أَشْلَاءَ الْقَتْلَى، وَنُقْطَهَا قَطْرَاتِ الدَّمَاءِ؟!

أَيَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ أَنْ يَكُونَ سِيَاسِيًّا إِلَّا إِذَا كَانَ كَاذِبًا فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، يُبْطِنُ مَا لَا يُظْهَرُ وَيُظْهَرُ مَا لَا يُبْطِنُ، وَيَسْمُ فِي مَوْطِنِ الْبُكَاءِ، وَيَبْكِي فِي مَوْطِنِ الْابْتِسَامِ؟!

أَيَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ أَنْ يَكُونَ سِيَاسِيًّا إِلَّا إِذَا عَرَفَ أَنَّ بَيْنَ جَنْبِيهِ قَلْبًا مُتَحَجِّرًا لَا يُقْلِقُهُ بُؤْسَ الْبَائِسِينَ وَلَا تَرْعِجُهُ نَكْبَاتُ الْمُنْكَوبِينَ؟!

كثِيرًا مَا يَسْرِقُ السَّارِقُ، فَإِذَا قَضَى مَارِبَهُ مِنْ عَمَلِهِ. رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ مُتَضَرِّعًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُرْزَقَهُ الْمَالَ حَلَالًا حَتَّى لَا يَتَنَاوَلَهُ حَرَامًا وَكَثِيرًا مَا يَقْتُلُ الْقَاتِلُ، فَإِذَا فَرَّغَ مِنْ أَمْرِهِ، جَلَسَ بِجَانِبِ قَتِيلِهِ يَبْكِي عَلَيْهِ بُكَاءَ الثَّائِلِ وَحَيْدِهَا، وَيَتَمَنَّى بِجَدْعِ

الأنف لو رَدَّ إليه حياته، واقتدأه بنفسه؛ أما السياسيُّ فلا يَرَى يوماً في حياته أسعدَ من اليوم الذي يعلمُ فيه أنه قد تمَّ له تدبيرُهُ في هلاكِ شعب، وقَتْلِ أُمَّة. وآيةُ ذلك أنه في يوم انتصاره - كما يَسْمِيهِ هو - أو في يوم جريمته - كما أَسْمِيهِ أنا وتُسَمِّيهِ العَدَالَةُ الإنسانية - يَسْمَعُ هُتَافَ الهاتفينَ باسمه، واسم الجريمةِ التي ارتكبها مُطمئنِّ القلب، مُنلجِ الصِّدر، حتَّى لِيُحَيِّلُ إليه أن الفضاءَ بأرضِهِ وَسَمَائِهِ أَضيقُ من أن يَسَعَّ قلبَهُ الطائرُ المحلَّقُ فَرَحًا وسُرورًا.

يقولون: إن السياسةَ ليستَ علماً من العلوم التي يتلقاها الإنسانُ في مدرسة أو يدرُسُها في كتاب، وإنما هي مجموعةُ أفكارٍ قانونُها التجاربُ، وقاعدتها العملُ.. أتدري لماذا؟!!

لأنَّ العلماءَ أشرفَ من أن يُدُونوا المكايِدَ والحيلَ في كتاب.. ولأنَّ المدارسَ أجَلُّ من أن تجعَلَ بجانبِ دروسِ الأخلاقِ والآدابِ دُروسَ الأكاذيبِ والأباطيلِ، وإلا فكلُّ طائفةٍ من المعلوماتِ المتشابهةِ تدخُلُ بطبيعتها تحتَ نظامٍ عامٍّ يؤلفها، ويجمع شتاتها ويُسمَّى علماً.

هؤلاء هم السياسيُّون، وهذه هي أخلاقهم وغرائزهم، فهل تظنُّ يا سيدي أن رجلاً نصَّبَ نفسه لخدمةِ الحقيقةِ، ومناصرتها على الباطلِ، استنفادِ الفضيلةِ من مخالبِ الرذيلةِ، ووقفَ قلمه على تهذيبِ النفوسِ وترقيةِ الأخلاقِ.. وملاً في رسائله فضاءَ الأرضِ والسماةِ بكاءً على الضعفاءِ والمساكينِ والمظلومينَ والمضطهدينَ، يستطيعُ أن يكونَ سياسياً، أو محاسباً للسياسيين؟!!



خداع العناوين



لقد جهل الذين قالوا: إِنَّ الكتابَ يُعرَفُ بعنوانه.. فإني لم أرَ بين كُتُب التاريخ أكذَبَ من كتاب «بدائع الزهور» ولا أعذبَ من عُنوانه، ولا بين كُتُب الأدب أسخَفَ من كتاب «جواهر الأدب» ولا أزوَعَ من اسمه، كما لم أرَ بين الشعراءِ أعذبَ اسمًا، وأحطَ شعراءَ من «ابن مليك» و«ابن النبيه» و«الشاب الظريف».

لقد كثر الاختلاف بين العناوين وبين الكُتُب حتى كدنا نقول: إن العناوين أدلُّ على نقائضها منها على مفهوماتها.. وألصقُ بأضدادها منها بمنطوقاتها، وإنَّ العنوانَ الكبيرَ حيثُ الكتابُ الصغيرُ، والكتابُ الجليلُ حيثُ العنوانُ الضئيلُ.

الأتقياء:

لولا خداعُ العناوين ما سمعنا صالحًا تقيا كلَّ مَنْ حرَّكَ سُبْحَتَهُ.. وأطالَ لِحِيَتَهُ، ووسَّعَ جُبَّتَهُ، وكوَّرَ عِمَامَتَهُ. ولقد نعلمُ أن وراءَ هذا العنوانِ كتابًا أسودَّ الصفحاتِ كثيرَ السقطاتِ، وأنَّ تحتَ هذا الستارِ الحريريِّ الرقيقِ نَفْسًا سوْدَاءَ مُظْلَمَةٍ، لا ينفذُ إليها شعاعٌ من أشعةِ الرحمةِ، ولا تهبُّ عليها نسمةٌ من نسماتِ الإحسانِ.

لن يؤمنَ المؤمنُ حتَّى في سبيلِ الله، أو في سبيلِ الجماعةِ من ذاتِ نفسه، أو ذاتِ يده، ما يشقُّ على مثله الجودُ بمثله. أمَّا الجودُ بالشفاهِ للهمهمةِ، والأناملُ للمسبحةِ، فعملٌ لا يتكلَّفُ صاحبهُ له أكثرَ ممَّا يتكلَّفُ لتقليبِ ناظرِيه، وتحريكِ هُدْيِيه. وهل خُلقتِ الشفاهُ إلا للتحرريكِ، والأناملُ إلا للتقليبِ؟!!

إن للإيمانِ مواقفَ يمتحنُ الله فيها عباده؛ ليعلمَ الذين صدقوا ويعلمَ الكاذبين. فإن بَدَلِ الضنينِ بماله ماله في مواقفِ الرحمةِ والشفقةِ، والشحيحِ بنفسه نفسه في سبيلِ الدودِ عن حوضِهِ.. والذَّبِّ عن عشيرتِهِ وقومِهِ.. وضعيفِ العزيمةِ ما يملكُ من قوَّةِ وأيدٍ في مغالبةِ شهواتِ نفسه ومقاومةِ نزواتها، فذلك المؤمنُ الذي لا يشوبُ إيمانه رياءٌ ولا دهانٌ، ولا يخالطُ يقينه خداعٌ ولا كذبٌ. أو لا، فأهونُ بهمهمتهِ ومساوِكِهِ

وَمَسَبَحَتِهِ، وَهُوَ بِعُنْوَانِ الْمَنَافِقِ الْكَاذِبِ أَجْدَرُ مِنْهُ بِعُنْوَانِ التَّقِيِّ الصَّالِحِ: ﴿ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].

الأمجاد:

يقولون إِنَّ الْوَلَدَ سِرٌّ أَبِيهِ، وَيُرِيدُونَ بِذَلِكَ أَنَّهُ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَرْتَسِمُ فِيهَا صُورَتُهُ، وَالْبَذْرَةُ الَّتِي تَكْمُنُ فِيهَا حَقِيقَتُهُ. وَعَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ بَنَى الْبَانُونَ قَاعِدَةَ الْمَجْدِ، فَأَعْظَمُوا شَأْنَ الرَّجُلِ الَّذِي يُمَسِّكُ بِطَرْفِ سِلْسِلَةٍ فِي النِّسْبِ يَتَّصِلُ طَرَفُهَا الْأَعْلَى بِعَظِيمٍ مِنَ عُظَمَاءِ النُّفُوسِ، أَوْ شَرِيفٍ مِنْ شُرَفَاءِ الْأَخْلَاقِ.

ثم ما زال الناسُ يعبثونَ بعُنْوَانِ الشَّرْفِ، وَيَتَوَسَّعُونَ فِي مَعْنَاهُ، حَتَّى نَظَّمُوا فِي سَلِكِهِ الْجَبَابِرَةَ الَّذِينَ يُسْمَوْنَهُمْ أَمْرَاءَ، وَالظُّلْمَةَ الَّذِينَ يُسْمَوْنَهُمْ مُلُوكًا، وَالسَّفَاحِينَ الَّذِينَ يُسْمَوْنَهُمْ قُوَادًا، وَاللُّصُوصَ الَّذِينَ يُسْمَوْنَهُمْ أَغْنِيَاءَ. فَسَاقَهُمُ الْخَطَأَ فِي فَهْمِ الشَّرْفِ إِلَى الْخَطَأِ فِي فَهْمِ الْمَجْدِ؛ فَسَمُّوا مَا جَدًّا كُلِّ مَنْ وُلِدَ فِي فِرَاشِ مَلِكٍ وَإِنْ كَانَ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ، أَوْ أَمِيرٍ وَإِنْ كَانَ الْحَجَّاجَ، أَوْ وَزِيرٍ وَإِنْ كَانَ ابْنَ الزِّيَاتِ، أَوْ قَائِدٍ وَإِنْ كَانَ تَيْمُورَ لَنْكٍ، أَوْ غَنِيٍِّّ وَإِنْ كَانَ قَارُونَ.

لَا مَجْدَ إِلَّا مَجْدَ الْعِلْمِ، وَلَا شَرْفَ إِلَّا شَرْفَ التَّقْوَى، وَلَا عَظَمَةَ إِلَّا عَظَمَةَ الْآخِذِينَ بِيَدِ الْإِنْسَانِيَةِ الْمَعْدِيَةِ، رَحْمَةً بِهَا وَحَنَانًا عَلَيْهَا.

أَوْلَيْكَ هُمُ الْأَمْجَادُ، وَأَوْلَيْكَ الَّذِينَ يَفْخَرُ الْفَاخِرُ بِالِاتِّصَالِ بِهِمْ، وَالِاتِّمَاءِ إِلَيْهِمْ، وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ.

الأغنياء:

لَمْ أَرِ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُتَسَوِّلِينَ الَّذِينَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ وَرَاءَ لُقْمَةَ يَتَبَلَّغُونَ بِهَا أَوْ خِرْقَةَ يَتَّقُونَ بِهَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ^(١)، وَهَبَّةَ النَّكْبَاءِ، وَلَا بَيْنَ الْبُؤْسَاءِ الَّذِينَ يَحْرَقُونَ فَحْمَةَ اللَّيْلِ بُكَاءً وَنَحِيْبًا عَلَى صِغَارِ كِفْرَاخِ الْقَطَا^(٢)، يَتَلَوْنَ فِي مَضَاجِعِهِمْ مِنَ الْجُوعِ تَلَوِّيَ الْأَفَاعِي الْمَضْطَرِبَةِ فَوْقَ الرَّمَالِ الْمُتَلْتَهَبَةِ وَتَحْتَ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ، أَسْوَأَ حَالًا وَلَا أُنْكَدَ عَيْشًا، وَلَا أَعْظَمَ شَقَاءً مِنْ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ يُسَمِّيهِمُ النَّاسُ أَغْنِيَاءَ.

يَأْكُلُ الْمَوْسِرُ الْبَاخِلُ كَمَا يَأْكُلُ الْفَقِيرُ، وَيَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ، وَيَنَامُ كَمَا يَنَامُ، وَيَسْتَهِي كَمَا يَسْتَهِي حَتَّى لَتَكَادُ تَشْبُ أَمْعَاؤُهُ مِنْ جَوْفِهِ وَتَسِيلُ أَحْشَاؤُهُ مِنْ بَيْنِ أَسْدِقَائِهِ،

(٢) القطا: نوع من الطير يشبه الحمام.

(١) الرمضاء: شدة الحر.

شوقاً إلى ما حَرَمَ على نفسه من أطيب العَيْشِ وَلَذَائِذِهِ وَيَسْتَنُّ^(١) اسْتِنَانَ الجِوَادِ الضَامِرِ فِي مِيدَانِ السَّبَقِ وَرَاءَ الدَّرْهِمِ البَعِيدِ مَنَالُهُ، حَتَّى تَنْبَهَرَ أَنْفَاسُهُ، وَتَتَخَاذَلَ أَوْصَالُهُ، حَتَّى لَوْ تَخَيَّلَ أَنَّ نَجْمَ السَّمَاءِ دَنَانِيرٌ مَنثورَةٌ، لَطَارَ إِلَيْهَا بغيرِ جَنَاحٍ، فَسَقَطَ هَاوِيًا، أَوْ أَنَّ فِي بطنِ الأَرْضِ كَنْزًا مَذْخُورًا، لَتَمَنَّى أَنْ لَوْ انْفَجَرَ بُرْكَانُهَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فابْتَلَعَتْهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الهالكينَ.

الغنيُّ هُوَ الغَنِيُّ بِمَا فِي يَدِهِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَالْفَقِيرُ هُوَ الَّذِي لَا يُقْنِعُهُ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ مَقْتَعٌ، وَلَا تَقْفُ بِهِ نَفْسُهُ عِنْدَ مَطْمَعٍ.

فَانظُرْ تَحْتَ أَيِّ عُنْوَانٍ مِنْ هَذِينَ العُنْوَانِينَ تَضَعُ البُخْلَاءُ المُوسِرِينَ!؟

المجرمون:

حَضَرْتُ مَجْلِسًا مِنْ مَجَالِسِ الأحكامِ، حَكَمَ فِيهِ قاضٍ مُرْتَشٍ عَلَى مُتَّهَمٍ سَرَقَ رَغِيْفًا، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى فَمِي مَخَافَةً أَنْ يَخْرُجَ أَمْرٌ نَفْسِي مِنْ يَدِي فَأَهْتَفْتُ صَارِخًا لِمَا أَلَمَ بقلبي مِنَ الرُّعبِ والفَزَعِ صرِخَةً تُدَوِّي بِهَا جِوَانِبُ القَاعَةِ دَوِيَّ المِوَجِ النَّائِرِ، فِي البَحْرِ الزَّاخِرِ قَائِلًا فِيهَا: مَهْلًا رُويْدًا أَيُّهَا الحَاكِمُ الظَّالِمُ، فَأَنْتَ إِلَى قاضٍ عَادِلٍ تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَى كُرْسِيِّ فَحْمٍ تَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَلَوْ عَدَلَ القَانُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ هَذَا المَائِلِ بَيْنَ يَدَيْكَ لَبِثَ وَأَعْلَاكُمَا الأَسْفَلُ.

إِنَّكَ تَرْتزِقُ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثِينَ دِينَارًا، فَلَمْ تَرْتَشْ إِلَّا لِأَنَّكَ شَرُّ طَمَاعٍ، وَلَمْ يَسْرِقْ ذَلِكَ السَّارِقُ الرَغِيْفَ إِلَّا لِأَنَّهُ جَائِعٌ مُرْتَاغٌ. وَلَوْ مَلَكَ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا فَقَطُّ مَا فَعَلَ فَعَلْتَهُ الَّتِي فَعَلَ. فَأَنْتَ مُجْرِمٌ إِلَّا أَنَّكَ فِي وَشَاحٍ شَرِيفٍ، وَهُوَ شَرِيفٌ إِلَّا أَنَّهُ فِي شِمْلَةٍ مُجْرِمٍ.

فِيالهِ لِلحَقِيقَةِ الَّتِي عَبَّثَتْ بِهَا القَوَانِينُ، وَلَعَبَّتْ بِعُقُولِ النَّاسِ فِيهَا العُنَاوِينُ.

رُبَّ نَفْسٍ بَيْنَ جُدْرَانِ السَّجُونِ أَطَهَرَ قَلْبًا، وَأَنْقَى رُذْنًا^(٢)، وَأَبْيَضَ عَرَضًا، مِنْ مِثْلِهَا بَيْنَ جُدْرَانِ القُصُورِ. وَرُبَّ طَرِيدَةٍ مِنْ طَرَائِدِ المَجْتَمَعِ الإِنْسَانِيِّ سَاقَهَا القَدْرُ الَّذِي يَنْصَبُ حِبَالَةَ مَالِهِ لِخَرَابِ البُيُوتِ العَامِرَةِ، وَقَتَلَ النَفُوسَ الطَاهِرَةَ، أَوْ ذَلِكَ القَائِدُ الَّذِي يَسْفِكُ فِي مَوْقِفٍ وَاحِدٍ مِنْ مَوَاقِفِهِ دَمَ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فِي غَيْرِ سَبِيلِ سِوَى سَبِيلِ المِجْدِ المِصْنُوعِ وَالْفَخْرِ المَوْضُوعِ، أَوْ ذَلِكَ السِّيَاسِيُّ الَّذِي يُدَبِّرُ المَكِيدَةَ لِلقَضَاءِ عَلَى

(٢) رُذْنًا: نَوْبًا.

(١) اسْتِنَ الجِوَادُ: عَدَا عَدُوًّا شَدِيدًا.

أُمَّة ضَعِيفَةٌ أَمِينَةٌ فِي سِرِّبِهَا، سَعِيدَةٌ فِي عَيْشِهَا؛ فَيَسْتَعْبُدُ أَحْرَارَهَا، وَيَسْتَذِلُّ أَعْرَاءَهَا، ثُمَّ يَسْلُبُهَا أَمْنًا مَا تَمْلِكُ يَمِينُهَا مِنْ حَرَّتِهَا وَاسْتِقْلَالِهَا، وَسَعَادَتِهَا وَهَنَاءَتِهَا.

المتمددينون:

ليس بين المصري وبين أن يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب العصري أو الإنسان الرّاقى إلا أن يصفّل جهته، ويصفّف طرّته، ويفتح فمه للابتسام المتصنّع ويقوّس يده للسلام المتعمّل، ويكثر في حديثه من ذكر المدينة وشؤونها، وسرد أسماء نساؤها ورجالها، وطرفها ونواديرها، ويستحسن ما تستحسنه - وإن كان البراز والاتجار - ويستطرف ما تستطرفه - وإن كان الزندقة والإلحاد - ثم يزعم أنه أرقى الناس أدبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأدقهم نظرًا في إدراك سقّات الناس وعثراتهم، وتحليل طباعه وغرائزهم. ثم لا يحول تمدّنه هذا بينه وبين أن يكون فاسقًا يتهك الحرمات، أو مُدمنًا يترامى على أعتاب الحانات، أو أحمق لا يصفح عن ذنوب، ولا يُغضّي عن هفوة، أو سفيفها يشتم حتى أميره وسُلطانَه، والدة وأستاذَه، أو وقّاح الوجه لا يستحي لمكرمة، ولا يستخذي لمروءة، أو شحيحًا لا يشرك صاحبه في مطعم ولا في مشرب، ولا يفتح بابه لضيف زائر أو طارق حاشر، زاعمًا أن التمدّين شيءٌ وذاك شيءٌ آخر.

إن كان حقًا ما يقولون من أن التمدّين يصفّل الطباع الخسنة، ويغير النفوس المظلمة، ويهدّب الأخلاق الجافية ويوسع الصدور الحرّجة، فكثير ممن ندعوهم مُتَمَدِّينَ مُتَوَحِّشُونَ، وكثير ممن نسّمهم همجيين مهذبون.

لو كان بي أن أكتب لمحو الفساد من المجتمع الإنساني والقضاء على شروره وأثامه لما حرّكت يدا، ولا جرّدت قلما؛ لأنني أعلم أن طلب المجال عثرة من عثرات النفوس، وضلة من ضلالات العقول. ولكنني أطلب مطلبًا واحدًا - لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوّره وإدراكه - هو أن يهدّبوا قليلًا من هذه المصطلحات التي أسسوا بها والعناوين التي جمّدوا عليها، فلا يسّمون المنافق تقيًا، ولا المتّمجّد ماجدًا، ولا البخيل غنيًا، ولا الفقير مُجرّمًا، ولا المتوحّش مُتَمَدِّينًا، حتى لا يتزعّج محسن عن إحسانه، ولا يستمرّ مُسيء في إساءته.



الإغراق



بين الإغراق في المدح والإغراق في الذمّ تموت الحقيقة مؤثماً لا حياة لها من بعده إلى يوم يُبعثون. ■

يسمّع السامع أنّ زيداً ملكٌ كريمٌ، ثم يسمّع أنه شيطانٌ رَجِيمٌ، فيخرج منه صِفَرُ اليدَيْنِ، لا يعلم أين مكانه من هذين الطّرفين.

يقولون إن المشعوذين إذا أرادوا أن يسحروا أعين الناس علّقوا في سقف من السقوف قطعة من المغناطيس ووضعوا مقابلها في الأرض قطعة أخرى ثم يتركون في الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تُضطرب بين هذين الجاذبين.

هكذا تُضطرب الحقيقة في أيدي المغرّقين اضطراب الحديد في أيدي المشعوذين. الحقيقة بين الكاذب والكاذب كالجبل بين الجاذب والجاذب، كلاهما ينتهي به الأمر إلى الانقطاع.

لو علم الذي ينصب نفسه للموازنة بين الأشخاص أنه جالس على كرسي القضاء، وأن الناس سيسألونه عمّا قال، كما يسألون القاضي عمّا حكّم، ما طاش سهمه في حكمه، ولا ركب متن الغلوّ في تقديره.

كما أنه يجب على القاضي أن يُقدّر لكل جريمة ما يُناسبها من العقوبة، كذلك يجب على الكاتب أن يضع كل شخص في المنزلة التي وضعته فطرته فيها، وأن لا يعلو به فوق قدره، ولا ينزل به دون منزلته.

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ القديم مُناقضات الحكم على الأشخاص، وليس بينهم من لم يتمن أن يكون في موضع أولئك المؤرّخين المتطرّفين، حتّى لا يعلو غلّوهم، ولا يتطرّف نظرهم في أحكامهم.

أيها الكتاب المحزونون، لا يُحزنكم ما كان، فقضى ذلك الزمان بخيره وشره، ولا سبيل إلى رجوعه، وإن فاتكم أن تكونوا مؤرّخي العصر الماضي فلن يفوتكم أن تكونوا مؤرّخي العصر الحاضر. وكما أن للماضي مستقبلاً وهو حاضرٌكم هذا،

فسيكون لهذا الحاضر مُستقبل آتٍ يحاسبُكم فيه رجاله على إغراقكم في أحكامكم، كما تُحاسبون اليوم رجال الماضي على غلوهم في أحكامهم، وتطرّفهم في آرائهم. إن من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم أن تنقموا من المؤرّخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون.

كلُّ كاتبٍ عندكم أكتب الكتاب، وكلُّ شاعرٍ أشعر الشعراء، وكلُّ مؤلّفٍ أعلم العلماء، وكلُّ خطيبٍ رئيس الأمة، وكلُّ فقيهٍ إمام الدين، فأين الفضل والمفضول؟! وأين الرئيس والمرءوس؟! وكيف يكون زيد اليوم أفضل من عمرو، ويكون عمرو غداً أفضل منه؟! وأين ملكة التمييز التي وهبكم الله إياها لتُميّزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم؟! وهل بلغ التفاوت بينكم في عقولكم وأدواقكم أن يكون الرجل الواحد في نظر بعضهم خير الناس وفي نظر البعض الآخر شرّ الناس!؟

إني حسّنت الآن قلّمي عن الكتابة؛ لتجرّد من نفسي ساعة من الزمان، فتخيّلتُ كأني رجلٌ من رجال العصور الآتية، وأني ذهبتُ إلى دارٍ من دُور الكُتب القديمة؛ لأراجع تاريخ أحد عظماء عصركم هذا، فقرأتُ ما كتبتُموه عنه في كُتُبكم وجرائدكم، فرأيتُه تارةً عظيمًا وأخرى حقيرًا، ومرّةً شريفًا، ومرّةً وضيعًا، ورأيتُه عالمًا وجاهلًا، وذكيًا وغبيًا، وعاقلاً وممروزًا^(١) في آن واحد. فخرجتُ أضلّ ممّا دخلتُ، لا أعرف من تاريخ الرجل أكثر من أنه رجلٌ، أي أنه ذكّرٌ بالغٍ من بني آدم!

أيها القوم، إنكم لا تستطيعون أن تكونوا رجالاً عادلين في أحكامكم وآرائكم، إلا إذا أصلحتُم نفوسكم أولاً، وتعلّمتم كيف تستطيعون أن تتجرّدوا من أهوائكم وأغراضكم قبل أن تتناولوا أعلامكم.

أيها القوم، إن عجزتُم عن أن تكونوا عادلين فكونوا راحمين، فأرحموا أنفسكم واغفوها من الدُخولِ في مازق أنتم عاجزون عنها، وارحمونا فقد ضاقت صدورنا بهذه التناقضات، وسئمّت نفوسنا تلك المبالغات.



(١) الممروز: المصاب بخبل في عقله وهو المجنون.

اللقیطة



مَرَّ عَظِيمٌ مِنْ عَظَمَاءِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ بِزِقَاقٍ مِنْ أَرْقَةِ الْأَحْيَاءِ الْوَطَنِيَّةِ فِي لَيْلَةٍ مِنْ لِيَالِي الشِّتَاءِ ضَرِيرٌ^(١) نَجْمُهَا، حَالِكٌ ظِلَامُهَا، فَرَأَى تَحْتَ جِدَارٍ مُتَدَاعٍ فِتَاةً صَغِيرَةً فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهَا جَالِسَةً الْقَرْفُصَاءَ^(٢) وَقَدْ وَضَعَتْ رَأْسَهَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهَا اتِّقَاءً لِلبُرْدِ الَّذِي كَانَ يَبْعَثُ بِهَا عَبَثَ النُّكْبَاءِ بِالْعُودِ، وَلَيْسَ فِي يَدَيْهَا مَا تَتَّقِيهِ بِهِ إِلَّا أَسْمَالَ تَرَاوَى مَرْقَهَا^(٣) فِي جِسْمِهَا الْعَارِي كَأَنَّهَا آثَارُ سَيَاطِ الْمُسْتَبِدِّينَ فِي أَجْسَامِ الْمُسْتَعْبَدِّينَ.

وَقَفَّ الرَّجُلُ أَمَامَ هَذَا الْمَشْهَدِ الْمَحْزَنِ الْمُوَثِّرِ وَقَفَّةَ الْكَرِيمِ الَّذِي تَوَلَّمُهُ مَنَاطِرُ الْبُؤْسِ، وَتَزَعَجَ نَفْسَهُ مَوَاقِفُ الشَّقَاءِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ نَحْوَهَا وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَاتِقِهَا بِزَفَقٍ فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا مُرْتَاعَةً^(٤) مَذْعُورَةً وَهَمَّتْ بِالْفِرَارِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَهِيَ تَصِيحُ: «لَا أَعُودُ.. لَا أَعُودُ». فَلَمْ يَزَلْ يَمَسِّحُهَا^(٥) وَيُرَوِّضُهَا حَتَّى هَدَأَ رَوْعَهَا وَعَادَ إِلَيْهَا رُشْدَهَا، وَعَلِمَتْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بَيْنَ يَدَيْ الرَّجُلِ الَّذِي تَخَافُهُ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ نَظْرَةً لَوْ أَنَّهَا اتَّصَلَتْ بِلِسَانٍ نَاطِقٍ وَفَمٍ لَحَدَّثَتْ عَمَّا وَرَاءَهَا مِنْ لَوَاعِجِ الْأَحْزَانِ وَكَوَامِينِ الْأَشْجَانِ.

- مَا اسْمُكَ أَيُّهَا الْفِتَاةُ؟

- لَا أَعْلَمُ يَا سَيِّدِي.

- بِمَاذَا يُنَادُونَكَ؟

- يَدْعُونَني اللَّقِيطَةَ.

- وَهَلِ أَنْتِ لَقِيطَةٌ كَمَا يَقُولُونَ؟

نعم يا سيدي؛ لأنني لا أعرفُ لي أبًا ولا أمًّا، في الأحياء ولا في الأموات، سوى رجل يتولى شأني، ويضمُّني إليه في منزله، وكنتُ أحسُّهُ أبي فيمتلئُ قلبي سُورًا به،

(١) ضَرِيرٌ نَجْمُهَا: مَظْلَمٌ لَا ضَوْءَ فِيهِ.

(٢) الْقَرْفُصَاءُ: أَنْ يَحْتَبِي الرَّجُلُ بِيَدَيْهِ فَيَضَعُهُمَا عَلَى سَاقَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ.

(٣) الْمَرْقُ: الْقَطْعُ، وَالْمَعْنَى أُنُوبٌ مَمْرُقَةٌ. (٤) مُرْتَاعَةٌ: خَائِفَةٌ.

(٥) يَمَسِّحُهَا: يَمُرُّ يَدُهُ عَلَيْهَا.

وَعَطْفًا عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ يُعَذِّبُنِي عَذَابًا أَلِيمًا وَيُحَمِّلُنِي مِنْ أَنْقَالِ الْحَيَاةِ وَأَعْبَائِهَا مَا لَا يَحْمَلُهُ الْآبَاءُ أَبْنَاءَهُمْ عَلِمْتُ أَنِّي وَحِيدَةٌ فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَفَهَّمْتُ مَعْنَى الْكَلِمَةِ الَّتِي يُنَادِينِي بِهَا؛ فَأَلَمْتُ بِنَفْسِي مِنَ الْحُزْنِ وَالْأَلَمِ مَا اللَّهُ عَالِمٌ بِهِ.

وَكُنْتُ كُلَّمَا مَشَيْتُ فِي الطَّرِيقِ، وَرَأَيْتُ فِتْنَةً صَغِيرَةً سَأَلْتُهَا: أَلَيْكَ أُمٌّ؟ فَتَجِبَنِي: نَعَمْ، ثُمَّ تَقْصُّ عَلَيَّ مِنْ قِصَصِ نِعَمَتِهَا وَرَفَاهِيَّتِهَا، وَعَطْفِ أُمِّهَا عَلَيْهَا، وَرَأْفَتِهَا بِهَا مَا يَرِيدُنِي هَمًّا، وَيَمَلَأُ قَلْبِي بِأَسَا؛ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّنِي أَذُنْتُ قَبْلَ وُجُودِي فِي هَذَا الْعَالَمِ ذَنْبًا عَاقَبَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَذَا الْوُجُودِ بِيَدِ أَنِّي صَبَرْتُ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ، وَعَلَى مَا كَانَ يُكَلِّفُنِي بِهِ مِنَ التَّسْوِيلِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ إِبْقَاءً عَلَى نَفْسِي، وَضَنًّا بِحَيَاتِي أَنْ تَغْتَالَهَا غَوَائِلُ الدَّهْرِ، وَكَانَ كُلَّمَا رَأَى حَاجَتِي إِلَيْهِ وَإِلَى مَأْوَاهُ، اسْتَطَّ فِي ظِلْمِي، وَلَوْمْ فِي مُعَامَلَتِي، حَتَّى صَارَ يَضْرِبُنِي ضَرْبًا مُبَرِّحًا كُلَّمَا عَدْتُ إِلَيْهِ عِشَاءً بِأَقْلٍ مِنَ الْمَبْلَغِ الَّذِي فَرَضَ عَلَيَّ تَقْدِيمَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ.

وَلَمْ أَزَلْ أَصَابِرُهُ وَأَحْتَمِلُ مِنْهُ مَا يَعْجِزُ عَنْ احْتِمَالِهِ مِثْلِي بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ، حَتَّى جَاءَنِي اللَّيْلَةُ بِدَاهِيَةِ الدَّوَاهِي، وَمُصِيبَةِ الْمَصَائِبِ، فَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ يَسْلُبَ مِنْ بَيْنِ جَنْبِي جَوْهَرَةَ الْعِفَافِ الَّتِي لَمْ يَبْقَ فِي يَدِي مَا يُعَزِّينِي عَمَّا فَتَدَتْهُ مِنْ هِنَاءَةِ الْحَيَاةِ وَنِعْمِيمِهَا سِوَاهَا، فَلَمْ أَرِ بُدْءًا مِنْ أَنْ أَفِرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مُتَسَلِّلاً تَحْتَ جَنَحِ الظَّلَامِ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَانِي. وَمَا زِلْتُ أَمْشِي عَلَى غَيْرِ هُدًى، لَا أَعْرِفُ لِي مَذْهَبًا وَلَا مُضْطَرِبًا، حَتَّى أُوِيْتُ إِلَى هَذَا الرِّزَاقِ كَمَا تَرَانِي. فَهَلْ لَكَ يَا سَيِّدِي أَنْ تُحَسِّنَ إِلَيَّ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ؟! وَأَنْ تَبْتَاعَ لِي رَغِيْفًا مِنَ الْخَبْزِ أَتَبَلَّغُ بِهِ، فَقَدْ مَرَّ بِي يَوْمَانِ لَمْ أَذُقْ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا؟

لَمْ يَسْمَعْ الرَّجُلُ مِنَ الْفِتْنَةِ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْمُحْزَنَةَ حَتَّى اسْتَقْبَلَهَا بِدُمُوعٍ حَارَّةٍ تَنْحَدِرُ عَلَى خَدَيْهِ انْحِدَارَ الْعِقْدِ وَهِيَ سَلَكُهُ فَانْتَثَرَتْ، ثُمَّ أَخَذَتْ بِيَدَيْهَا، وَمَشَى بِهَا صَامِتًا وَاجْمًا يَكَادُ لَا يَهْتَدِي لِسَبِيلِهِ حَتَّى بَلَغَ قَصْرَهُ. وَهُنَاكَ صَنَعَ بِهَا صُنْعَ الْكَرِيمِ بِأَهْلِهِ، وَأَبْلَغَهَا مِنْ دَهْرِهَا مَا لَمْ تَكُنْ تُنَمِّي نَفْسَهَا بِالْوَسْلِ^(١) الْقَلِيلِ مِنْهُ.

وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى ظَهَرَتْ فِي ذَلِكَ الْقَصْرِ الْعَظِيمِ فِتْنَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ أَجْمَلِ الْفِتْيَاتِ وَجْهًا، وَأَرْقَهْنَ شَمَائِلًا.. وَأَكْرَمِهِنَّ أَخْلَاقًا، وَأَكْمَلِهِنَّ آدَابًا.. لَا يَعْرِفُ النَّاسُ عَنْهَا سِوَى أَنَّهَا ابْنَةُ قَرِيبٍ لِمُصَاحِبِ الْقَصْرِ مَاتَ عَنْهَا وَخَلَفَهَا يَتِيمَةً، فَكَانَ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ مَصِيرُهَا.

(١) الْوَسْلُ: الْقَلِيلُ مِنَ الشَّيْءِ.

وكان لصاحب هذا القصر فتاة من الفتيات اللواتي ربين التربية الحديثة التي يُسمونها «التربية العصرية» ويريدون منها التربية الأفرنجية، فكانت كل ما حصلت من العلوم والمعارف والفنون.

- ١- الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجي، وكلبها الرومي.
- ٢- الولوع بمظالعة الروايات الغرامية الفاسدة.
- ٣- البراعة في معرفة أي الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للنفوس.
- ٤- الكبرياء والعظمة، واحتقار كل مخلوق سواها حتى أبويها.
- ٥- الأثرة وحُب الذات حُبًا يملأ قلبها غيرة وحسدًا؛ حتى إنها لا تستطيع أن تسمع وصفًا من أوصاف الحُسن يُوصفُ به سواها.

رأت هذه الفتاة اللقيطة قد أصبحت تُقاسمها قلب أبيها وقلوب زائراتها من النساء بما وهبها الله من جمال في الخلق، وحلاوة في الطبع، وعذوبة في النفس، فأضمرت لها في قلبها من البُغض والمُوجدة ما يُضمره دائمًا أمانلها من اللواتي ربين تربيتها، ونهجن في الحياة منهنجها؛ فكانت تتعمد إساءتها وازدراءها، وتغري بتبكيها وتأنيبها، والفتاة لا تُبالي بشيء من هذا وفاء لسيدها وولي نعمتها، وذهابًا بنفسها عن النزول إلى منزلة من يغضب لمثل هذه الهنات، حتى حدثت ذات يوم الحادثة الآتية:

دخَلَ صاحب القصر قصره ليلة من الليالي، فبينما هو صاعد في السلم إذ عثر برقعة ملقاة، فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة:

سيدتي..

أنا منتظرُك عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السرو المعهودة.

«حبيبك»

فما أنتم الرجل قراءة الرقعة حتى دارت به الأرض الفضاء، وحتى لمس قلبه يمينه؛ ليعلم هل طار من مكانه أم لا يزال باقيًا فيه، ثم كأنه أراد أن يخفف ما ألمّ بنفسه من الحزن والقلق فقال: لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقيطة، ومن الظلم أن أتعجل باتهام ابنتي قبل أن أقف على الحقيقة.

فَنظَرَ في ساعته فإذا الساعة قريبة، فَرَجَعَ أدراجهُ، وما زال يترفق في مشيته ويتنقل

في الحديقة من شجرة إلى شجرة حتى وصل إلى شجرة اللقاع، فكمن وراءها ينتظر ما خبأ له الدهر من حدثانه، وما أضمر له الغيب في طياته.

لم تكن الرسالة رسالة الفتاة الوضیعة، بل رسالة السيدة الشريفة. وبينما كانت الثانية واقفة في غرفتها أمام مرآتها تختار لنفسها أجمل الأزياء وألحفا بموقف اللقاع، كانت الأولى نائمة في غرفتها نومًا هادئًا مطمئنًا لا تزججه زورة الطيف، ولا ترؤعه أحلام الشباب، حتى سمعت وقع أقدام سيدها على سلم القصر فاستيقظت. ثم رابها موقفه فأشرفت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفت كل شيء... وعرفت أن سيدها سيقف على سر ابنته الذي كانت تعالج كتمانته زمنا طويلا.. وأنه لا بد قاتل نفسه في ذلك الموقف حزنا وبأسا.. فغناها من أمره ما عناها، ثم أطرقت برأسها لحظة تتلمس وجه الحيلة في دفع هذه النازلة، وتتطلب المخرج منها، ثم رفعت رأسها، وقد قررت في نفسها أمرا.

نزلت مسرعة من سلم القصر، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر إلى ذلك الموعد فأدركتها، وأمسكت بطرف ثوبها فارتاعت الفتاة والتفت إليها وقالت لها: ماذا تريد مني؟ أنتجسسين علي؟! قالت لها: لا يا سيديتي.. وأفضت إليها بالقصة من مبدئها إلى منتهها.. فسقط في يدها، وعلمت أن أباه قد وقف على سرها، فقالت لها: لا تزججي نفسك، فإن أبك لا يعلم أننا صاحبة الكتاب، فعودي إلى غرفتك، وسأذهب إلى الموعد مكانك، حتى إذا رأني هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك في أمرك.

ثم استمرت أدراجها حتى وصلت إلى تلك الشجرة، وهناك برز الرجل من مكمنه، واقترب منها حتى عرفها، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته، ثم قال لها: أيتها الفتاة إنني أحسنت إليك، واستنقذتك من يد البؤس والشقاء، فأسأت إلي بما فعلت، حتى كدت الليلة أهلك حزنا وكمدًا، وألصق بابتي ذنبك وأحمل عليها عارك، فاخرجي من منزلي، فاللثيم ليس أهلا للإحسان.

فخرجت خائبة تتعثر في أذيالها، حتى وصلت إلى شاطئ النهر، وهناك أخرجت مذكرتها من محفظتها، وكتبت فيها آخر كلمة خطتها أناملها:

«أحمد الله أنني قدرت على مكافأة الرجل الذي أحسن إلي بسره عاره، وإزالة هممه

وحزنه».

ثم أَلَقْتُ بنفسِها في النهر، وما هي إلا دورة أو دورتان حتى افتَرَقَ ذَانِكَ الصديقانِ الوفيَّانِ، جسمُها وروحُها، فطفاً منهما ما طفا، ورسبَ ما رسبَ.

وفي صباح تلك الليلة عَثَرَ رجالُ الشرطةِ بجثةِ الفتاةِ الشهيدةِ فَعَرَفُوهَا، وعادُوا بها إلى مَنْزِلِ سَيِّدِهَا.. فبَكَاهَا بكاءً كَثِيراً ونَدِمَ على ما أساءَ به إليها من طَرْدِهَا وإزعاجِهَا، ثم أمرَ بِدَفْنِهَا، ولم يَبْقَ في يده من آثارها غيرُ حَقِيقَتِهَا.

مَرَّتِ الأيامُ تَلَوُّ الأيامِ، وجاءتِ الحوادثُ إثرَ الحوادثِ، وظَهَرَ للرجُلِ من أخلاقِ ابنتِهِ وطِبَاعِهَا، وَتَهْتِكِهَا واستهتارِهَا ما لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ مِن قَبْلُ، حتى ضاقَ بِأمرِهَا دَرْعاً، وَجَلَسَ في عُرفِتهِ في إحدى الليالي يفكرُ فيما ساقَ إليه الدهرُ من خطوبِهِ ورزايَاةٍ، ثمَّ أَلَمَ به الضجرُ، فقامَ إلى صندوقِهِ يفتشُ عن شيءٍ يَتَلَهَّى به، فَعَثَرَ بتلكِ الحَقِيقَةِ، ولم يَكُنْ قَدْ فَتَحَهَا قَبْلَ اليومِ. فإنه ليقرأ إذا عَثَرَ بتلكِ الكلمةِ الأخيرةِ التي كَتَبَتْهَا الفتاةُ على شاطئِ النهرِ قَبْلَ مَوْتِهَا، فما أتى على آخرِها حتى عَرَفَ كلَّ شيءٍ فَسَقَطَ مَغْشِياً عليه يعالجُ مِنَ الحزنِ والألمِ ما يعالجُ المُحْتَضِرُ مِن سكراتِ الموتِ.

وما استفاقَ مِن غَشِيَّتِهِ حتى صارَ يَهْدِي هذياناً المحمومِ، وَلَبِثَ على هذه الحالِ بضعةَ أشهرٍ، يمرضُ ثم يُبَلِّ، ثم يمرضُ ثم يُبَلِّ، حتى أدرَكَتُهُ رحمةُ اللهِ فمرضَ مَرَضاً لم يَنْقُضْ إلا بانقِضَاءِ أَجَلِهِ.

فيا أيها الوالدُ المجهولُ، الذي قَدَفَ بتلكِ الفتاةِ البائسةِ في بحرِ هَذَا الوجودِ الزاخرِ، أَعْلِمْتِ قَبْلَ أن تَفْعَلِ فِعْلَتِكَ أنكِ سَتُبْرَزُ إلى هذا العالمِ فَناءً تُلَاقِي شِقَاءَهُ وآلامَهُ ما لا قَبْلَ لها باحتمالِهِ!؟

ويا أيها الآباءُ العُظماءُ، إن كنتم تريدونَ أن تُسَلِّمُوا بناتِكُمْ إلى هذه المَدِينَةِ الغريبةِ تتولَّى شَأْنَهُنَّ، وتكفُلَ لَكُم تَرْبِيَتَهُنَّ، فانتزعوا مِن جُنُوبِكُمْ قَبْلَ ذلكِ غرائزَ الشهامَةِ والعِزَّةِ والإباءِ والآنْفَةِ، حتى إذا رزَأَكُم الدهرُ فيهنَّ، وَفَجَعَكُم في أعراضِهِنَّ وقَفْتُم أمامَ ذلكِ المشهدِ هادئينَ مُطمَئنينَ لا تَتَعَدَّبُون، ولا تَتَأَلَّمُون.

ويا أيها الناسُ جميعاً؛ لا تحفلوا بعدَ اليومِ بالأنسابِ والأحسابِ، ولا تُفَرِّقُوا بينَ تربيةِ الأكواخِ وتربيةِ القُصورِ، ولا تَعْتَقِدُوا أن الفضيلةَ وَقَفَّ على الأغنياءِ وَحَبَائِصُ على العُظماءِ، فقد علمتُم ما أضمَرَّ الدهرُ في طَيَّاتِ أحداثِهِ مِن رذائلِ الشرفاءِ وَفَضائلِ اللُّقطاءِ.



الصدوق



حضرة السيد الفاضل:

يوجد في ضريح السيّد البدويّ صندوقٌ توضع فيه التُّذُورُ، ويبلغُ مجموعُها في العام نحوَ سِتَّةِ آلافِ جنيه، فإذا فتح ذلك الصندوق يختصُّ بعضُ الخلفاءِ بأخذِ نحوِ الرُّبْعِ ممَّا فيه، والباقي يُوزَعُ على أصحابِ الأنصبَةِ الكثيرين الذين يُعدُّونَ بالِمئاتِ، فهل ترونَ أنَّ هذه القسمةَ شرعيَّةٌ، معَ أنَّ الذين يأخذونَ الألوْفَ أغنياءُ والذين يأخذونَ الآحادُ فقراءُ؟

أفتنا أيها السيّد الفاضل، بما يُوجِبُه الإنصافُ والعدلُ الديني في هذه المسألة التي أصبحت الشغلَ الشاغلَ للكثير من الناس؟

«ابن جلا»

أيها السائل..

أراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال كأنك تعتقد أنه ميراث شرعي، وأن لهؤلاء الذين تُسميهم أصحاب الأنصبَةِ من الحق في هذا المال مثل ما للوارثين في مال المورثين.

إن الذي أعلمه أن هذا الحق المزعوم حقٌّ مُوهوبٌ، لا يستطيع أن يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية؛ لأن الذين يضعون المال في هذا الصندوق وأمثاله لا يريدون بذلك أن يهبوه أحداً من السدنة والخدم. ولو أن ذلك كان غرضهم لوضعوه في أيديهم بدلاً من الصندوق. ولكنهم لما تصوّروا أن ذلك الميت حيٌّ في قبره يسمع نجواهم، ويفهم حديثهم، ويلبّي دعاءهم، تجسّم في نظرهم هذا الخيال، فأرادوا أن يعطوه جميع أحكام الأحياء وصفاتهم حتى حب المال وادّخاره، فخيّل إليهم أن الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحي، فهم يهبونه المال ويضعونه في صندوقه؛ لأنهم يعجزون عن وضعه في يده.

أما كيفية تصرف الميت بهذا المال، وكيف يُنفقهُ وفي أي شيء يُتفَع به، فذلك أمرٌ لا يخطرُ بالبال، ولا يدخلُ في بابِ مقصدهم وأغراضهم.

فإن وُجدَ بينهم مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مرجعَ هذا المالِ إلى سَدَنَةِ الضَّرِيحِ، وَخَدَمَتِهِ فَعِلْمُهُ هذا لا يُستفادُ منه أن يَهَبَهُ لَهُمْ، أو يَمْنَحَهُ إياهم؛ لأنهم لو أرادوه على أن يُعطيَهُمْ ذلكَ المالَ، أو يُعطيَهُمْ بعضَه وَيَسْتَبقي لِنَفْسِهِ البَعضَ الباقِي، لَمَّا وَسَعَهُ ذلكَ ولا رأى إن فَعَلَهُ أن عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا.

بل هو يَعْتَقِدُ أن أَخَذَهُمُ المالَ مِنَ الصُنْدُوقِ بعدَ أن يَصْعَهُ فيه أمرٌ لا عَلاقَةَ لَهُ بهِ ولا شَأْنَ لَهُ فيه؛ لأنَّ المالَ قد خَرَجَ مِنْ يَدِهِ إلى صَاحِبِ الضَّرِيحِ، وصَاحِبِ الضَّرِيحِ يَتَصَرَّفُ في مالِهِ كَيْفَ يَشَاءُ.

فهو في جَمِيعِ حالاته وشُؤونه لا يَهَبُ هِبَةً صَحيحةً، ولا يَتَصَرَّفُ تَصَرُّفًا شَرِعيًّا، ولا يَضَعُ صَدَقَةً في مَوْضِعِها، ولا يَطْرُقُ بابًا مِنْ أبوابِ البِرِّ المَسْئُونَةِ.

وعِندي أن مِثْلَ هذا المالِ بعدَ أن خَرَجَ مِنْ يَدِ صَاحِبِهِ إلى غيرِ يَدِ، وانقَطَعَتْ مُلْكِيَّتُهُ الأُولَى مِنْ حَيْثُ لم تَقُمْ مَقَامَها مُلْكِيَّةٌ أُخْرَى، يُعْتَبَرُ مالًا مُهمَلًا، لا صَاحِبَ لَهُ، ولا عَلاقَةَ لأَحَدِ بهِ. وأحْسَنُ الحَالاتِ الشَّرِعيَّةِ والعَقْلِيَّةِ في هذا المالِ أن يُنْفَقَ في مَصَارِفِ الصَّدَقَاتِ التي اعتَبَرها الشارِعُ واعْتَمَدَها، وافتتَحَها بأداةِ الحَضْرِ التي تَمْنَعُ غيرها مِنَ الاِشْتِراكِ مَعَها في حُكْمِها في قولهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60].

فإن كان بَيْنَ هؤُلاءِ المَظْلَمِينَ مِنْ قَلَّةٍ أنصَبَ بِهِمْ في ذلكَ الصُنْدُوقِ ذو حَاجَةٍ داخِلٍ في قِسمِهِ مِنَ الآيَةِ الشَّرِيفَةِ فَلَهُ الحَقُّ في ذلكَ المالِ مِنْ حَيْثُ كونهِ فَقِيرًا مُعَدَمًا كَعامةِ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، لا مِنْ حَيْثُ أنَّهُ صِلَةٌ بِصَاحِبِ الضَّرِيحِ تُسَوِّغُ لَهُ أن يَكُونَ مِنْ ذَوِي الأنصِبَةِ والسَّهامِ في صُنْدُوقِهِ، فإن أمثالَ هذه الصَّلَاتِ والعَلاقِ قَدِ انقَطَعَتْ بانقِطاعِ الجاهِلِيَّةِ الأُولَى. فلا هَيَاكِلَ اليَوْمِ ولا سَدَنَةَ، ولا وَسْطَاءَ ولا شُفَعَاءَ، ولا أَقْرَاطَ تَعْلُقُ في آذَانِ الأصنامِ، ولا عُقُودَ تَقْلُدُ بِها لأَعناقِ الأوثانِ، ولا مالٌ يُوَضَعُ مَعَ المَوتى في قُبُورِهِمْ؛ لِيَتَفَعُوا بِهِ بعدَ بَعثِهِمْ مِنْ مَرادِهِمْ. وإنما الناسُ جَمِيعًا سِوَاءً بَيْنَ يَدِي اللَّهِ

سبحانه وتعالى، لا فضل لأحدٍ منهم على أحدٍ إلا بالتقوى، ولا زُلْفَى لأحدٍ يزْدَلِفُ بها إليه إلا بيقينه وإيمانه، وبرّه وإحسانه. ذلك ما أراه في هذه المسألة، وهذا ما أعتقدُه فيها، ولا أعلمُ إن كنتُ أرضيتُ الناسَ فيما كتبتُ أو أغضبتُ، وإنما أعلمُ أنني أرضيتُ ضميري وخالقي، وحسبي ذلك وكفى.



الغناء العربي



الغناء بقيّةُ خواطر النفس التي عَجَزَ عن إبرازها اللسانُ، فأبرَزَتْها الألحانُ فهو أفصحُ الناطقين لساناً، وأوسَعُهُم بياناً، وأسرَعُهُم نفاذاً إلى القلوب وامتزاجاً بالنفوس، واستيلاءً على العقول، وأخذاً بمجامع الأفتدة. وبيانُ ذلك أن النطقَ ثلاثُ طبقاتٍ تختلفُ درجاتها باختلافِ درجاتِ الإبلاغِ والتأثيرِ فيها، فأدناها النثرُ وأوسطها الشعرُ، وأعلىها الغناء. فلو أن عاشقاً برّحَ به الهجرُ مثلاً فأرادَ أن يبلِّغَكَ بعضَ ما في نفسه من ذلك، فإن قالَ لك: إني مهجورٌ، فحسب، فقد أبلِّغَكَ بعضَ ما في نفسه، وتركَ في قلبك من الأثرِ بمقدار ما تحتملُهُ طبقةُ النثر من التأثير. وإن أنشدك قولَ الشاعر:

فَوَاكِبِدَا مِنْ حُبِّ مَنْ لَا يُحِبُّنِي وَمِنْ زَفَرَاتِ مَا لَهْنُ فَنَاءِ

أَوْ قَوْلِ الْآخَرِ:

كَأَنَّ قَطَاةً عَلِقَتْ بِجَنَاحِهَا عَلَى كَبِدِي مِنْ شِدَّةِ الْحَفَقَانِ

فقد سلَّك بك طريق الخيال، وصوَّر لك خواطرَ نفسه بصورةٍ أوضح من الصورة الأولى، وترك في نفسك أثراً أعظم من الأثر الأول. وإن رفعَ عقيرته وكان يجيدُ التوقيع يتعنى بقولِ القائل:

وَأَرْحَمَتَا لِلْغَرِيبِ بِالْبَلَدِ النَّاحِ مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا

فَارَقَ أَحِبَابَهُ فَمَا انْتَفَعُوا بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَمَا انْتَفَعَا
فَقَدْ صَوَّرَ لَكَ قَلْبَهُ كَمَا هُوَ، وَأَلْمَسَكَ مَوْضِعَ الْأَلَمِ وَالْحَزَنِ مِنْهُ، فَبَلَغَ بِكَ
التأثيرُ مُنتَهَاهُ، وَرَبَّمَا بَكَيْتَ عِنْدَ سَمَاعِهِ حُزْنًا وَرَحْمَةً، وَمَا بَكَيْتَ إِذْ بَكَيْتَ إِلَّا لِأَنَّ
الغناءَ لَمْ يُبْقِ بَقِيَّةً مِنْ خَوَاطِرِ هَذِهِ النَّفْسِ الْقَرِيحَةِ إِلَّا نَطَقَ بِهَا لَكَ وَأَسْمَعَكَ إِيَّاهَا.
وكَمَا أَنَّ الْأَبْيَاتَ قِيُودَ الْمَعَانِي كَذَلِكَ الْأَلْحَانَ قِيُودُ الْأَبْيَاتِ، فَلَا يَزَالُ الْمَعْنَى
مُشَرَّدًا هَاهُنَا وَهَاهُنَا حَتَّى يَحْتَوِيَهُ بَيْتٌ مِنَ الشُّعْرِ، فَإِذَا هُوَ مُسْتَقَرٌّ فِي مَكَانِهِ، ثُمَّ
لَا يَزَالُ الْبَيْتُ يَتَجَانَفُ عَنِ الْأَذَانِ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ، حَتَّى يَقُودَهُ الصَّوْتُ
الْحَسَنُ، فَإِذَا هُوَ مُسْتَوْدَعٌ فِي الصُّدُورِ.

والغناءُ فنٌّ مِنَ فُنُونِ الطَّبِيعَةِ، تَهْتَدِي إِلَيْهِ الْأُمَمُ بِالْفِطْرَةِ الْمُتَرَنِّمَةِ فِي هَدِيرِ الْحَمَامِ
وَحَرِيرِ الْمِيَاهِ، وَحَفِيفِ الْأَشْجَارِ. فَمَنْ أَبْكَاهُ الْحَمَامُ عَزَدَ نَغْرِيدُهُ كَلِمًا أَرَادَ الْبُكَاءَ، وَمَنْ
أَطْرَبَهُ صَوْتُ النَّاعُورَةِ رَنَّ رَنِينَهَا؛ لِيُطْرَبَ جَمَلُهُ أَوْ نَاقَتُهُ فَيَنْشِطَانِ لِلْمَسِيرِ.

وَمَا زَالَ هَذَا الْفَنُّ مُبِيدِيًا بَبْدَاوَةِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا يَكَادُ يَتَخَطَّى فِيهَا حِدَاءَ الْجَمَالِ،
وَمُنَاغَاةَ الْأَطْفَالِ، حَتَّى إِذَا انْتَقَلَتْ مِنْ مَضِيقِ الْحَاجِيَاتِ إِلَى مُنْفَسِحِ الْكَمَالِيَّاتِ،
تَوَسَّعَتْ فِيهِ وَزَادَتْ فِي أَنْعَامِهِ وَضُرُوبِهِ، وَتَفَنَّنَتْ فِي آلَاتِهِ وَأَدْوَاتِهِ.

وكذلك كَانَ شَأْنُ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، يَنْظُمُونَ أَشْعَارَهُمْ عَلَى نِسْبِ مُتَوَازِيَةٍ،
وَأَنْعَامِ مُتَوَازِيَةٍ، فَالْبَيْتُ يُوَازِنُ الْبَيْتَ فِي تَرْتِيبِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ وَتَعْدَادِهَا،
وَالشُّطْرُ وَالْتَفْعِيلَةُ يُوَازِنَانِ الشُّطْرَ وَالتَّفْعِيلَةَ كَذَلِكَ؛ فَكَأَنَّمَا كَانُوا يُهَيِّتُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
بِمَذْهَبِهِمْ هَذَا فِي الشُّعْرِ أَلْحَانًا مُوسِيقِيَّةً. غَيْرَ أَنَّ مَعَارِفَهُمْ لَمْ تَكُنْ تَنْسَعُ لِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا
النَّوعِ مِنَ الْمَوْسِيقِيِّ؛ وَهُوَ نَوْعُ التَّنَاسُبِ الشُّعْرِيِّ الَّذِي هُوَ قُطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ هَذَا الْفَنِّ
الزَّائِرِ.

ثُمَّ اسْتَمَرَّ شَأْنُهُمْ عَلَى هَذَا حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ وَاخْتَلَطَتِ الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ بِالْأُمَّةِ الْفَارْسِيَّةِ
الَّتِي كَانَ لَهَا مِنْ حَضَارَتِهَا وَتَمْدِينِهَا مُنْسَعٌ لِلْبَرَاغَةِ فِي هَذَا الْفَنِّ وَمُنْتَدَخٌ فِي مَنَاجِحِهِ
وَمَقَاصِدِهِ. وَوَفَدَ الْكَثِيرُ مِنْ مُغْنِي الْفَرَسِ وَالرُّومِ مَوَالِي فِي بِيُوتِ الْعَرَبِ وَفِي أَيْدِيهِمْ
الْعِيدَانُ وَالطَّنَابِيرُ، وَالْمَعَازِفُ وَالْمِزَامِيرُ، يُلْحَنُونَ بِهَا أَشْعَارَهُمُ الْفَارْسِيَّةَ وَالرُّومِيَّةَ،
فَسَمِعَهَا مِنْهُمْ الْعَرَبُ فَاقْتَبَسُوهَا وَلَحَّنُوا بِهَا أَشْعَارَهُمْ تَلْحِينًا بَرًّا فِيهِ أَسْلَاتِذَتُهُمْ،
وَوَلَدُوا أَلْحَانًا وَأَنْعَامًا لَمْ يَأْتِ بِهَا مِنْ قَبْلِهِمْ، شَأْنُهُمْ فِي جَمِيعِ الْفُنُونِ وَالصَّنَاعَاتِ الَّتِي
كَانُوا يَقْتَبِسُونَهَا مِنَ الْأُمَّةِ الْمُتَمَدِّينَةِ الْمَعَاصِرَةِ لَهُمْ.

وظهرَ فيهم رجالٌ أذكِياءُ كانَ لَهُمُ الفَضْلُ الباهرُ في تقديم الغناءِ وأتساعِهِ مثل ابن سُرَيْجٍ، ومُخارق، وطُوَيْسٍ، وإبراهيمِ الموصلي، وابنه إسحاق، وإبراهيمِ بن المهدي، ومعبد الذي طالما ضُرِبَتْ بهِ وبُحِثْنَ صَوْتُهُ الأمثالُ على ألسِنَةِ فُحُولِ الشعراءِ. كقول أبي عُبَادَةَ البحتريِّ في وَصْفِ فرسٍ كانَ أهْداهُ إليه أَحَدُ الأُمراءِ:

هَسْرَجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي بُرَاتِهِ نَعَمَاتٌ مَعْبِدٌ فِي الثَّقِيلِ الأوَّلِ
والثَّقِيلِ والخَفِيفِ الأوَّلِ والثَّانِي أسماءٌ اصْطَلَحَ عَلَيْهَا العَرَبُ وَمَرَجَعُهَا إِلَى
حَرَكَاتِ الأَصْبَاعِ الخَمْسِ فِي أوتارِ العُودِ والخَمْسَةِ شِدَّةً وَضَعْفًا، وَمَا أَحْسَنَ قولَ أَبِي
العلاءِ المَعْرِي:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ يَا أُمَيْمَةَ بَعْدَمَا نَزَلَ الدَّلِيلُ إِلَى التُّرابِ يَسُوفُهُ (١)
وهواكِ عِنْدِي كَالغِناءِ لِأَنَّهُ حَسَنٌ لَدَيَّ ثَقِيلُهُ وَخَفِيفُهُ

وبالرغم من غُضارَةِ الدينِ وَغُضاضَتِهِ في ذلك العَهْدِ - عهدِ الصِّدْرِ الأوَّلِ - وشِدَّتِهِ في النَّهْيِ والتَّهْلِيهِ بالغِناءِ والعَرَفِ والزَّمْرِ وأمثالِها، ونَعْيِهِ على مَنْ يَحْتَرِقُ ذلكَ أو يَتَخَلَّفُهُ، فَقدَ كانَ للمَغْنِينِ الشَّانُ الرَّفِيعُ في مجالسِ الخلفاءِ والأُمراءِ، والنَّصِيبُ الأَوْفَرُ من جَوائِزِهِم وصِلاتِهِم، ولا عَزَوَ في ذلكِ فِلسُطانُ الوِجْدانِ فَوْقَ سُلطانِ الأَدِيانِ.

ولقد بَلَغَ من شَأْنِ المَغْنِينِ وإِدْلالِهِم على الخلفاءِ أَنَّ إسحاقَ الموصليَّ سَتَمَ إبراهيمَ بنَ المهديِّ في حَضْرَةِ أخِيهِ الرَشِيدِ غَيْرِ هَيِّابٍ ولا وَجَلٍ، فما اسْتَطاعَ أخُو الخَلِيفَةِ أَنْ يَنْتَصِفَ لِنَفْسِهِ مِنْهُ هَيْبَةً وإِجْلالًا، وكانَ ابْنُ عائِشَةَ المَغْنِي لا يُغْنِيهِ إِلا لِمَلِكٍ أو وَلِيِّ عَهْدِهِ، حَتَّى كانَ الخَلِيفَةُ إِذا أَرادَ أَنْ يَخْتارَ مِنْ بَيْنِ أبنائِهِ مَنْ يَعْهدُ إِلَيْهِ بالأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ لا يَكْتَبُ لَهُ بِذلكَ عَهْدًا، بل يَأدُنُ لابنَ عائِشَةَ أَنْ يَغْنِيَ عِنْدَهُ. فلا تَطَلَّعَ عَلَيْهِ شَمْسُ العَدِّ حَتَّى يَفِدَ النَّاسُ إِلَيْهِ يُهَيِّئُونَهُ بولايَةِ العَهْدِ، فَإِنْ دَعاهُ إِلَى الغِناءِ لَدَيْهِ أَميرٌ أو وزيرٌ وَجَدَ مِنْ قوَّةِ الدَّالَّةِ بِنَفْسِهِ ما يَدْفَعُ بِهِ الطَّلَبَ عَنهُ.

ويُروى أَنَّ ابنَ أَبِي عَتِيقٍ، وهو مَنْ تَعَلَّمَ في شَرَفِ البَيْتِ وَجَلالِ المَحَلِّ، رَأى ابنَ عائِشَةَ يَوماً وَحَلَفَهُ مَخْدُوشًا، فَقالَ: مَنْ فَعَلَ بِكَ هَذا؟ قالَ: فلانُ، وَأشارَ إلى ضارِبِهِ، فَمَضَى وَنَزَعَ ثِيابَهُ وَعادَ فَجَلَسَ لِلرَّجُلِ على بابِهِ، فَلَمَّا خَرَجَ أَخَذَ بِتَلْبِيهِهِ وَجَعَلَ يَضْرِبُهُ

(١) ساف التراب: اشتمه. يريد أنه ذكر حبيبه في أعظم أوقات شدته، وهو وقت ضلال الركوب ونزول الدليل، اشتم التراب ليستدل منه على الأرض.

ضَرْبًا مُوجِعًا، والرَّجُلُ يَصِيحُ: أَيُّ شَيْءٍ صَنَعْتُ؟! وما ذَنْبِي إِلَيْكَ؟! وهو لا يَجِيبُهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ، وَأَقْبَلَ النَّاسُ فَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَسَأَلُوهُ عَن ذَنْبِهِ، فَقَالَ: إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكْسِرَ مِزْمَارًا مِنْ مِزْمَارِ دَاوُدَ، يَرِيدُ أَنَّهُ خَنَقَ ابْنَ عَائِشَةَ وَخَدَشَهُ فِي حَلِقِهِ.

ومما يُروى مِنْ حِوَادِثِ تَيْهِهِ وَتَرَفُّعِهِ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَدَّ غَنَاءَهُ:

أَبْعَدَكَ مَعْقَلًا أَرْجُو وَحِصْنًا قَدْ أَعْيَنِي الْمَعَاقِلُ وَالْحُصُونُ

فَأَطْرَبَهُ وَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَكَثِيرٍ مِنَ الثِّيَابِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ إِذْ نَظَرَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ وَادِي الْقِرَى كَانَ يَسْتَهِي الْغِنَاءَ فَدَنَا مِنْ غُلَامِهِ وَقَالَ: مَنْ هَذَا الرَّاكِبُ الْمُخْتَالُ؟! قَالَ: ابْنُ عَائِشَةَ الْمَغْنِي. فَدَنَا مِنْهُ وَقَالَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَنْتَ ابْنُ عَائِشَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: لَا، أَنَا مَوْلَى لِقُرَيْشٍ وَعَائِشَةُ أُمِّي، وَحِسْبُكَ هَذَا فَلَا تُكْثِرْ. قَالَ: وَمَا هَذَا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ؟ قَالَ: غَنَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَوْتًا فَأَطْرَبْتُهُ، فَأَمَرَ لِي بِهَذَا الْمَالِ وَهَذِهِ الْكِسْوَةُ، قَالَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، هَلْ تَمَنَّيَ عَلَيَّ بِأَنْ تُسَمِعَنِي مَا أَسْمَعْتَهُ إِثَاءَهُ؟ فَقَالَ لَهُ: وَيَلَيْكَ أُمِّئِلِي يُكَلِّمُ بِمِثْلِ هَذَا فِي الطَّرِيقِ؟! قَالَ: فَمَا أَصْنَعُ؟! قَالَ: الْحَقْنِي إِلَى الْمَنْزِلِ، يَرِيدُ مَخَاتَلَتَهُ وَالنَّجَاةَ مِنْهُ. وَحَرَّكَ بَغْلَةً شَقْرَاءَ تَحْتَهُ؛ لِيَنْقَطِعَ عَنْهُ فَعَدَا مَعَهُ، حَتَّى وَاقَفَا الْمَنْزِلَ كَفَرَسِيِّ رَهَانَ، وَدَخَلَ ابْنُ عَائِشَةَ فَمَكَثَ طَوِيلًا طَمَعًا فِي أَنْ يَنْصَرَفَ فَلَمْ يَقْعَلْ. فَلَمَّا أَعْيَاهُ قَالَ لِعُلَامِهِ: ادْخُلْهُ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ لَهُ: مِنْ أَيْنَ صَبَبْتَ اللَّهُ عَلَيَّ؟! قَالَ: أَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ وَادِي الْقِرَى أَشْتَهِي هَذَا الْغِنَاءَ، قَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ فِيهَا هُوَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْهُ؟ قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟! قَالَ: مَاتَتْ دِينَارٌ وَعِشْرَةُ أَثْوَابٍ تَنْصَرَفُ بِهَا إِلَى أَهْلِكَ. فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، وَاللَّهِ إِنَّ لِي لُبْنَيْةً مَا فِي أُذُنِهَا - عِلْمُ اللَّهِ - حَلَقَةٌ مِنَ الْوَرَقِ، وَإِنْ لِي زَوْجَةٌ عَلَيْهَا - يَشْهَدُ اللَّهُ - قَمِيصٌ، وَلَوْ أُعْطَيْتَنِي جَمِيعَ مَا أَمَرَ لَكَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى خِلْتِي وَحَاجَتِي لَكَانَ الصَّوْتُ أَعْجَبَ إِلَيَّ مِنْهُ. وَمَا زَالَ بِهِ حَتَّى رَحِمَهُ ابْنُ عَائِشَةَ وَغَنَاءَهُ الصَّوْتُ بَعْدَ لَأَيٍّ؛ فَطَرَبَ الرَّجُلُ لَهُ طَرَبًا شَدِيدًا وَجَعَلَ يَحْرُكُ رَأْسَهُ وَيَنْطَحُ بِهَا الْجِدَارَ حَتَّى خِيفَ أَنْ يَنْدُقَ عُنُقَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَلَمْ يَرْزَأْهُ فِي مَالِهِ شَيْئًا.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ فَوْقَ الْغَرَضِ الَّذِي سَقْنَاهُ لَهُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْغِنَاءَ الْعَرَبِيَّ كَانَ قَرِيبًا إِلَى الْقُلُوبِ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْهَا بِمَنْزِلَةِ الْأَصَابِعِ مِنَ الْأَوْتَارِ، فَإِذَا لَمَسَهَا رَبَّتْ رَيْنَ الثَّكَلَى وَالْمَرْزُوعَةَ فِي وَاحِدِهَا، وَإِنَّ الْوَجْدَانَ الْعَرَبِيَّ وَجْدَانٌ رَائِقٌ شَفَافٌ تَأْخُذُ مِنْهُ مُخْتَلِفَاتُ الْأَنْغَامِ فَوْقَ مَا تَأْخُذُ الْكَهْرِبَاءُ مِنَ الْأَجْسَامِ، كَمَا تَبْلُغُ مِنْهُ نِظْرَاتُ الْغَرَامِ،

فوق ما تبلغ من عقل شاربها المدام وكانت الأصوات عندهم تنسب إلى واضعيها وتسمى بأسماء أصحابها كما هو الشأن في الشعر، فيقال: صوت إسحاق أو معبد، كما يقال: شعر مسلم أو بشار. وكان المغني أحرص على صوته من الكريم على عريضه، فإذا صنع صوتاً لا يسمع لأحد من المغنين أن يأخذه عنه حتى يغنيه مراراً وتعرف نسبه إليه، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم، وكان لإسحاق الموصلي القدرة الغربية على مخالطة المغنين عن أصواته، حتى صنع مرة صوتاً وأراد الفحول منهم أن يأخذوه بعدما سمعوه منه أكثر من سبعين مرة، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالس علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه، فكان أحدهم لا يحجم إن رأى في صوت صاحبه مأخذاً أن يفجأه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ مهما عظم شأن المجلس وشأن صاحبه. وكانت تقع بينهم المنافسات الشديدة في ذلك كما تنع بين العلماء في مجادلاتهم ومناظراتهم، مما يدل على أن الغناء الغربي كان له عند العرب صبغة جدية فوق صبغة اللهو، وأن الغربيين في هذا العهد ليسوا بأعلم بصناعة الغناء ولا أقوم على أمرها من العرب في ذلك العهد. ولو أن العرب توسعوا في ثنونه وضروبه؛ لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها. ولكنهم كانوا قلماً يحفلون بإدخاله في الأغراض العالية كالحراب والشئون الوطنية. وأمثال ذلك من المناحي والمقاصد إلا قليلاً. كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أن أعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم وعلموا أن سبيل الوشاية بهم إلى الرشيد سبيل وعز دسوا له من القيان من يعنيه بقول عمر بن أبي ربيعة:

ليت هندا أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة وإحدة إنما العاجز من لا يستبد

فحرك ذكر العجز والاستبداد ما كان كامناً في نفس الرشيد من شعوره بسلطان البرامكة عليه واستبدادهم بالأمر من دونه، فقال عند تمام الصوت: «نعم إني عاجز». ثم كان أمره معهم بعد ذلك ما كان.

ولقد مضى الصدر الأول من الإسلام وشأن فن الغناء العربي هذا الشأن العظيم خصوصاً في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية. ثم أخذت شمسها الباهرة

تَنَحَّدِرُ إِلَى الْغُرُوبِ بِانْحِدَارِ اللَّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَشِعْرَهَا حَتَّى أَصْبَحَ فِي حَضَارَةِ الْأَنْدَلُسِ
قُدُودًا وَمُوشِحَاتٍ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَصَائِدَ وَمُقَطَّعَاتٍ، فَكَانَ لَا يَسْمَعُ أَبْنَاءَ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ
العهدِ إِلا قَوْلَ الْمُغْنِي:

كحلِّ الدُّجَى يَجْرِي من مُقْلَةٍ الْفَجْرِ عَلَى الصَّبَاحِ
وَمِعْصَمِ النَّهْرِ فِي حُلِّ خُضْرٍ مِنْ الْبَطَاحِ
أو قوله:

كَلَّمِي سُحْبَ تَيْجَانَ الرَّبِيِّ بِالْحُلِيِّ وَاجْعَلِي سِوَارَهَا مُنْعَطَفَ الْجَدُولِ
وليت الأمرُ وَقَفَ عِنْدَ هَذِهِ الْمُوشِحَاتِ، فَإِنهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ شِعْرِيَّةَ اللَّفْظِ فِيهَا شِعْرِيَّةُ
الْمَعْنَى عَالِيَةِ الْخِيَالِ، وَهِيَ عَلَى عِلَاتِهَا خَيْرٌ مِنْ شِعْرِ الْعَامَّةِ الَّذِي قَضَى عَلَيْهِمْ فِسَادُ
اللُّغَةِ وَانْحِطَاطُهَا بِاتِّهَاجِهِ وَالتَّغْنِي بِهِ كَالرَّجُلِ، وَالْمَوَالِيَا، وَالْقُومَا، وَالدُّوَيْتِ، وَكَانَ
وَيَكُونُ، غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَسْمَى فِي عَهْدِنَا هَذِهِ بِالْأَدْوَارِ وَالتَّوَاشِيحِ وَالْأَغْصَانِ وَالْمَذَاهِبِ
وَأَمْثَالِهَا.

فَهَلْ لْجَمَاعَةِ الْمُغْنِيِّينَ فِي عَصْرِنَا أَنْ يَعْفُونَا مِنْ: «أَحَبُّ جَمِيلِ طَبَعِهِ الدَّلَالُ»، وَمِنْ:
«يَا حُلُو صَوْنِ عَهْدِ وَدَادِي اللَّهِ يَصُونُكَ»، وَيَأْخُذُوا بِنَا فِي مَسَالِكِ أَشْرَفِ مِنْ هَذَا
الْمَسْلُوكِ، وَيُعِيدُوا لِلْغَنَاءِ الْعَرَبِيِّ عَهْدَهُ الْأَوَّلَ كَمَا صَنَعَ شِعْرَاءُ الْعَصْرِ بِرَفِيقِهِ الشُّعْر.
فَلَقَدْ كَانَ الشُّعْرُ وَالْغَنَاءُ أُخُوَيْنَ الْيَفِينِ، رَضِيَ عَنِّي تَدِي وَضَجِي عَيِّي مَهْدٍ، ثُمَّ ضَرَبَتْهُمَا
الدَّهْرُ بِضُرْبَاتِهِ فَافْتَرَقَا. فَمَاذَا عَلَيْنَا لَوْ قَصَرْنَا مَسَافَةَ الْبُعْدِ بَيْنَهُمَا؟! وَمَاذَا عَلَى الْمُغْنِيِّينَ
وَالشُّعْرَاءِ فِي مِصْرَ لَوْ عَقَدُوا بَيْنَهُمْ عَهْدًا أَنْ يُهْدَبُوا أَخْلَاقَ أُمَّتِهِمْ وَيَرْفَعُوا شَأْنَهَا؛
لِيَكُونَ لَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ فِي نَهْضَتِهَا وَارْتِقَائِهَا مَا عَجَزَ عَنِ دَرْكِهِ الْفَلَسَافَةُ وَالْحُكَمَاءُ،
فِيَنْظِمَ الشُّاعِرُ الْمُقَطَّعَاتِ الرَّيْقَةَ الْعَذْبَةَ السَّائِغَةَ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ،
كَالشُّجَاعَةِ وَالشُّهَامَةِ وَالشَّرَفِ وَحُبِّ الْوَطَنِ وَالْإِتِّحَادِ وَالتَّزْهِيدِ فِي صَغَائِرِ الْأُمُورِ،
وَالتَّرْغِيبِ فِي عِظَائِمِهَا، فَيَأْخُذُهَا مِنْهُ الْمُغْنِي، وَلَا يَتَكَلَّفُ فِي تَلْحِينِهَا أَكْثَرَ مَا يَتَكَلَّفُهُ
فِي تَلْحِينِ سِوَاهَا مِنَ الْأَدْوَارِ وَالْمَوَاوِيلِ، ثُمَّ يَغْنِيهَا فِي النَّاسِ غَيْرِ مِبَالٍ بِمَا يُفَاجِئُهُ بِهِ
ضَعْفَاءُ النَّفُوسِ الْجَامِدُونَ مِنَ الْإِنْتِقَادِ الْمَلَاذِمِ لِكُلِّ عَمَلٍ شَرِيفٍ فِي مَبْدِئِهِ.

وَفِي اعْتِقَادِي أَنَّ لِهَذِهِ الطَّرِيقَةَ مِنَ الْأَثَرِ الْحَسَنِ فِي نَفُوسِ الْعَامَّةِ وَتَهْدِيبِ أَخْلَاقِهِمْ
وَطِبَاعِهِمْ، وَتَقْوِيمِ أَلْسِنَتِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، مَا يُخَلِّدُ لِلْمُلْحِنِينَ وَالْمُغْنِي أَجْمَلِ ذِكْرٍ فِي
تَارِيخِ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ.

التوبة



عَلِمَ فَلَانٌ، وَكَانَ شَابًا مِنْ شُبَّانِ الْخَلَاعَةِ وَاللَّهُوِ، وَقَاضِيًا مِنْ قُضَاةِ
الْمَحَاكِمِ، أَنَّ الْمَنْزَلَ الَّذِي يَجَاوِرُ مَنْزِلَهُ يَشْتَمِلُ عَلَى فِتَاةٍ حَسَنَاءَ مِنْ
ذَوَاتِ الثَّرَاءِ وَالنِّعْمَةِ وَالرَّفَاهِيَةِ وَالرَّغْدِ، فَرْنَا إِلَيْهَا النَّظْرَةَ الْأُولَى فَتَعَلَّقَهَا،
فَكَرَّرَهَا أُخْرَى فَبَلَّغَتْ مِنْهُ، فَتَرَأَسَلَا ثُمَّ تَرَاوَرَا ثُمَّ افْتَرَقَا. وَقَدْ خُتِمَتْ
رَوَايَتُهُمَا بِمَا تُخْتَمُ بِهِ كُلُّ رَوَايَةٍ غَرَامِيَّةٍ يُمَثِّلُهَا أَبْنَاءُ آدَمَ وَحَوَاءَ عَلَى
مَسْرَحِ هَذَا الْوُجُودِ.

عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين جنبيها همًا يضطرم في فؤادها، وجنينًا يضطرب
في أحشائها، وقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل، أما الثاني فسر مداع، وحديث
مشاع، إن اتسعت له الصدور، لا تتسع له البطون، وإن ضن به اليوم لا يضمن به الغد.
ذلك ما أسهر ليلها وأقص مضجعها، وملك عليها وجدانها وشعورها، فلم تر لها
بدا من الفرار بنفسها، والتجاة بحياتها. فعمدت إلى ليلة من الليالي السوداء فلبستها،
وتلفعت بردائها، ثم ألقت بنفسها في بحرها الأسود، فما زالت أمواجها تتراعى بها
حتى ألقتها إلى شاطئ الفجر، فإذا هي في غرفة صغيرة في إحدى المنازل البالية، في
بعض الأحياء الخاملة وذلك الجنين المضطرب.

كان لها أم تحنو عليها، وتفتقد شأنها، وتجزع لجزعها، وتبكي لبكائها فقارتها.
وكان لها أب لا هم له في حياته إلا أن يراها سعيدة في أمالها، مغتبطة بعيشها، فهجرت
منزله. وكان لها خادم يقمن عليها ويسهرن بجانها! فأصبحت لا تسامر غير الوحدة،
ولا تساهر غير الوحشة، وكان لها شرف يؤنسها ويملا قلبها غبطة وسرورًا ورأسها
عظمةً وافتخارًا، ففقدهت.. وكان لها أمل في زواج سعيد من زوج محبوب فرزأتها
الأيام في أمليها.

ذلك ما كانت تُناجي نفسها به.. صباحها ومساءها، بكورها وأصائلها، فإذا بدا
لها أن تفكر في علة مصائبها وسبب أحزانها علمت أنه ذلك الفتى الذي وعدّها أن

يتزوّجها فخذعها عن نفسها، ولم يف بعهدِ لها، فكدّف بها وبكلّ ما تملك يدها في هذا المصير.

فلا يكاد يستقرّ ذلك الخاطر في فؤادها، ويأخذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجدوة نار تتقد بين جنبئها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى لأنه قتّلها، وعلى المجتمع الإنساني؛ لأنه لا يأخذ القاتل بجريمته، ولا يسلكه في سلسلة المجرمين.

وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض.. فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها ألمت بشأنها فمشّت إليها وأعانته على أمرها بضع ساعات.. ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد.. وتعاني من ضروف دهرها ما تعاني.

ولقد ضاق صدرها ذرعاً بهذا الضيف الجديد، وهو أحبّ المخلوقات إليها وأكثرهم قرباً إلى نفسها.. فجلست ذات ليلة، وقد وضعت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها إلى كفها، وظلت تقول:

ليت أمي لم تلدني، وليتني لم أكن شيئاً.

لولا وجودي ما سعدت، ولولا سعادتني ما شقيت، وإن كان في العالم وجود أفضل منه العدم فهو وجودي.

لقد كان لي قبل اليوم سبيل إلى النجاة من هذه الحياة، أمّا اليوم وقد أصبحت أمّاً فلا سبيل.

أقتل نفسي فأقتل طفلي؟! أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة؟!!

لا أحسب أن الموت تاركه حتى يذهب بي إلى قبري. فماذا يكون حال طفلي من بعدي؟!!

إنها ستعيش من بعدي، وتشقى في الحياة شقائي، لا لذنب جنّته ولا لجريمة أجرمتها، سوى أنني أمّها.

هل تعيشين أيتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب أمومي حينما تسمعين قصتي وتسمعين شكاتي؟!!

لم يبق في يدي، يا بئيتي، من خلّاي إلا قليل سأبيعه كما بعته سابقه، فماذا يكون شأنك بعد اليوم؟!!

محال أن أعود إلى أبي فأقص عليه قصتي؛ لأنه لم يبق لي مما يُعزّيني عن شقاء العيش وبلائه، إلا أن أهلي لا يعرفون شيئاً عن جريمتي، فهم ييكونني كما ييكون موتاهم الأعراء؛ ولأن ييكونوا مماتي خير لي ولهم من أن ييكونوا حياتي.

وكذلك ظلت تلك البائسة المسكينة تحدثت نفسها تارة، وطفلتها أخرى بمثل هذا الحديث المحزن الأليم، حتى غلبها صبرها على أمرها، فأرسلت من جفنتيها قطرات حارة من الدموع هي كل ما يملك الضعفاء العاجزون ويقدر عليه القانطون اليائسون.

دارت الأيام دورتها وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها، وما يحمل بدنها وما تشتمل عليه غرفتها من حلي وثياب، وأثاث ورياش، ولم يبق لها إلا قميصها الخلق وملاءتها وبرقعها، ولم يبق لطفلتها إلا أسمال باليات تنم عن جسمها نائمة الوجه عن السريرة. فكانت تقضي ليلها شرّ قضاء حتى إذا طار غراب الظلام عن مجتمه أسبلت برقعها على وجهها، وأترزت بمتررها، وأنشأت تطوف شوارع المدينة، وتقطع طرقها، لا تبغي مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها، وهمها لا يزال يسايرها ويترسّم مواقع أقدامها.

وأحسب أن عجوزاً من عجائز المواخير رأتها فألمت ببعض شأنها فاقتفت أثرها حتى دخلت غرفتها، فوعلت عليها، وسألتها ما خطبها؟ فأنست الفتاة عند رؤيتها، وكذا يأنس المصدور بنفثاته، والبائس بشكاته، فأصرحت لها بسرّها وألقت إليها بخبيثة صدرها، ولم تترك خبراً من أخبار نعيمها، ولا حادثاً من حوادث بؤسها لم تحدثها به؛ فعرفت الفاجرة محتتها، ورأت بعينها ذلك الماء من الحُسن الذي يجول في أديم وجهها جولان الرّاح في زجاجتها، وعلمت أنها إن أحرزتها في منزلها فقد أحرزت غني الدهر، وسعادة العمر. وما هو إلا أن أرسلت إليها بعض عقاريها. وما هي إلا عشيّة أو ضحاها حتى بلغت بها الغاية التي لا مفرّ لها ولا لأمثالها من بلوغها.

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد، عيشاً أشقى من عيشها الأوّل في منزلها القديم؛ لأنها ما كانت تستطيع أن تصل إلى لقمته - وهي كل ما حصلت عليه في حياتها الجديدة - إلا إذا بدلت راحتها وشردت نومها، وأحرقت دماغها بالسهر، وأحشاءها بالشراب، وصبرت على كل من يسوقه إليها حظها من سباع الرجال وذئابهم، على اختلاف طبائعهم، وتنوع أخلاقهم؛ لأنها لم ترّ بدءاً من ذلك.. فاستسلمت استسلام اليائس الذي لم تترك له ضائقة العيش إلى الرجاء سبيلاً.

ولو أن الدهر وَقَفَ معها عندَ هذا الحدِّ لَهَانَ الأمرُ ولَأَلِفَتِ الشَّقَاءَ ومَرَنْتَ عليه كما يَأْلُفُهُ ويَمُرُّنُ عليه كلُّ مَنْ سارَ في الطريقِ التي سارَتَ فيها، ولكنَّهُ أبى إلا أن يَسْقِيَهَا الكَأْسَ الأَخِيرَةَ مِنْ كئُوسِ شِقَائِهِ، فساقَ إليها ذُبَابًا مِنْ ذنَابِ الرِّجَالِ كانَ يَنْقِمُ عَلَيْهَا شَأْنًا مِنْ شُئُونِ شَهَوَاتِهِ ولذَاتِهِ، فَرَعَمَ أَنَّهَا سَرَقَتْ كَيْسَهُ في إِحْدَى لِيَالِيهِ التي قَضَاهَا عِنْدَهَا، وَرَفَعَ أَمْرَهَا إلى القَضَاءِ، واستعانَ عليها ببعضِ أترابِها الساقِطَاتِ اللواتي كُنَّ يَحْسُدْنَها وينفِسنَ عليها حَسَنَها وبهَاءَها حتى أدانَها.

جاء يومُ الفصلِ في أمرِها فَسَيِّقَتْ إلى المحكِّمةِ، وفي يَدِها فَنائِها، وقد بَلَغَتْ السابِعةَ مِنْ عُمْرِها، فأخَذَ القاضِي يَنْظُرُ في القُضايَا ويحكِّمُ فيها بما يَشَاءُ حتى أتى دورَ الفِئاةِ، فما وَقَفَتْ بين يَدَيْهِ، ووقِعَ بَصَرُها عليه، حتى شَدَّهَتْ عن نَفْسِها وألَمَ بها مِنَ الحِيرةِ والدَّهْشَةِ ما كادَ يذهبُ بِرُشْدِها ذلكَ أَنَّها عَرَفَتْهُ وَعَرَفَتْ أَنَّهُ ذلكَ الفَتَى الذي كانَ سَبَبَ شِقَائِها وَعِلَّةَ بَلائِها، فنظرتَ إليه نظرةَ شرِّاءِ، ثم صَرَخَتْ في وجهِهِ صَرَخَةً دَوَى بها المَكَانَ دَوِيًّا وقالتِ:

رويدك يا مولاي القاضي، ليس لك أن تكونَ قاضيًّا في قضيتي! فكلانا سارقٌ وكلانا خائنٌ، والخائنُ لا يقضي على الخائنِ، واللصُّ لا يصلحُ أن يكونَ قاضيًّا بينَ اللصوصِ.

فَعَجَبَ القاضِي والحاضرونَ لهذا المنظرِ الغريبِ، وغَضِبَ لِهذِهِ الجِراةِ العجيبَةِ، وهَمَّ أن يدعُو الشُّرطيَّ لإخراجِها، فحَسرتَ قِناعِها عن وَجْهِها، فنظرَ إليها نظرةَ أَلَمَ فيها بكلِّ شيءٍ، فشَعَرَ بالرُّعدةِ تَمَشَّى في أَعْضائِهِ، وَسَكَنَ في كَرسيِّهِ سَكُونُ المُحْتَضِرِ في سَريرِ الموتِ، وعادَتِ الفِئاةُ إتمامَ حَدِيثِها فقالتِ:

أنا سارِقَةٌ المالِ، وأنتَ سارقُ العِرْضِ، والعِرْضُ أَمْنُ مِنَ المالِ، فأنتَ أكبرُ مني جِنايَةً، وأَعْظَمُ جُرْماً.

إنَّ الرَّجُلَ الذي سَرَقَتْ مَالَهُ يَسْتَطِيعُ أن يُعزِّيَ نَفْسَهُ عَنْهُ باستِردادهِ أوِ الاعْتِياضِ عَنْهُ، أمَّا الفِئاةُ التي سَرَقَتْ عِرْضَها فلا عِزاءَ لَها؛ لأنَّ العِرْضَ الذاهِبَ لا يَعودُ.

لولاكَ ما سَرَقْتُ، وما وصلتُ إلى ما إليه وصلتُ، فاتركَ كَرسيَّكَ لِغَيْرِكَ، وَقِفْ بِجانِبِي لِيحَاكِمَنَا القَضَاءُ العادِلُ على جَريمةٍ واحِدَةٍ أنتَ مُدْبِرُها، وأنا المُسْخِرَةُ فيها. إن شريعةً تعلمُ أننا شركاءُ في جَريمةٍ واحِدَةٍ، ثم تأتي بنا إلى هذا المَكَانِ، فتوقِفُ

أحدنا في أشرفِ المواقفِ، وتوقفَ الآخرَ في أدناها لشريعةٍ ظالمةٍ ليس بينها وبين العدلِ نسبٌ موصولٌ، أو زمامٌ غيرٌ مُنقضبٍ.

رأيتُك حينَ دخلتَ هذه القاعةَ وسمعتُ الحاجبَ يصيحُ لمقديك ويستنهضُ الصفوفَ للقيامِ لك، ورأيتَ نفسي حينَ دخلتُ والعيونُ تتخطاني والقلوبُ تفتحنِي فقلت: يا للعجب!! كم تكذبُ العناوينُ، وكم تخدعُ الألقابُ، وكم يعيشُ هذا العالمُ في ضلالةٍ عمياءَ، وجهالةٍ جهلاء!!

بخ يخ لأولئك الذين منحوكَ هذه الشهادة؛ شهادةَ العلمِ والفضلِ والأخلاقِ والآدابِ، ومزحى مزحى لأولئك الذين أقعدوكَ هذا المقعدَ، ووضعوا بين يديك هذا القانونَ، وأوقفوا أمامك هذا الشرطيَّ ياتمرُ بأمرِكَ وينزلُ على حُكْمِكَ.

إن تحتَ هذهِ الثيابِ التي تلبسونها، معشرَ القضاةِ نفوسًا ليست بأقلَّ من نفوسنا شرًّا، ولا أحبَّتْ منها مذهبًا، وربما لا يكونُ بيننا وبين الكثيرِ منكم فرقٌ إلا في العناوينِ والألقابِ، والشمائلِ والأزياءِ.

أتيتَ بي إلى هنا لتُحكِمَ عليَّ بالسجنِ، كأن لم يكفِكَ ما أسلفتَ إليَّ من الشقاءِ حتَّى أردتَ أن تجيءَ بلاحقٍ لذلك السابقِ.

ألم أحسِّنَ إليك ساعةً من ساعاتِ السرورِ فترعاها؟! ألسنتَ إنسانًا ذا شعورٍ وإحساسٍ فترثني لشقائي وبلائي!؟

إن لم تكن عندي وسيلةً أمتُّ بها إليك، فوسيلتي عندك ابنتك هذه، فهي الصلَّةُ الباقيةُ بيني وبينك.

فرفعَ القاضي رأسه ونظرَ إلى ابنته الصغيرة نظرةَ رَحمةٍ وإشفاقٍ وقد قرَّرَ في نفسه ألا بُدَّ له من أن يُنصفَ تلكَ البائسةَ ويتنصفَ لها من نفسه، غير أنه أراد أن يخلصَ من هذا الموقفِ خلوصًا جميلًا، فأعلن أن المرأةَ قد أصيبتَ بدخُلٍ في عقلها، وأن لا بُدَّ من إحالتها على الطبيبِ؛ فصدَّقَ الناسُ قوله، ثم قامَ من مجلسه بتفسي غيرِ نفسه، وقلبٍ غيرِ قلبه.

وما هي إلا أيامٌ قلائلٌ حتى استقالَ من منصبه بحجةِ المرضِ، ولم يزل يسعى سعْيُهُ حتى ضمَّ إليه ابنته، واستخلصَ أمها من قرارتها، وهاجرَ بها إلى بلدٍ لا يعرفهما فيه أحدٌ، فترَوَّجَ منها وأنسَ بعشرتها، واحترفَ في دارِ هجرتهِ حرفةً أن أدلَّ عليه إذا ذكرتها

لذاكرتها، ولا يزال حتى اليوم يُكفّر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف الرعاية، وأنواع الكرامة، حتى نسيها ما فات، ولم يبق أمامهما إلا ما هو أت.



الحسد



لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد، وما أسدى إليه من نعمة لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين. ■

لا يزال صاحب النعمة ضالاً عن نعمته، لا يعرف لها شأنًا، ولا يُقيم لها وزنًا، حتى يدله الحاسد عليها بكرانها، ويرشده إليها بتحقيرها، والغض منها، فهو الصديق في ثياب العدو، والمحسن في ثياب المسيء.

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهذا الحاسد، يتقم على محسوده نعم الله عليه، ويتمنى لو لم يتبق له واحدة منها وهو لا يعلم أنه في هذه النعمة، وفي تلك الأمانة قد أضاف إلى محسوده نعمة هي أفضل من كل ما في يديه من النعم.

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها، فإن أردت أن تزن نعمة واقتك فارم بخيرها في فؤاد الحاسد، ثم خالسه نظرة خفيفة، فحيث ترى الكآبة والهَم فهناك جمال النعمة وسناؤها. ليس بين النعم التي يُنعم بها الله على عباده نعمة أصغر شأنًا، وأهون خطرًا من نعمة ليس لها حاسد. فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فقف بها في سبيل الحاسدين، وألقها في طريق الناقمين، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها، فأعلم أنهم قد منحوك لقب «المحسود»، فليهنأ عيشك وليعذب مؤردك.

إن أردت أن تعرف أي الرجلين أفضل، فانظر إلى أكثرهما نعمة على صاحبه، وكلفا بالغض منه، والنيل من كرامته، فأعلم أنه أصغرهما شأنًا وأقلهما فضلًا.

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة مستقلة يتألم لها المذنب عند حلول أجلها، فالشارب يتألم عند حلول المرض، والمقامر يتألم يوم نزول الفقر، والشارق يتألم يوم دخول السجن.

أما الحاسدُ فعقوبتهُ حاضرةٌ دائمةٌ، لا تُفارقُهُ ساعةٌ واحدةٌ.

إنه سيألم لمنظر التَّعَمَّةِ كُلِّمَا رآها، والنعمةُ موجودٌ من الموجوداتِ الثابتةِ التي لا يُلْمُ بها إلا التَّنْقُلُ مِنْ مَظْهَرٍ إِلَى مَظْهَرٍ، والتحوُّلُ مِنْ مَوْقِفٍ إِلَى مَوْقِفٍ، فهيهاتِ أَنْ يَفْنَى أَلْمُهُ، أَوْ يَنْقُضِي عَذَابَهُ حَتَّى تَقَرَّ عَيْنُهُ الَّتِي تُبْصِرُ، وَيَسْكُنَ قَلْبُهُ الَّذِي يَنْبُضُ.

الحسدُ مَرَضٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْقَلْبِيَّةِ الْفَاتِكَةِ. وَلِكُلِّ دَاءٍ دَاوَاءٌ، وَدَوَاءُ الْحَسَدِ أَنْ يَسْلِكَ الْحَاسِدَ سَبِيلَ الْمَحْسُودِ، لِيَبْلُغَ مَبْلَغَهُ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ الَّتِي يَحْسُدُ عَلَيْهَا، وَلَا أَحْسَبُ أَنَّهُ يُنْفِقُ مِنْ وَقْتِهِ وَمَجْهُودِهِ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ أَكْثَرَ مِمَّا يُنْفِقُ مِنْ ذَلِكَ الْعَظْسِ مِنْ شَأْنِ مَحْسُودِهِ، وَالنَّيْلِ مِنْهُ. فَإِنْ كَانَ يَحْسُدُهُ عَلَى الْمَالِ، أَوْ الْأَدَبِ فَلْيَتَأَدَّبْ، فَإِنْ بَلَغَ مِنْ ذَلِكَ مَازِيَةً فَذَلِكَ، وَإِلَّا فَحَسْبُهُ أَنَّهُ مَلَأَ فِرَاقَ حَيَاتِهِ بِشُؤْنٍ لَوْلَاهَا لِقْضَاهَا بَيْنَ الْغَيْظِ الْفَاتِكِ، وَالْكَمَدِ الْقَاتِلِ.



الوفاء



يا صاحب النظرات

تزوَّجْتُ مِنْذُ سَنَةٍ مِنْ زَوْجٍ صَالِحَةٍ طَيِّبَةِ الْقَلْبِ وَالسَّرِيرَةِ، فَاعْتَبَطْتُ
بعشرتها برهةً مِنَ الزَّمَانِ، وَقَدْ عَرَضَ لَهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ رَمَدٌ فِي عَيْنَيْهَا
فَذَهَبَ بِبَصَرِهَا فَأَصْبَحَتْ عَمِيَاءَ، وَأَصْبَحْتُ أَعْمَى بِجَانِبِهَا، وَقَدْ بَدَأَ لِي
أَنْ أُطْلِقَهَا وَأَتَزَوَّجَ مِنْ غَيْرِهَا.. فَمَاذَا تَرَى؟

«إنسان»



أيها الإنسان..

لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ كَانَ عَلَيْكَ إِثْمُ الْخَائِنِينَ وَجُزْمُ الْغَادِرِينَ، وَكُنَ الْيَوْمَ
أَحْرَصَ عَلَيَّ بِقَاتِلِهَا بِجَانِبِكَ مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ لِتَسْتَطِيعَ أَنْ تَدْخِرَ لِنَفْسِكَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ
الْمَثُوبَةِ وَالْأَجْرِ مَا يَدْخِرُ أَمْثَالُكَ مِنَ الصَّابِرِينَ الْمُحْسِنِينَ.

لَا تَقُلْ إِنَّهَا عَمِيَاءٌ فَلَا خَيْرَ لِي فِيهَا، وَلَا غِبْطَةَ لِي بِهَا، فَإِنَّكَ سَتَجِدُ بَيْنَ جَنبَيْكَ مِنْ

النظرات الجزء الثاني

لَذَّةِ الْمُرُوءَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْجُودِ وَالْإِيثَارِ مَا يَحْسُدُكَ عَلَيْهِ النَّاعِمُونَ بِالْحُورِ الْحِسَانِ،
فِي مَقَاصِيرِ الْجَنَانِ.

اجلس إليها صباحك ومساءك، وحادثها مُحَادَثَةَ الصَّدِيقِ صَدِيقَهُ، بل الزوج زوجته
وتلطف بها جُهدك ورووح عن نفسها ما يساورها من الهموم والكروب وقُل لها: لا
تجزعي ولا تحزني؟ وإنما أنا بصرك الذي به تبصرين ونورك الذي به تهتدين.

أعيدك أيها الإنسان بالله ورحمته، والعهد وزمامه، ألا تجعل لهذا الخاطر السيئ -
خاطر الطلاق والفراق - سبيلاً إلى نفسك، فإنها لم تُسئِ إليك فتسيء إليها، ولم
تَنقُضْ عهدك فتَنقُضْ عهدها، فإن كنت لا بدَّ نائراً لنفسك فائأز من القدر إن استطعت
إليه سبيلاً.

إن عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضب فيمد يده بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه،
ويعتدي عليه.

إن لم يكن احتفاظك بزوجك وإبقاؤك عليها عدلاً يسألك الله عنه فليكن إحساناً
تحاسبك الإنسانية فيه.

إنك قد خسرت بصرها، ولكنك ستربح قلبها، وحسب الإنسان من لذة العيش
وهناؤه في هذه الحياة قلب يخفق بحبه، ولسان يهتف بذكره.

إنها أسعدتكَ برهة من الزمان، فليخفق قلبك رحمة بها، بقدر ما خفق سُروراً
بعشرتها.

لا أحسب أنها كانت تاركتك، أو غادرتك، لو أن هذا السهم الذي أصابها قد
أصابك من دونها، فأحرص الحِرْصَ كُلَّهُ على ألا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك إلى
فضيلة الصدق والوفاء.

إلى من تعهد بها بعد فراقك إياها؟! وأي موطن من المواطنين هيأته لمقامها؟!
وماذا أعددت لها من الوسائل التي تستعين بها على عيشها، وتأنس بها في وحشيتها
ووحدتها؟!!

كيف يهنا لك عيش، أو يغمض لك جفن، إذا أظلت الليل فذكرتها وذكرت أنها
نُقَاسِي فِي وَحْدَتِهَا مِنَ الْوَحْشَةِ مَا لَا يُقْبَلُ لَهَا بِاحْتِمَالِهِ، وأنها ربما طلبت جرعة ماء
فلا تجد من يقدمها إليها، أو كسرة خبز فلا تجد من يدلها عليها، أو ربما قامت من

مُضَجِعِهَا فِي سُكُونِ اللَّيْلِ وَهُدُوئِهِ تَتَلَمَّسُ الطَّرِيقَ إِلَى حَاجَةٍ مِنْ حَاجَاتِهَا فَأَخْطَأُ
تَقْدِيرُهَا فَصَدَمَهَا الْجِدَارُ فِي جَبِينِهَا صَدْمَةً أَسَالَتْ دَمَهَا حَتَّى امْتَزَجَ بَدَمِهَا؟!
أيها الإنسان...

إِنْ لَمْ تَكُنْ عَادِلًا وَلَا وَفِيًّا وَلَا مُحْسِنًا فَارْحَمْ نَفْسَكَ مِنْ هَذَا الْخِيَالِ الَّذِي لَا بَدَّ أَنَّهُ
سَيُسَاوِرُكَ، وَيَنْقُتُ فِي عَضْدِكَ وَيُزَعِّجُكَ مِنْ مَرَقِدِكَ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذَا وَلَا ذَاكَ، فَغَيِّرْكَ
أَخْطَبُ؛ لِأَنِّي لَا أَحْسِنُ إِلَّا مَخَاطَبَةَ الْإِنْسَانِ.

إِنِّي مَحْدُنُّكَ عَنْ صَدِيقٍ لِي مِنْ كِرَامِ النَّاسِ وَأَوْفِيائِهِمْ تَرْوِجُ امْرَأَةً حَسَنَاءٍ فَاغْتَبَطُ
بِهَا بَرَهَةً مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ أَصَابَهَا الدَّهْرُ بِمِثْلِ مَا أَصَابَ بِهِ زَوْجَكَ، وَلَمْ يَتْرِكْ لَهَا مِنْ ذَلِكَ
النُّورِ الذَّاهِبِ إِلَّا كَمَا تَتْرِكُ الشَّمْسُ مِنَ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ فِي حَاشِيَةِ الْأَفْقِ. فَلَمْ يُقْنِعْهُ مِنَ
الْوَفَاءِ لَهَا أَنْ اسْتَبْقَاهَا وَاسْتَمْسَكَ بِهَا، بَلْ كَانَ يَحْرُصُ جُهْدَهُ عَلَى الْآ تَعْلَمُ أَنَّهُ يُنْكِرُ
مِنْ أَمْرِهَا شَيْئًا، فَكَانَ يَعْتَبُ عَلَيْهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَاءِ فِي أَشْيَاءٍ لَا يُوَازِئُهَا عَادَةً إِلَّا
النَّاظِرُونَ الْمَبْصُرُونَ، يَرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يُلْقَى فِي رُوعِهَا أَنَّهُ لَا يَزَالُ يُعَدُّهَا نَازِرَةً مُبْصِرَةً
وَأَنَّهُ لَا يَرَى شَيْئًا جَدِيدًا طَرَأَ عَلَيْهَا، رَحْمَةً بِهَا وَإِبْقَاءً عَلَى مَا كَانَتْ تَحِبُّ أَنْ تَحَاوِلَهُ
مِنَ الْإِعْتِدَادِ بِنَفْسِهَا وَالْإِدْلَالِ بِمَزَايَاهَا.

وَلَقَدْ قَرَأْتُ جُمْلَةً صَالِحَةً مِنْ نَوَادِرِ الْعَرَبِ فِي آدَابِهِمْ، وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمْ وَرِقَّةِ
شُعُورِهِمْ وَلُطْفِ وَجْدَانِهِمْ، فَلَمْ أَرْ بَيْنَهَا نَادِرَةً أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ، وَلَا أَجْمَلَ أَثْرًا فِي
الْقَلْبِ، مِنْ قَوْلِ أَبِي عُيَيْنَةَ الْكَاتِبِ الْمَعْرُوفِ فِي عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، وَكَانَ كَفِيفَ
الْبَصْرِ: اخْتَلَفْتُ إِلَى الْقَاضِي أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَّادٍ أَرْبَعِينَ عَامًا فَمَا سَمِعْتُهُ مَرَّةً يَقُولُ
لِغُلَامِهِ عِنْدَ تَشْيِيعِي، خُذْ بِيَدِهِ يَا غُلَامَ، بَلْ يَقُولُ أَخْرُجْ مَعَهُ يَا غُلَامَ.

فَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ يُسَجَّلَ لَكَ مِنَ الْوَفَاءِ فِي صَفْحَاتِ الْقُلُوبِ، مَا سَجَّلَ لِأَحْمَدَ بْنِ
أَبِي دَوَّادٍ فِي صَفْحَاتِهِ التَّارِيخِ، فَلَا تُطَلِّقْ زَوْجَكَ، وَلَا تَنْقِمِ مِنْهَا أَمْرًا قَدْ خَرَجَ حُكْمُهُ
مِنْ يَدِهَا. وَإِنْ أَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَأْخُذَ لِنَفْسِكَ حَظًّا مِنْ لِدَائِدِ الْعَيْشِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا مِنْ لَذَّةٍ
يَتَمَتَّعُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ إِلَّا وَيَسُوبُهَا الْكَدْرُ، أَوْ يُعَقِّبُهَا الْأَلَمُ، إِلَّا لَذَّةَ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ.



خبايا الزوايا



جلس قاضي التحقيق ليلة أمس على كرسي قضائه، ووقف عن يمينه رجل من ذوي الأسنان^(١) قَدَّر «دميم» المنظر، تَسَنَّحَ شعرائه البيض في بادية رأسه ولحيته سنوح الشرر الأبيض في الدخان الأسود، وتمشى في أديم وجهه غبرة قاتمة من رآها علم أنها نسيج دخان الحشيشة، الذي ينفثه من فيه صباحه ومساءه وغدوه ورواحه. ووقف عن يساره صبيبة ستة نحل الأبدان جوع الأكباد، لم يترك لهم الدهر - أكل الناس شاربهم - إلا هيكلًا من العظم تلمع في رأسه عينان جائلتان، لا تستقران في محجرَيْهما إلا إذا استقرَّ الزئبق الرجراج في قرار مكين.

نظر إليهم قاض التحقيق نظرات تمازجها الرحمة، وتخالطها الشفقة، والقضاة لا يرحمون ولا يشفقون، لولا أن من المناظر مناظر تستهوي القلوب القاسية، وتديب الأفتدة المتحجرة، وأنشأ يسألها واحدًا فواحدًا ما شأنهم؟ وما خطبهم؟ وما مصيرهم؟ فكان جوابهم جوابًا واحدًا خلاصته أن هذا النمر اللبس الإنسان رأي خلتهم^(٢) من حيث يخفى مكانها فنغر^(٣) فيها ثغرة انحدر منها إلى أعراضهم، فعبث بها ما شاء وشاء العابثون، فكانوا في دارة الضروع التي يحتلها، حتى إذا استنفذ ذرنها ألح على دمايتها فاستنزفها، ثم قالوا إنه كان يديم مطال الجوع في بطونهم فإذا علم أنهم هلكوا أو كادوا طفق يغللهم باللقمة بعد اللقمة، والمضغعة بعد المضغعة، ويرمقهم العيش ترميقًا لا إبقاء عليهم، بل على ما يصل إلى يده من المال من طريقهم. ورعّموا أنه كان يريه منهم في بعض الأحيان تمردهم عليه واحتفاظهم بأعراضهم من دونه فيملا أدمغتهم بدخان الحشيشة ليسرق عقولهم، ويحل عقدة إياهم، ويتركهم لا يدرون ما يأتون وما يدعون. وما وصلوا من شكواهم إلى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدي القاضي. فراعهُ من أمرهم ما راعهُ، ثم علم أنه الجوع فأمر لهم بخبز وأدم

(٢) الخلة: الحاجة.

(١) جمع سن: وهو العمر.

(٣) ثغر الشيء: ثلمه وفتحه.

فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدراد الوحش فريسته. وقد وقف ذلك الذئب المستأنس ينظر إليهم نظرة شزراء كتلك النظرة التي يرمي بها الصائد صيده إذا أفلت من جبالته. بذلك حدثني من رأى هذا المنظر بعينه، فارتعت لسماع حديثه الارتياح كله، وحسبت أنه يحدثني عن حادثة وقعت في مبدأ الخليفة في مغارة من مغاور الجن أو شفعة من شفعات الجبال، وقلت له: أتعلم، أيها الرجل، أنك تحدثني عن إنسان؟ قال: لا تعجل، فما حدثتُك إلا عن رجل حمار لا يفارق وجهه صورة حماره ليله ونهاره، وربما سرت إليه تلك النتيجة من هذه المقدمة. فكيف بك لو علمت أن هذه الرذيلة لا يترفع عنها في هذا البلد كثير من الأتقياء والصالحين، والأشراف والمستورين؟ قلت: لا تحدثني عن شيء، فلم يتق في قلبي متسع، لاحتماله أكثر مما احتملت، والأمر لله وحده. ليست مسألة الزوايا وخبايها أمرًا يستهان به، أو تغضي العيون عليه فإننا نريد أن نعد لوطننا رجالًا ذوي شجاعة وإقدام، وعزة وأنفة، من الذين إذا عظم الخطب كانوا حماة الديار، وإذا اشتد البأس لا يؤلون الأدبار.



القمار



لا أستطيع أن أعتقد ما يسمونه الجنون الفرعي، ويريدون منه أن يكون الإنسان مجنونًا في شأن واحد من شئونه، عاقلًا في باقيها. وعندي أن الرجل إما أن يكون عاقلًا أو مجنونًا، ولا ثالث لهما.

العقل قوة يقتدر بها المرء على ضبط نفسه عن شهواتها، فموقفه أمامها موقف واحد، فإما أن يغلبها جميعًا أو تغلبه جميعها.

أما ما يراه الرائي أحيانًا من استهتار الرجل في بعض الشهوات استهتارًا يستهلك نفسه وعقله، ورُهده في بعض رُهد الإغفاء القانعين؛ فذلك لأنه رغب في الأولى فاسترسل وراء رغبته، ولم يدعه إلى الأخرى داع من شهوات قلبه ونزعات نفسه، ولو دعاه لخصف إليه ولبأه. ولن يسمي الرجل زاهدًا أو عفيفًا إلا إذا أمسك نفسه من شهوة تدعوها إليها فيدفعها، وتشور تآثرتها بين جنبه فيقمعها.

لا تَقُلْ إِنْ السَّكِّيرَ عَاقِلٌ إِنْ رَأَيْتَهُ غَيْرَ فَاسِقٍ وَلَا عَاهِرٍ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ يُؤَثِّرُ الْفَسْقَ وَلَا تَجْدُبُهُ إِلَيْهِ جَوَادِثُهُ، وَلَوْ آثَرَهُ لَكَانَ مَوْقِفُهُ مِنَ الْمَوَاقِيرِ مَوْقِفُهُ مِنَ الْحَانَاتِ. وَلَا تَقُلْ إِنْ الْفَاسِقَ عَاقِلٌ إِنْ رَأَيْتَهُ غَيْرَ سَارِقٍ وَلَا مَخْتَلِسٍ، فَإِنَّهُ لَا يَحِبُّ السَّرْقَةَ وَلَا الْاِخْتِلَاسَ، وَلَوْ أَنَّهَا أَحْبَبَهُمَا لَكَانَ فِي التَّسَلُّلِ إِلَى أَعْمَاقِ الدُّورِ وَالْقُصُورِ، أَبْرَعَ مِنْهُ فِي التَّسَلُّلِ إِلَى مَكَامِنِ الْفَسْقِ وَالْفُجُورِ. وَلَا تَقُلْ إِنْ الْمَقَامِرَ عَاقِلٌ إِنْ رَأَيْتَهُ لَا شَارِبًا وَلَا فَاسِقًا، فَإِنَّ الْقِمَارَ قَدْ اسْتَهْلَكَ شَهْوَتَهُ وَاسْتَحْلَصَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَدَعْ فِيهَا فَضْلَةً لِسِوَاهَا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ أَكْبَرَ السَّارِقِينَ، وَأَفْسَقَ الْفَاسِقِينَ.

ولو كنت من المصانعين، الذين يُزخرفون لأرباب الرذائل رذائلهم حتى يُصوِّروها في نظرهم فضائل بما يُلبسونها من أثواب التأويل ويصُبُّونها من ألوان التعليل، لَمَا استطعت أن تُصانع المقامر؛ لأنَّ حاله من الجهل الفاضح، والغباوة المُستَحْكَمَة، أبعَدُ الحالاتِ عن عُذر المعتذرين، وتأويل المُتَأَوِّلِينَ.

ما جلس المقامر إلى مائدة القمار، إلا بعد أن استقرَّ في ذهنه أنَّ الدرهم الذي في يده سيتحوَّل بعد هنيهة من الزمن إلى دينار، ويعودُ به إلى أهله فرحاً مُغْتَبِطاً. وأحسب أن العقول العشرة مُجْتَمِعَةً ومُتَفَرِّقَةً تعجزُ عن إدراك هذه العقيدة ومثارها.

إن كان يؤمل الريح؛ لأنه يرى عن يمينه رجلاً قد ربح، فلم لا يخاف الخسران؛ لأنه يرى في بعض مواقفه أحد الرابحين ضاحكاً، فلم لا يئس له منظر أصدقائه الخاسرين، وهم يتساقطون حوليهِ تساقطُ جنود المعركة تحت القذائف المُنْطَلِقَة؟

ما أشبه المقامر الذي يطلب من الدينار الواحد مائة دينار بالكيميائي الذي يطلب من القصدِيرِ فِضَّةً، ومن النحاس ذهباً يتاجر بالأحلام في سوق الأوهام، فيربح ربحاً مقلوباً ويكسب كسباً معكوساً. وما أشبههُمَا جَمِيعًا بذلك الرجل الذي علم أنَّ في صحراء من صحاري أواسط أفريقيا كنزاً دفيناً لا تُعرف له بقعة مُعَيَّنَة، وليس عليه دليل، فحمل فأسه على كفيه ومشى في تلك الصحراء يحفر الحفرة التي تستنفذ قوته وتستهلك مئنته.. وتبلغ من نفسه ما لا يبلغ كثر الغداة مرَّ العشي.. حتى إذا بلغ قرارها.. وعلم أنه لم يعثر بضالته.. وتركها وبدأ يحفر غيرها بجانبها.. فلا يكون نصيبه من الأخرى أوفر من نصيبه من الأولى.. وهكذا حتى أدركه الموت، وهو في بعض تلك

الحُفْرَ.. فكان هو نفسه الكنزَ الدفينَ.. إلا أنه كنزٌ لا يطمعُ فيه طامعٌ ولا يرغبُ فيه راغبٌ.

إن كنتَ لم تَسْمَعْ في حياتِكَ باجتماعِ النقيضينِ وتلاقيِ الضدينِ، فأعلمْ أنَّ المقامرَ في آنٍ واحشِدِ أجشعُ الناسِ، وأزهْدُ الناسِ، فلولا حُبُّه المالَ لما هانَ عليه أن يبدلَ راحتَهُ وشرَفَهُ وسعادَتَهُ وحياتَهُ في سبيله! ولولا زُهْدُهُ فيه لما أقدمَ باختياره على تبديدهِ على مائدةِ القمارِ لا لغايةٍ يطلبُها ولا لمأربٍ يسعى إليه.

أنا لا أريدُ أن أنصحَ للمُقامِرِ بتزكِ القمارِ؛ لأنِّي أعتقدُ أنَّ مَنْ يملكُ عقلًا مثلَ عقله، وفهْمًا مثلَ فهمه، لا يستطيعُ أن يفهمَ كلمةً ممَّا أقولُ، ومَنْ عَجَزَتْ حوادثُ الدهرِ وعَبُرَ الأيامُ عَن أن تردَّ عليه ضالَّةٌ عقله وتهديه السبيلَ إلى نفسه لا تنفعُه كلمة كاتب، ولا مؤعظةٌ واعظٍ. وإنما أريدُ أن أقولَ للذين لم يُقدِّرْ لهم أن يخطوا خطوةً واحدةً في هذه الطريقِ الوعرةِ حتى اليوم: لا تقامروا جدًّا ولا هزلًا، فإنَّ هزلَ القمارِ يجرُّ إلى جدِّه، ولا تمرُّوا بمعاهدِ القمارِ قَصْدًا ولا عَفْوًا، فإنَّ مَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أن يَقَعَ فيه، ولا تُصاحِبُوا المقامرينَ بحالٍ من الأحوال؛ فإنهم لا يرضونَ عنكم حتى تتخذوا ملَّتَهُم، فإن فعلتُم خَسِرْتُم مَالَكُم وشرَفَكُم وعِزَّتَكُم وكرامَتَكُم من حيث لا تجدونَ من رحمةِ القلوبِ ورأفتِها ما يُعوِّضُ عليكم ما خَسِرْتُم. فأرحموا أنفسَكُم إن كنتم راحمين، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين.



الأوصياء



مرضَ فلانٌ مَرَضَ الموتِ فلم يحفلْ بالمنية؛ لأنه اقتطفَ زهرةَ الحياةِ جميعها ولأنَّ الثمانينَ قد أَلَحَّتْ عليه بَصْبِحِها ومَسائِها، وليلِها ونهارِها، فلم تتركْ له خيطًا من خيوطِ الأملِ، ولا شعاعًا من أشعةِ الرجاءِ لولا أنَّ بينَ يديه ولَدًا صغِيرًا في السابعةِ من عُمره قد ماتتْ أمُّه منذَ عهدٍ قريبٍ. والشيوخُ الكبارُ يحنونَ إلى أبنائهم الصغارِ حينَ الإيلِ إلى أعطانها، فنظرَ إليه وهو يحومُ حولَ فراشه، نظرةً طويلةً لم يَسرِجِها إلا مُبلِّلةً بالدمعِ المنسجمِ، ثم زَفَرَ زَفْرَةً حَرِّيَّ حَيْلٍ لرائِثِها أنها الزفرةُ الأخيرةُ، وأنشأ يقولُ: أيُّ بُنيِّ، مَنْ له بقلبِ يراعِكَ مثلُ قلبي، وعينِ تسهرُ مثلَ عيني، وروحِ تُرفرفُ فوقَ رأسِكَ مثلَ رُوحِي، ونفسي تَضُمُّ جِوانِحِها عليكِ مثلَ نفسي؟

أيُّ بُنيِّ كَأني برُكْبِ الموتِ، وقد نَزَلَ بي، وحلَّ بساِحَتِي، وكَأني به، وقد احتَمَلَنِي من فضاءِ القصرِ إلى مَضيقِ القبرِ، ومن نُورِ الحياةِ، إلى ظِلْمَةِ الموتِ وكَأني بكِ، وقد طَفَفَتْ تَشُدُّنِي فلا تَجِدُنِي، وتَفُتِّشُ فلا تَرانِي، ففَزَعَتْ وارتَعَتْ، ثم صرَختْ فَصَعِقَتْ، ولم تَجِدْ بجانِبِكَ مَنْ يمسُحُ دمعَكَ ويخفِّفُ حزنَكَ.

مَنْ لي بصديقٍ أثقُ بوَدِّهِ وإِخلاصِهِ، ورَحمتِهِ وحنانِهِ، فأَكِلُ إليه أمرَكَ وأَعتمدُ عليه في تأديكِ وتخريجكِ، وإِبلاغِكَ ما أَرجوُ لكِ مِنَ السعادةِ في مُستقبلِ دَهْرِكَ؟!

فما أتمَّ نِجاءَهُ حتى دَخَلَ عليه صديقُهُ الوحيدُ الذي كانَ يَأنسُ بِهِ ويستخلصُهُ لنفسِهِ، وقد سَمِعَ آخِرَ نِجَواه، فقالَ له: هَوْنٌ عليكِ يا مولايِ فأنا صديقُكَ الذي نَشُدُّه، وأنا والدُ وَلَدِكَ مِنْ بعدِكَ، وخليفَتُكَ بعدَ اللهِ عليه، ثم تهافَتَ على فراشه وظلَّ يبكي لبكائِهِ، وينشِجُ لنشيجِهِ، فاستنارَ قلبُ الرجلِ بنورِ الأملِ وقال: أحمَدُكَ اللهُمَّ قد رحمتَ ولدي وحفظتَ بيتي.

وما هي إلا أيامٌ قلائِلُ حتى كَتَبَ الشَيْخُ كتابَ الوصيةِ بيده، ثم أجابَ دعوةَ رَبِّهِ تاركًا في يدِ ذلكِ الصديقِ الكريمِ مجدهُ وشرَفَهُ، ومالَهُ ووَلَدَهُ.

اتَّخَذَ الشَّيْخُ ذَلِكَ الرَّجُلَ صَدِيقًا لَهُ فِي الْأَعْوَامِ الْأَخِيرَةِ مِنْ أَعْوَامِ حَيَاتِهِ بَعْدَمَا رَأَى
يُكثِرُ الْاِخْتِلَافَ إِلَيْهِ، وَيُطِيلُ اللَّبَثَ بِجَانِبِهِ، وَيُلَازِمُ الْوُقُوفَ عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَيَخْفُفُ
لِقَضَاءِ حَاجَاتِهِ. ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَ يَرَاهُ مَتَّجِمًّا بِهِ مِنْ صَلَاحِ مَمْلُوءَةٍ بِالرَّكَعَاتِ
وَالسَّجَدَاتِ، وَالتَّسْبِيحَاتِ الْمُتَوَالِيَاتِ، وَعِفَّةٍ حَتَّى فِي حَضْرَتِهِ.. فَاسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِهِ..
وَأَنْزَلَهُ مِنْ قَلْبِهِ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي لَا يَنْزِلُ مَعَهُ فِيهَا غَيْرُ وَلَدِهِ.. وَأَصْبَحَ أَثَرُ النَّاسِ عِنْدَ الْأَجْلِ،
فَأَوْصَاهُ بِمَا أَوْصَى، وَعَهَّدَ إِلَيْهِ بِمَا عَهَّدَ.

هذا هو تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ، أما تاريخه بعد مماته فأسمِعْكَ مِنْهُ مَا
تَهْوَى لَهُ الْأَفْلاكُ عَجَبًا، وَتَحْتَزُّ لَهُ الْجِبَالُ هَذَا.

لَمْ تَكُنْ صَلَاتُهُ إِلَّا رِيَاءً وَنِفَاقًا، وَرُكُوعُهُ وَسُجُودُهُ إِلَّا كَيْدًا وَمُدَاهِنَةً، وَعِفَّتُهُ وَزَهَادَتُهُ
إِلَّا حِبَالًا نَصَبَهَا لِيَعْلَقَ بِهَا عَقْلُ الشَّيْخِ، وَقَدْ عَلِقَ، فَيَسْلُبُهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَقَدْ فَعَلَ. وَمَا
كَانَ اِخْتِلَافُهُ إِلَيْهِ، وَلَا تَرُدُّهُ عَلَيْهِ إِلَّا طَمَعًا فِي هَذَا الْمَصِيرِ الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ. فَلَمَّا عَلِمَ أَنْ
قَدْ تَمَّ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَا أَرَادَ، أَطْلَقَ يَدَهُ فِي مَالِ الصَّغِيرِ يَعْثُ بِهَ عَثَثَ النَّكْبَاءِ بِالْعُودِ، وَيَبْتَاعُ
بِهِ لِنَفْسِهِ مَا شَاءَ أَنْ يَبْتَاعَ مِنْ قُصُورٍ وَدُورٍ وَبَسَاتِينَ وَضَبَاعٍ، فَنَبَهَ ذِكْرُهُ بَعْدَمَا كَانَ خَامِلًا،
وَتَبَّتْ رِيشُهُ بَعْدَمَا كَانَ عَارِيًا، وَأَصْبَحَ صَاحِبَ السُّلْطَانِ الْمَطْلُوقِ فِي ذَلِكَ الْقَصْرِ يُذَلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيُعَزُّ مَنْ يَشَاءُ.

أما شأنه مع الولد فقد عَلِمَ أَنَّهُ سَيَلِغُ عَمَّا قَلِيلٍ أَشَدَّهُ، وَيَمْلِكُ رُشْدَهُ وَأَنَّهُ سَيَقْطَعُ
عَلَيْهِ لِدَنَتَهُ، وَيَقِفُ مَوْقِفَ الْمُعْتَرِضِ سَبِيلَهُ، وَيَحَاسِبُهُ عَلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، وَالصَّغِيرِ
وَالكَبِيرِ، فَلَمْ يَرِ بُدًّا مِنْ أَنْ يُعِدَّ لِذَلِكَ الْيَوْمِ عُدَّتَهُ. فَعَمَدَ إِلَى الْوَلَدِ فَقَطَعَهُ عَنِ الْمَدْرَسَةِ؛
لأنه لَا يُحِبُّ أَنْ يَنْشَأَ مُتَعَلِّمًا، ثُمَّ أَعْرَى بِهِ مَنْ سَاقَهُ إِلَى مَوَاطِنِ الْفُسُوقِ وَجَامِعِ الْفُجُورِ،
لأنه لَا يُحِبُّ أَنْ يَنْشَأَ عَاقِلًا. وَمَا زَالَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُوَكَّلِينَ بِإِفْسَادِهِ مِنْ وَرَاءِ
حِجَابٍ حَتَّى عَلِقَ الشَّرَابُ بِرَأْسِهِ عُلُوقَ السَّلَالِ (١) بِالصُّدُورِ، فَأَصْبَحَ بَيْنَ الْحَانَاتِ
وَالْمَوَاخِيرِ كَالطَّائِرِ بَيْنَ الْأَغْصَانِ لَا يُرْسِلُ السَّاقَ إِلَّا مُمَسِّكًا سَاقًا.

فكأنما وَكَلَّ بِعَقْلِهِ مَقْرَاضًا يَبْضَعُ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْهُ بَضْعَةً حَتَّى كَادَ يَأْتِي عَلَيْهِ.
فَمَا بَلَغَ السَّنَ الَّتِي يَرُشِدُ فِيهَا الْقَاصِرُونَ حَتَّى اسْتَحَالَ الْوَصِيَّ عَلَى الْقَاصِرِ قِيَمًا عَلَى
الْمَعْتَوِهِ، وَلَمْ يَبْدُلْ فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ لُقِيَمَاتِ أَلْقَاهَا مِنْ فِتَاتِ تِلْكَ
الْمَائِدَةِ إِلَى أَعْضَاءِ الْمَجْلِسِ الْحَسْبِيِّ، فَأَدْخَلُوهُ تِلْكَ الْجَنَّةَ الزَّهْرَةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

(١) السَّلَالُ: مَرَضُ السَّل.

شَرَعَ اللهُ شَرِيعَةَ الْحَجْرِ عَلَى السَّفَهَاءِ وَالْمَعْتُوهِينَ، وَإِقَامَةَ الْقَوَامِ عَلَيْهِمْ رَحْمَةً بِهِمْ، فَاسْتَحَالَتْ عَلَى يَدِ الْمَجَالِسِ الْحَسِبِيَّةِ نَقْمَةً عَلَيْهِمْ، وَأَصْبَحَ اللَّصُّ الَّذِي يَجْهَلُ صِنَاعَةَ فَتْحِ الْأَقْفَالِ وَيَتَّقِي مَغْيَبَةَ تَسَلُّقِ الْجُدْرَانِ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَسْرِقَ مَا يَشَاءُ تَحْتَ رَايَةِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْمَقْلُوبَةِ مِنْ حَيْثُ يَأْمُنُ عَلَى نَفْسِهِ الْوَقُوفِ أَمَامَ مَحْكَمَةِ الْجَنَابَاتِ، وَجَرَّ الْأَغْلَالَ الثَّقَالَ فِي غِيَابَاتِ السَّجُونِ. وَانْتَقَلَتِ الثَّرَوَاتُ الْعَظِيمَةُ مِنْ أَيْدِي أَصْحَابِهَا مَخَافَةَ أَنْ يُسْرِفُوا فِيهَا إِلَى أَيْدِي آخَرِينَ يُبَدِّدُونَهَا تَبْدِيدًا، وَيَمْرُقُونَ أَدِيمَهَا تَمْزِيقًا، مِنْ حَيْثُ لَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَوْرَثِ صِلَةٌ نَسَبَ، أَوْ وَشِجَعَةٌ رَحِمَ، حَتَّى أَصْبَحَ السَّعْيُ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ وَادِّخَارِهِ لِلْوَارِثِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَاطِلَةِ، وَضَرْبًا مِنَ ضُرُوبِ الْخَرَقِ الْوَاضِحِ، وَالْجَهْلِ الْفَاضِحِ.

فمن لي إن أنا دبَّرتُ المالَ وجمَعتهُ أن لا يكونَ خَلِيفَتِي عَلَيهِ مِنْ بَعْدِي لَصًا مِنْ أَوْلِيكَ اللَّصُوصِ الَّذِينَ تَمْنَحُهُمُ الْمَجَالِسُ الْحَسِبِيَّةُ، مَا تَمْنَحُهُمُ الشَّرَائِعُ الْإِلَهِيَّةُ؟! وَمَنْ لِي أَنْ أَعِيشَ إِلَى أَنْ أُدْرِكَ وَلَدِي فَأَتَوَلَّى أَمْرَ تَرْبِيَّتِهِ بِنَفْسِي قَبْلَ أَنْ يَطْفُرَ بِهِ فِي حَدَائِثِهِ ظَفْرٌ جَارِحٍ مِنْ أَظْفَارِ أَوْلِيكَ الْأَوْصِيَاءِ فِيمَيَّتْ نَفْسَهُ، وَيَقْتُلَ عَقْلَهُ. وَيُفْسِدَ عَلَيْهِ حَيَاتِهِ، وَيُلْبِسَهُ مِنَ الْفُضِيحَةِ وَالْعَارِ مَا يُقْلِقُ نَفْسِي فِي عَالَمِهَا، وَيُزَعِّجُ عِظَامِي فِي مَرْقَدِهَا. فَلَقَدْ حَدَّثَنِي مَنْ قَصَّ تِلْكَ الْقِصَّةَ أَنَّ ذَلِكَ الْوَصِيَّ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ قَدَتَمَ لَهُ مِنَ الْحَجْرِ عَلَى ذَلِكَ الْغُلَامِ مَا أَرَادَ، عَمَدَ إِلَى تَرْوِيجِهِ مِنْ فَتَاةٍ حَسَنَاءَ مِنْ بَنَاتِ الْأَشْرَافِ مَا كَانَ يَعْنِيهِ أَنْ يُزَوِّجَهُ مِنْهَا لَوْلَا أَنَّ لَهُ فِي ذَلِكَ مَارَبًا مِنَ الْمَارَبِ الْفَاسِدَةِ. فَإِنِهَا مَا كَادَتْ تَخْلَعُ نُوبَ عُرْسِهَا حَتَّى أَنْشَأَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهَا، وَيُكثِرُ ازْدِيَارَهَا فِي الْجَنَاحِ الَّذِي تَسْكُنُهُ مِنَ الْقَصْرِ، بِمَا لَهُ عَلَى زَوْجِهَا وَعَلَيْهَا مِنْ حَقِّ الْوَلَايَةِ وَالرَّعَايَةِ، وَبِحُجَّةِ النَّظَرِ فِي شَتُونِهَا وَمَرَافِقِهَا.

ثم ما زال يَخْتُلِفُهَا عَنْ نَفْسِهَا وَيُزَيِّنُ لَهَا مَا يُزَيِّنُهُ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ حَتَّى عَلَقَتْ بِحَبَالَتِهِ، كَمَا عَلِقَ بِهَا غَيْرُهَا مِنْ قَبْلِهَا، فَكْرَهَتْ زَوْجَهَا، وَبَرَمَتْ بِهِ فَرَايَهُ مِنْ أَمْرِهَا مَا رَأَيْتُهُ، فَرَصَدَهَا لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي حَتَّى عَرَفَ سِرَّهَا وَمَوْضِعَ هَوَايَا، فَشَكَا فَلَمْ يَجِدْ سَامِعًا، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَجِدْ رَاحِمًا فَكَانَ يَقْضِي كَثِيرًا مِنْ لَيَالِيهِ فِي غُرْفَةٍ مِنْ غُرَفِ الْقَصْرِ وَاجِمًا مُطْرَقًا مُسَلِّمًا رَأْسَهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَدَمْعُهُ إِلَى خَدَيْهِ، لَا سَمِيرَ لَهُ، وَلَا مُؤَنَسَ إِلَّا رَنَاتُ الضَّحِكَاتِ الَّتِي تَنْهَلُ عَلَيْهِ مِنْ مَخْدَعِ زَوْجِهِ. فَكَانَ يَشُبُّ تَارَةً وَثْبَةَ الْأَسَدِ فَيَثِيرُ فِي الْقَصْرِ نَائِرَةٌ شِعْوَاءَ تَضِجُ لَهَا جَوَائِبُهُ، فَيَتَسَارَعُ إِلَيْهِ الْخَدَمُ

فيضربون على يدهِ وفمه، وأخرى يعودُ إليه بلهه وخبلة، فينظرُ إلى هذه المناظرِ المؤلمةِ نظرَ الضاحكِ اللّاعِبِ.

مَرَّت على تلك الحوادثِ سنواتٌ استأثرت فيها ذلك الوصيُّ بتلك الدائرةِ الواسعةِ وألحَّ عليه بكلِّكليه، حتَّى اجتزَّ وُبُرْها، ثم استكشَطَ جلدَها فلم يَبَقْ منها إلا هيكلٌ عظيميُّ قائمٌ. فلما عَلِمَ أن قد قامتِ قيامةُ الناسِ عليهن وأنَّ قَصَتَهُ مع الغلامِ وزوجتِه، قد ملأتْ مَسْمَعِ الخافقينِ، وأن نجمه الثاقِبَ قد مالَ إلى الأفولِ، عمَدَ إلى حيلةٍ شيطانيةٍ ختمَ بها تلكَ الروايةَ الغريبةَ بهذا الفضلِ المُحزنِ الأليمِ.

فَتَفَتَّحَ للغلامِ بعدَ انقباضه، وابتَسَمَ إليه بعدَ تقطيعه، وابتاعَ له جميعَ ما اقترَحَهُ عليه من ثوبِ فاخرٍ، ومَرَكَبِ فارهِ، ومزاهرٍ وعيدانٍ وكثوسٍ ودنانٍ، ثم خلا به في ساعةٍ من ساعاتِ نَسْوَتِهِ وارتياحِهِ فقال له: أَيُّها الصِّدِّيقُ، قد آن أوأن استِقلالِكَ بِشأنِكَ وانفِرادِكَ بِأمرِكَ، فاكْتُبْ إلى المجلسِ الحسبيِّ رِقْعَةً تَطْلُبُ فيها رَفْعَ الحَجَرِ عنكَ، واکْتُبْ توقيعَكَ على هذه «المخالصة» براءةً لِدِمَّتِي. فاستَطْبِرَ الغُلامُ فَرَحًا وسُرورًا، وما لبثَ أن كَتَبَ الأولى ووقعَ على الأخرى، ثم أوَعَزَ إلى المجلسِ الحسبيِّ بتلبيةٍ طَلَبَهُ فلبَّاهُ، وقَضَى بِرَفْعِ الحَجَرِ عنه. فاستقبلَ تلكَ النعمةَ استقبالَ الظامئِ كأسِ الشرابِ، وكان لا بُدَّ له مِن أن يشرَبَ حتَّى ييشَمَ، فَفَتَّشَ بين يَدَيْهِ عن مالٍ يُنْفِقُهُ فلم يَجِدْ. وكان الرجلُ قد وَكَّلَ به عَوْنًا من أعوانِهِ يداخِلُهُ ويتَحَيَّنُ فُرْصَةً حاجتِه إلى المالِ فيمنحُه ما يريدُ، فكان يُعطيهِ المالَ باليمينِ، ويأخذُ منه صكَّ البَيْعِ باليسارِ. وما زالَ هذا يُعطي ويأخذُ حتَّى أصبحَ نصفُ «الدائرة» بعدَ عامينِ مُلكًا لعَوْنِ الوصيِّ غَدًا بِشمن لا يُساوي عُشرَ معشارها، بل بغيرِ ثمن. وهل ابتاعها مُبتاعها إلا بمالِها، وأنفقَ عليها إلا ثمرتها؟

هنالك قامَ الوصيُّ وقَعَدَ، ونادى في الناسِ بصوتٍ يُشبهُ صوتَ الحقِّ ونَعْمَةٍ تُشاكلُ نَعْمَةَ الصِّدِّيقِ: أَيُّها الناسِ، قد كنتُ أُنذِرُكُمْ بمصيرِ هذا الغلامِ إن صارَ أمرُهُ إلى نَفْسِهِ، فكذبتم قولي، وسَفَهْتُم رأيي، وما زلتُم تقولون وتقولون حتَّى أحرَجْتُم صَدْرِي، ودَفَعْتُمُونِي إلى الغَدْرِ بِذلك العهدِ الذي أَخَذَهُ عَلَيَّ ذلك الصِّدِّيقُ الكَرِيمُ أن أتولَّى شأنَ وَلَدِهِ مِن بَعْدِهِ، ولا أتخلَّى ساعةً واحِدَةً عن رعايتهِ وتعهديه، فكانَ ما كانَ ممَّا تعلمون مِن تَبْديدِ ثروتهِ وتمزيقِها. فها أنتم تَرَوْنَ بأعينِكُم سُؤْمَ رأيِكُم وجريرةَ سَعِيكُم.

ثم أعادَ كَرَّتَهُ عَلَى الغُلامِ وَسَعَى سَعِيَهُ فِي المَجْلِسِ الحَسَبِيِّ فَأَعَادَ سِيرَتَهُ الأُولَى وَوَضَعَ فِي عُنُقِهِ غِلاَّ لا فَكَاكَّ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ.

ليست شعري، هل يعلم ذلك المقبور في لحدِّه ما صنعت يدُ الحدَّانِ بمالهٍ وولده، وأن المالَ قد ورثه غيرُ وارثه، واستأثرَ به غيرُ صاحبه؟! وأن ولده قد أصبحَ بعد ذلك الملكَ الكبيرَ، والجنَّةَ والحريِّرَ، يطلبُ المُضغَّةَ فتعوزه، والجُرعةَ فتلتوي عليه؟ وأنه يبستُ الليالي ذواتِ العَدَدِ مُطْرَحًا فِي زوايا أَعْدَدَ عُدَّتَهُ للوقوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ تَعَالَى فِي ذلكَ اليَوْمِ المشهودِ؟ يَوْمَ تُكشَفُ الهَنَاتُ، وتُفضَّحُ العوراتُ.. فِيمَسِكُ وَلَدَهُ بِيَمَانِهِ وَوَصِيَّةَ بَيْسْرَاهُ، ثم يُناجي رَبَّهُ ويقول:

«اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى هذا الكاذبِ الَّذِي خَتَلَنِي وَخَدَعَنِي وَخَفَرَ ذِمَّتِي وَخَاسَ بَعْهَدِي وَخَانَ أَمَانَتِي، وَأَفْسَدَ وَصِيَّتِي، وَخَذَ لولدي بِحَقِّهِ مِنْ هذا الظالمِ الَّذِي سَرَقَ مالَهُ، وَهَتَكَ عِرْضَهُ، وَعَذَّبَ نَفْسَهُ، وَنَعَصَّ عَيْشَهُ. فَأَنْتَ أَعْدَلُ الحاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرّاحِمِينَ».



العام الجديد



في مثل هذا اليَوْمِ مِنْ كُلِّ عامٍ يَقِفُ رَكْبُ العالَمِ السائرِ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ منازلِ الحِياةِ، فينزلُ عَن مطاياها لِيَسْتريحَ فِيها ساعَةً مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ بَعْدَ أَنْ نالَ مِنْهُ الأَيْنُ وَالكَلالُ، وَأَضنَّاهُ سُرَى الليلِ وَسَيْرُ النهارِ، ثلاثمائةً وَخَمْسَةَ وَسِتِّينَ يَوْمًا.

هنالك يجتمعُ السَّفَرُ فِي صعيدٍ واحدٍ فيتعارفُونَ وَيَتصافَحُونَ، وَيَتَقَدَّدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فيجدونَ أَنَّ فلانًا ماتَ جوعًا، وفلانًا ماتَ ظمًا، وآخرَ افترسهُ سَبُعٌ، وآخرَ قَتَلَهُ لَصٌّ، وآخرَ ماتَ غيلةً، وآخرَ سَقَطَ عَيْنًا، وآخرَ طارتَ بِهِ قنبلَةٌ، وآخرَ هَوَتْ بِهِ طيَّارَةٌ، وآخرَ اجتاحهُ بركانٌ، وآخرَ تردَّى عَلَيْهِ مَعْدَنٌ. ثم يعودونَ إلى جرائدِ الإحصاءِ فيدُونُونَ فِيها حاضِرَهُمْ، كما دُونُوا ماضيَهُمْ، ثم يوازنونَ بَيْنَ هذا وَذاكَ فيجدونَ أَنَّ الحاضِرَ شَرًّا، وَأَنَّ ميادينَ الحروبِ لا تزالُ مُلوَّنةً بالدماءِ، وَمَصانِعُ الموتِ لا تزالُ تَقْتَنُ

في عدده وتكثر من أدواته، وأن جذور الشر القديمة لا تزال ناشبةً بنفوس البشر، حتى ما يتمنى أحد أن تقع عينه على أحد، وأن سحَبُ البغضاء القائمة لا تزال مُحَيِّمَةً على المجتمع الإنساني من أدناه إلى أقصاه شعوبًا وقبائل وأجناسًا وأنواعًا، ومذاهب وأديانًا، ومنازل وأوطانًا، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه في جنسه، فإن عرف أنه يوافقه أبغضه؛ لأنه يخالفه في دينه، فإن وافقه فيه أبغضه؛ لأنه ينطق بغير لغته، فإن نطق بها أبغضه لأنه لا يشاركه في وطنه، فإن كان مشاركًا له أبغضه لأنه يراحمه في حرفه، فإن بعد عن طريق مراحمته أبغضه؛ لأنه يخالفه في رأيه، فإن لم يخالفه أبغضه لأنه يخالفه في رأيه، فإن لم يحد شيئًا من هذا ولا ذلك أبغضه؛ لأنه شخصٌ سواه! كأن قضاء حتمًا على الإنسان أن يبغض كل صورة غير الصورة التي يراها كل يوم في مرآته.

فإذا فرغوا من النظر في جرائد حسابهم، والموازنة بين حاضرهم وماضيهم، أضافوا إلى سيئاتهم الماضية سيئة الغش والكذب. فتناسوا كل هذا ووضع كل منهم يده في يد أخيه مهنتًا له بالعيد السعيد داعيًا له بدوام الغبطة والهناء، ثم تنادوا للرحيل؛ ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية.

علام يهني الناس بعضهم بعضًا؟ وماذا لقوا من الدنيا فحرصوا على البقاء فيها؟ واغبطوا المراحل التي يقطعونها منها؟ وهل يوجد بينهم شخص واحد يستطيع أن يزعم أنه أصبح سعيدًا كما أمسى؟ أو أمسى سعيدًا كما أصبح؟ أو أنه رأى بريق السعادة قد لمع في إحدى ليلياته ولم ير بجانبه ما يرى في الليلة البارقة من رعود قاصفة، ورياح عاصفة، وصواعق محرقة، وشهب متطايرة؟!

بأية نعمة من النعم، أو صنعة من الصنائع، تمن يد الحياة على إنسان لا يفلت من ظلمة الرِّحم إلا إلى ظلمة العيش، ولا يفلت من ظلمة العيش إلا إلى ظلمة القبر، كأنما هو يونس، الذي التقمه الحوت فمشى في ظلمات بعضها فوق بعض! وأية يد من الأيدي أسدتها الأيام إلي رجل يظل فيها من مهده إلى لحدِه حائرًا مضطربًا، يفش عن ساعة راحة وسلام تهدأ فيها نفسه، ويثلج صدره، فلا يعرف لها مذهبًا ولا يجد إليها سبيلًا إن كان غنيًا اجتمعت حوله القلوب الضاغطة^(١)، واصطلحت عليه الأيدي الناهية^(٢)، فإما قتلته، وإما أفقرته؟!!

(٢) الناهية: السارقة.

(١) الضاغطة: الحاقدة.

وإن كان فقيراً عدَّ الناسُ فقرَهُ ذنباً جَنَّتُهُ يَدَاهُ، فتنناولهُ الأَكُفُّ بالصَّفْعِ، والأرْجُلُ بالزَّكْلِ، والألسُنُ بالقذفِ، حتى يموتَ الموتَةَ الكُبرى بعدَ أن ماتَ الموتَةَ الصُّغرى.

وإن كانَ عالِماً وَلَعَ الحاسِدونَ بِذَمِّهِ وَهَجَوْهُ، وَتَفَنَّنُوا فِي تَشْوِيهِ سُمِّعَتِهِ وَتَسْوِيدِ صَحِيفَتِهِ وَلَا يَزَالونَ بِهِ حَتَّى يُعْطِيَهُمُ العُهودَ والمواثيقَ التي يَرْضُونَهَا أَنْ يَعِيشَ عالِماً كجَاهِلٍ وَحَيًّا كَمَيِّتٍ، وَأَنْ يَكْتُمَ عِلْمَهُ فِي صَدْرِهِ، فَلَا يُفْضِي بِهِ إِلَى لِسَانٍ وَلَا قَلَمٍ، حَتَّى يُدْرِكَهُ الموتُ.

وإن كانَ جاهِلاً اتَّخَذَهُ العالِمونَ مَطِيَّةً يَرْكَبُونَهَا إِلَى مَقاصِدِهِمُ وَأَغراضِهِمُ مِنْ حَيْثُ لَا يُهادِنونَهَا وَلَا يَرْفُقونَ بِهَا حَتَّى يَعْرِوْهَا^(١)، وَإِنْ كَانَ بَخِيلاً أَزْدَرَّتْهُ القلوبُ، وَاقْتَحَمَتْهُ العيونُ وَتَقَلَّصَتْ لَهُ الشِّفاءُ، وَبَرَزَتْ لَهُ الأَنْيابُ، وَانْقَبَضَتْ لَهُ الأَسِرَّةُ، وَالتَهَبَّتْ لَهُ الأَنْظارُ، وَأرْسَلَتْ إِلَيْهِ الأَغصانُ أَلْسِنَةً نيرانها حَتَّى تُحْرِقَهُ.

وإن كانَ كَرِيماً مُحسِناً عاشَ مُترَقِّباً فِي كُلِّ ساعَةٍ مِنْ ساعَاتِ ليلِهِ وَنهارِهِ شَرَّ الذِّينِ أَحسَنَ إِلَيْهِمْ إِمَّا لِأَنَّهُ إِذا قَهَمَ جُرْعَةً بارِدةً فَاستَعذَّبواها فَاستَزادواهُ فَلَمَّ يَفْعَلُ، فَهُمُ يَنْتَقِمونَ مِنْهُ، أَوْ لِأَنَّهُمْ مِنْ أَصْحابِ النُّفوسِ الشَّرِّيرَةِ الذِّينِ يُخَيَّلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ المُحسِنَ يَرِيدُ أَنْ يَبْتاعَ مِنْهُمُ نَفْسَهُ بِما يُسْدي، وَهُمُ يَأبونَ إِلا يَتناولواهُ مِنَ الإِحسانِ بِلا مُقابلِ فَهُمُ يَنْقِمونَ عَلَيْهِ إِنْ عَرَفَ كَيْفَ يَفْلتُ مِنْ أَيْدِيهِمْ.

لا سَعادَةَ فِي الحِياةِ إِلا إِذا نَشَرَ السَّلامُ أَجْنَحَتَهُ البِضاءَ عَلى هَذا المُجمَعِ البَشَرِيِّ، وَلَنْ يَنْتَشِرَ السَّلامُ إِلا إِذا هَدَأَتْ أَطْماعُ النُّفوسِ، وَاسْتَقَرَّتْ فِيها مَلَكَةُ العَدْلِ وَالإِنصافِ، وَعَرَفَ كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَقَنَعَ كُلُّ بَما فِي يَدِهِ عَمَّا فِي يَدِ غَيرِهِ، فَلَا يَحسُدُ فَقيراً غَنياً، وَلَا عاجِزٌ قادِراً، وَلَا مَحَدودٌ مَحَدوداً، وَلَا جَاهِلٌ عالِماً؛ وَأشْعَرَتِ القلوبُ الرَحمةَ وَالحنانَ عَلى البائِسينَ وَالمنكوبينَ فَلَا يَهْلِكُ جائِعٌ بَينَ الطاعِمينَ وَلَا عارِ بَينَ الكاسِينَ؛ وَامتَلأتِ النُّفوسُ عِزَّةً وَشَرَفاً، فَلَا يَبقى شَيءٌ مِنْ تَلْكَ العِجائِلِ المَنصوبَةِ لِاغتِيالِ أُمُوالِ النَّاسِ بِاسمِ الدِّينِ مرَّةً وَالإِنسانِيةِ أُخْرى؛ وَلَا تَرى طَبِيباً يَدْعِي عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ لِيَسَلِّبَ المَرِيضَ رُوحَهُ وَمالَهُ، وَلَا مُحامِياً يَخدَعُ مُوكَلَّهُ عَن قَضِيَّتِهِ لِيَسَلِّبَ مِنْهُ فَوْقَ ما سَلِّبَ مِنْهُ حَظْمُهُ، وَلَا تاجِراً يَشْتري بِعَشْرَةٍ وَيبيِعُ بِمائةٍ، ثُمَّ يُنكَرُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَصٌّ حَبِيثٌ، وَكَاتِباً يَضْرِبُ النَّاسَ بَعْضُهُم بِبَعْضٍ حَتَّى تَسيلَ دِماؤُهُمُ فَيَمْتَصُّها كَما يَضْرِبُ القادِحُ الزَنْدَ لِيظْفَرَ الشَّرْرَ المُتطايِرَ مِنْهُما.

(١) حتى يعقروها: حتى يصيبوها بالجراح.

وما دامت هذه المطالبُ أحلامًا كاذبةً وأمانِي باطلَّةً، فلا مَطْمَعٌ في سلامٍ ولا أمانٍ،
ولا أملٌ في سَعَادَةٍ ولا فَرْقٍ بينَ أمسِ الدهرِ ويومِهِ ولا بينَ يومِهِ وغَدِهِ، ولا فرقٌ بينَ
مُغْفَلَاتِ أَيَّامِهِ ما عَرَفْتِ، وما ذاقَ أَحَدٌ من نَعَماته غيرَ ما ذُقتِ، وَلَيَفْرَحَ بالعامِ الجديدِ
مَنْ حَمَدَ ما مَضَى مِنْ أَيَّامِهِ وَسَالَفِ أَعْوَامِهِ.



سحر البيان



رأيتُ في إحدى رواياتِ شكسبير، وهي الروايةُ المعروفةُ بروايةِ
«يوليوس قيصر» موقفًا لبطلينِ من أبطالِ الفصاحة، وفارسينِ من فرسانِ
البيان. وقد وَقَفَ كلٌّ مِنْهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ مَوْقِفَ اللَّاعِبِ مِنَ اللَّاعِبِ،
وَوَقَفَ الشَّعْبُ الرُّومانيُّ بَيْنَهُمَا مَوْقِفَ الكُرَةِ مِنْ أَقْدَامِ اللَّاعِبِينَ.. تَعَلُّوْا
بِهَا حِينًا وَتَسْفُلُوا أحيانًا، فلا تَثْبُتُ صَاعِدَةً ولا تَسْتَقِرُّ هَابِطَةً، فَعَلِمْتُ أَنَّ
العَامَّةَ عَامَّةً فِي كُلِّ عَصْرٍ، والشَّعْبَ شَعْبٌ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَأَنَّ سِوَادَ
تِلْكَ تَحْتَ صَرْحِ فرعونَ مِثْلُهُ تَحْتَ عَرشِ قَيْصَرَ، وَأَنَّ رَأْسَ التَّارِيخِ
الْيَسُوعِيِّ، مِثْلُهُ فِي ذَنْبِ التَّارِيخِ المَحْمَدي، تَدْنُو بِهِ كَلِمَةٌ، وَتَنأى بِهِ
أُخْرَى، وَتَجذِبُهُ دَمْعٌ وَتَدْفَعُهُ ابْتِسَامَةٌ، وَتَطِيرُ بِلَبِّهِ الشَّعْرِيَّاتُ وَالخِيَالَاتُ
طيرانَ الرِّيحِ الهوجاءِ بِذَرَّاتِ الهَبَاءِ.

عَلِمَ بروتسُ الشَّريفِ الرُّومانيُّ أَنَّ يوليوسَ قَيْصَرَ قَدِ اسْتَعْبَدَ الشَّعْبَ الرُّومانيَّ
وَأَذَلَّ نَفْسَهُ ذُلًّا.. مَلِكٌ عَلَيْهِ حِوَاثِهِ وَمِشاعِرُهُ حَتَّى ما يَكَادُ يَشعُرُ بِمِراثِهِ، وَكَذَلِكَ
الذُّلُّ إِذَا نَزَلَ بِالنَّفوسِ سَلَبَهَا كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الشَّعورَ بَبُزُولِهِ فِيهِ. وَعَلِمَ أَنَّ حَيَاةَ ذَلِكَ
الشَّعْبِ بِمِوْتِ ذَلِكَ القَيْصَرَ.. فَهَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتَلَ صَدِيقَهُ وَسَيِّدَهُ، افْتِدَاءً لِأَمَّتِهِ وَوَطَنِهِ،
فَطَعَنَهُ طَعْنَةً نِجْلَاءً، سَلَبَتْهُ نَفْسَهُ فِي لِحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، فَهَاجَ الشَّعْبُ الرُّومانيُّ عَلَى القاتِلِ
وَأَعوانِهِ، هَيَّاجَ الأمواجِ النَّائِرَةِ عَلَى السُّفُنِ الماخِرَةِ. فَوَقَّفَ الرَّجُلَ خَطِيئًا أَمَامَ ذَلِكَ
الشَّعْبِ الهائِجِ المُحْتَدِمِ وَقِفَةَ المُسْتَبْسِلِ المُسْتَمِيتِ، وَكانَ لِأَبْدَلِهِ فِي هَذَا المَوْقِفِ
مِنْ أَحَدِ المَصيرينِ، إِمَّا نَصْرٌ يعلُّو بِهِ إِلَى مَدَارِكِ الأَملاكِ، أَوْ خِذلانٌ يهوي بِهِ إِلَى مَقَرِّ

الأسماكِ ومن أحدِ المخرجين: إما مخرجه مرفوعاً على محفة الأبطال، أو محمولاً على أعناق الرجال، فبعد لأي ما استطاع بعض الزعماء أن يسكن نائرة التأثيرين ويستدرجهم إلى سماع دفاع القاتل عن نفسه، أو التفكه بمنظره المضحك، وهو يتلمس في هذه الظلمة الحالكة المخرج من جريمته.

الخطبة



بروتس «وهو على منبر الخطابة»: أيها الرومانيون، اتعدوني بالصبر قليلاً على سماع ما أقول من حلو الكلام ومُرّه إكراماً لموقفي وإكراماً للعدل؟

أنا لا أريد أن أخذعكم، ولا أعبتُ بعقولكم وأهوائكم، بل لأريد منكم أن تنظروا إلى قضيتي نظراً الحذر المتيقظ الذي لا يعطي هواده ولا يلقي قياداً؛ لأنني لا أعتقد أن في زاوية من زواياها كميناً أخاف أن تقع عليه العيون.

أيها الرومانيون، إن كان بينكم صديق لـ «قيصر» يحبه ويدوب حُزناً عليه فليسمع لي أن أقول له: أيها الصديق الكريم، إن بروتس قاتل قيصر كان يحبه أكثر منك.

أيها القوم، والله لو كذبتُ الناس جميعاً ما كذبتكم، فاعلموا أنني ما قتلتُ قيصر؛ لأنني كنت أبغضه، بل لأنني كنت أحب روما أكثر منه. كان قيصر طماعاً فقتلته، ففي ساعة واحدة منحتُه دمي وقلبي وخنجري.

أنا لا أصدق أن بينكم من يحزن لموت قيصر، فأنتم رومانيون، والروماني لا يحب أن يعيش ذليلاً.

من منكم يكره أن يكون رومانياً؟ من منكم يكره أن يكون حُرّاً؟ من منكم يحتقر نفسه؟ من منكم يزدرى^(١) مصلحة وطنه؟ إن كان بينكم واحد من هؤلاء فليتكلم؛ لأنه هو الذي يحقُّ له أن يثار لنفسه مني؛ لأنني لم أسيء إلى أحدٍ سواه.

(١) يزدرى: يحتقر.

الشعب: لا، لا، ليسَ فينا واحدٌ من هؤلاء.

بروتس: إذن أنا لم أسيء إلى أحدٍ منكم.

وهنا دَخَلَ أنطونيوس صديقُ قيصرٍ ورأسُ الناقلينَ على قَتَلتهِ والطالِبينَ بثأره هو وآخرونَ يَحْمِلُونَ على أيديهم جُثَّةَ قيصرٍ؛ لتأبينه^(١) في هذا المجمعِ الحاشِدِ. فاستأنفَ بروتسُ الكلامَ وقال:

ها هي جثَّةُ قيصرٍ، وها هو صديقُه أنطونيوس جاءَ لِيُؤَبِّنَهُ فاستمعوا له واعلموا أن قيصرَ المذنبَ غيرُ قيصرِ الماجد^(٢). وقد سمعتم ما قيلَ عن الأولِ فاسمعوا ما يُقالُ عن الثاني، واسمحو لي أن أقولَ كلمةً أختتمُ بها خطابي.

أيها الرومانيون، إن الخنجرَ الذي ذبَحْتُ به قيصرَ في سبيلِ روما لا يزالُ باقياً عندي لدَبْحِ بروتسٍ في سبيلِ قيصرٍ إذا أرادَتْ روما ذلك.

● تأثير الخطبة

الشعب: لِيَحْيَ بروتس.

أحدُ الناس: أنا أقترحُ أن نحمله على الأكفِّ إلى منزله.

آخر: انصُبو له تمناً لا.

آخر: امنحوه عرشَ قيصرٍ.

آخر: إنه أفضلُ من قيصرٍ.

آخر: إن قيصرَ كان ظالماً.

آخر: إنه كان الظلمَ بعينه.

آخر: لتَهْتَأُ روما بالخلاصِ منه.

آخر: ألا نسمعُ تأبينَ أنطونيوس؟

آخر: نعم، نسمعُه؛ لأن بروتس أمرَ بذلك.

وهنا نزلَ بروتس والقلوبُ طائرةٌ حوله، والعيونُ حائمةٌ عليه. ثم وَقَفَ على أثره أنطونيوس فرَمَقَهُ الشعبُ بين الغَضَبِ والحِقْدِ. ولولا إشارةٌ من بروتس ما استطاع أن يثبتَ في موقفه لحظةً واحدةً، أخذَ يتلو كلمةَ التأبينِ المشهورةِ التي هي آيةُ الآياتِ في اللغةِ الإنكليزيةِ فصاحةً وبياناً.

(٢) الماجد: الحائز على المجد.

(١) لتأبينه: لراثته والبكاء عليه.

• القصيدة

أنطونيوس: أيها الرومانيون...

أحد الناس: اسمعوا ما يقول أنطونيوس.

آخر: لا... لا نسمعه.

أنطونيوس: اسمعوني إكراماً لبروتس.

أحد الناس: ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس؟

آخر: لا يقول شيئاً.

آخر: إذن نسمعه.

أنطونيوس: أيها الأصدقاء، إنني ما جئت هنا الساعة؛ لأرثي قيصر بل لأدفن جثته.

أيها القوم، ما من أحد من الناس إلا وله في حياته أعمالٌ حسنةٌ وأخرى سيئةٌ.

أما حسناته فتموت بموته، وأما سيئاته فتبقى من بعده إلى يوم يُبعثون. كذلك كان

قيصر في حياته ومماته. وكذلك كانت سيئاته.

أيها القوم، ما كنت لأستطيع أن أقف موقفي هذا بينكم ولا أن أقول كلمة مما أريد

أن أقول لولا أن بروتس قاتل قيصر أمرني بالوقوف وأمرني بالكلام، وها أنتم أولاء

تروُن أنني قد أطمعته، وأذعنت له؛ لأنه رجلٌ شريف.

أيها القوم، يقول الشريف بروتس إن قيصر كان رجلاً طماعاً، وأنا لا أستطيع أن

أخالفه فيما يقول؛ لأنه رجلٌ صادقٌ لا يكذب.

أنا لا أستطيع أن أقول إن قيصر كان رجلاً قانعاً مُعتدلاً؛ لأنَّ الشريف بروتس يقول

غير هذا.

كلُّ ما أستطيع أن أقوله إن الفدية^(١) التي افتدى بها أعداؤنا أسراهم الذين جاء بهم

إلى روما قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها.

كلُّ ما أستطيع أن أقوله إنني رأيت قيصر بعيني يبكي لبكاء الفقراء ويحزن لحزنهم،

ويبيت الليالي ذوات العدد ساهراً لا يغمض له جفنٌ حدباً^(٢) بهم، وعطفاً عليهم.

(١) الفدية: ما يُدفع لقاء تحرير الأسير.

(٢) حدباً: عطفاً ورفقاً.

كُلُّ مَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهُ إِنِّي عَرَضْتُ بِنَفْسِي تَاجَ الْمُلْكِ عَلَى قَيْصَرَ فِي «الوبر كال»
عِدَّةَ مَرَاتٍ فَأَبَاهُ^(١) زُهْدًا فِيهِ، وَتَعَفُّفًا عَنْهُ.

كُنْتُ أُسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ إِنْ الطَّمَعُ لَا يَسْكُنُ قَلْبًا مِثْلَ هَذَا الْقَلْبِ وَلَا يَخَالُطُ فُؤَادًا مِثْلَ
هَذَا الْفُؤَادِ، لَوْلَا أَنَّ بروتسَ يَقُولُ إِنْ قَيْصَرَ رَجُلٌ طَمَّاعٌ وَأَنَا لَا أُسْتَطِيعُ مَخَالَفَتَهُ؛ لِأَنَّهُ
رَجُلٌ شَرِيفٌ.

أَيُّهَا الرُّومَانِيُونَ، إِنَّكُمْ أَحْبَبْتُمْ قَيْصَرَ قَبْلَ الْيَوْمِ حُبًّا جَمًّا، فَمَا الَّذِي يَمْنَعُكُمْ الْيَوْمَ مِنَ
الْبِكَاةِ عَلَيْهِ.

إِنْ لَمْ تَبْكُوهُ لِصِفَاتِهِ الْكَرِيمَةِ، فَابْكُوهُ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَهُ، ابْكُوهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بِالْأَمْسِ
يَنْطِقُ بِالْكَلِمَةِ فَتَدْوِي فِي صُدُورِ الْعِظَمَاءِ دَوِيَّ الرَّعْدِ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَأَصْبَحَ الْيَوْمَ
مَطْرَحًا مَهِينًا فِي ظِلِّ هَذَا الْعَائِطِ، وَلَا يَجِدُ بَيْنَ النَّاسِ مَنْ يَأْبُهُ لَهُ، وَلَا مَنْ يَعْطِفُ عَلَيْهِ.

أَيُّهَا الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي، كَيْفَ حَالَتْ حَالُكَ، وَتَغَيَّرَتْ آيَتُكَ^(٢)؟ وَكَيْفَ انْتَقَلْتَ مِنَ
الصُّدُورِ الْإِنْسَانِيَّةِ، إِلَى الصُّدُورِ الْوَحْشِيَّةِ؟ وَكَيْفَ ضَلَلْتَ سَبِيلَكَ، وَعَمِيتَ عَلَيْكَ
مِزَاهِبُكَ، فَحَسِبْتَ الْخَيْرَ شَرًّا، وَالشَّرَّ خَيْرًا وَاخْتَلَطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَمَيِّزَ
بَيْنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ وَالْمَكَارِمِ وَالْجَرَائِمِ.

أَيُّهَا الرُّومَانِيُونَ، عَفْوًا إِنْ هَذَيْتَ^(٣) بَيْنَكُمْ، أَوْ أَسَأْتُ إِلَيْكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْحَزْنَ قَدْ
قَسَمَ فُؤَادِي قَسَمَيْنِ: قَسَمَ عَلَيَّ هَذَا الْمَنْبَرِ، وَقَسَمَ فِي ذَلِكَ النِّعَشِ.

أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ، إِنْ بَيْنَ جَنَبِي قَلْبًا يَخْفِقُ بِحَبِّكُمْ، وَالْعَطْفَ عَلَيْكُمْ، وَالرَّأْفَةَ بِكُمْ،
وَلَوْلَا مَخَافَةٌ أَنْ تَنْفَجِرَ صُدُورُكُمْ حُزْنًا وَجَزَعًا لَقُلْتُ لَكُمْ: إِنْ قَيْصَرَ قُتِلَ مَظْلُومًا.

إِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ بروتسَ وَرَفَاقَهُ قَوْمٌ شُرَفَاءُ عُظَمَاءَ، لِذَلِكَ أَحَبُّ أَنْ أُسِيءَ إِلَى نَفْسِي
وَالِي قَيْصَرَ وَإِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ أَقُولَ إِنَّهُمْ أَخْطَأُوا فِي قَتْلِ قَيْصَرَ. وَهَنَا صَمَتَ أَنْطُونِيوسَ
وَأَرْسَلَ مِنْ جَفْنَيْهِ بِضْعَ قَطْرَاتٍ مِنَ الدَّمِوعِ.

● الانقلاب:

أحد الناس «يقول لصاحبه»: يلوح لي أن فيما يقول الرجل شيئًا معقولًا.
آخر: إنك إن أمعنت النظر وجدت أن قيصراً قد أسيء إليه.

(٢) آيتك: علامتك.

(١) أباه: رفضه.

(٣) هذيت: تكلمت كلامًا غير واضح.

آخر: لقد أترّ في نفسي زُهدهُ في تاج المُلك.
 آخر: لقد أحرزني عليه أنه كان يبكي رحمةً بالفُقراء.
 آخر: إن الذي يرثي لبؤس البؤساء لا يكون طمّاعاً ولا ظالمًا.
 آخر: إذا فسيكون لمقتلِ قيصرٍ شأنٌ غيرُ الشأنِ الأول.
 آخر: لا بدّ من عقابِ القاتل.
 آخر «يقول لجليسه»: انظرْ إلى أنطونيوس فهو يبكي ويتحجب.
 آخر: ليس في رومة رجلٌ أشرفُ من أنطونيوس.
 أنطونيوس: أتأذنون لي أن أفارقَ موقفي هذا لحظة؛ لأقفَ قليلاً بجانبِ جثّةِ القتيل؟

الشعب: نعم... نعم.

فنزل أنطونيوس ومشى حتّى وصلَ إلى جثّةِ قيصر، وهو لا يزالُ في ملايسه التي قتلَ فيها، ولا تزالُ طعناتُ الخناجرِ ظاهرةً في قبائه ثم قال:
 أنطونيوس: مَنْ كان يملكُ منكم دُموعاً فلْيُعِدّها لهذا الموقِفِ العظيم، فإنّه موقِفٌ يحتاجُ إلى كلِّ ما في عُيونكم من دُموع.
 إنكم تعرفونَ جميعاً هذا القباء^(١)، ولكنكم لا تعرفونَ من تاريخه شيئاً. أنا أعلمُ أن قيصرَ لبسهُ أوّلَ ما لبسهُ في مساءِ اليوم الذي انتصرَ فيه على «الدقي» ذلك الانتصارَ العظيم الذي نالت به رُوما فخرَ الأبد.
 ثم وضع يده على أحد الثقوب التي في القباء وقال: في هذا القباءِ الشريفِ مُرّقتُ جثّةُ هذا الفاتحِ العظيم.

ومن هذا الثقب مرَّ خنجرُ بروتس إلى صدرِ قيصر. ومن هذا الثقب أطلَّ دمُ قيصر؛ ليرى بعينه وجهَ الضارب، وأحسبُ أنّ جميعَ أفرادِ النوعِ الإنساني قد مرّوا بخاطرِ قيصرٍ واحداً واحداً قبل أن يمرَّ بخاطرِهِ صديقه: «بروتس».

عرَفَ قيصرُ أن قاتله هو صديقه، وصنعةُ إحسانه، ففترت همتُهُ، وعجزَ عن المقاومة؛ لأنَّ الطعنة التي أصابته في جسمه، لم تكن بأقلِّ من الطعنة التي أصابته في

(١) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

قلبه، ولم يكن منظرُ المدى^(١) والخناجر، أبشعَ في نظره من منظرِ الخيانةِ والغدر، هنالك عَجَزَ قيصِرُ عن أن يقولَ شيئاً غيرَ الكلمةِ التي ودَّعَ بها قاتلَهُ الوداعَ الأخيرَ: «وأنت أيضاً يا بروتس؟».

وهنالك تحتَ تمثالِ «بومباي» وُجِدَ قيصِرُ قتيلاً وقد لُفَّ وجهه بقبائه حتى لا تتألمَ نفسه مرّةً ثانيةً بمنظرِ كُفْرِ النعمةِ ونكرانِ الجميلِ.

ها أنتم تبيكون على قيصِر، فشكراً لكم على هذه الدموعِ الكريمةِ التي طهَّرتُم ما لوَّثت به يد الظلمِ تربةَ هذه الأرضِ من الدماءِ.

إنكم تبيكون لمنظرِ قباةِ قيصِرِ المُمزَّقِ، فكيفَ بكم لو شاهدتُم ما تمرَّقَ من جُثتهِ؟ ثم دنا وكشَفَ القباةَ عن جسمه، وقال:

إن في كلِّ جرحٍ من هذه الجروحِ لساناً يشكو إليكم، فاستمعوا له فهو أنطقٌ من لسانِ الرِّثاءِ.

أحد الناس: يا له من منظرٍ فظيع!

آخر: وارحمتاه لقيصر!

آخر: إن يوماً يقتل فيه قيصِرُ ليومٌ شرُّه مُستطير!

آخر: يا للدناءةِ والسفالةِ!

آخر: يا للغدرِ والخيانةِ!

آخر: الانتقام... الانتقام.

الشعب «وهو يضجُّ ضجيجاً عظيماً»: حرِّقوا القتلةَ، مزقوهم، لا تبقوا على أحدٍ منهم.

أنطونيوس: مهلاً. مهلاً أنا لا أريدُ أن أشعلَ بينكم فتنةَ عمياءَ ولا أريدُ أن تطالبوا القتلةَ بالدماءِ التي أراقوها، فإنني لا أزالُ أعتقدُ أنهم قومٌ شرفاءٌ وربما كانوا يعرفون أسباباً لقتله لا نعرفُها، وإنما أريدُ أن أقولَ لكم: إن قيصِرَ كانَ يحبُّكم حبًّا جمًّا فهو يستحقُّ رثاءكم له وبكاءكم عليه.

لولا أنني أوثرُ البقاءَ عليكم، ولولا أنني أحبُّ تخفيفَ ما ألمَّ بقلوبكم من الحزنِ

(١) المدى: جمع مدية وهي شفرة كبيرة يذبح بها.

على فقيدكم، لتكوث عليكم وصيئته، لتعلموا أنّ الرجل كان يحبكم وأنه ما كان خليقاً
أن يقتل بينكم، وفيكم عين تطرف وعرق ينبض.

الشعب: اقرأ الوصية.

أنطونيوس: إني أخاف على صدوركم أن تنشق حزننا على القتل الشهيد.

الشعب: نريد سماع الوصية.

أنطونيوس: إنه يُعطي كل فردٍ من أفراد الشعب الروماني خمسةً وسبعين فرنكاً،
ويوصي بجميع غاباته ومُتَنَزّهاته للأمة.

أحد الناس: يا له من رجلٍ كريم!

آخر: يا له من رجلٍ شريف!

آخر: ويلٌ للقتلة!

آخر: الثورة.. الثورة.

آخر: سُحِرِقَ منزلُ بروتس.

ثم خرج الشعب يتدفق في شوارع روما تدفق الأمواج الثائرة في القاموس المحيط.
أنطونيوس «في موقفه وحده»: أيتها الفتنة العمياء قد أيقظتِك من مَرَقِدِك فارقي
رأسك وامضي في سبيلك، واشتعلي حتى يحرق لسانك أديم السماء ووجه الغبراء.

وهكذا استطاع أنطونيوس في موقفٍ واحد أن يستعبد الشعب الروماني لنفسه قبل
أن يتيق من استعباد قيصر له. وكذلك الأمم الضعيفة الجاهلة لا مفر لها من إحدى
العبوديتين: إما العبودية لحملة النيجان، أو لحملة البيان.



الكبرياء



حضرة السيد الفاضل

لي في البلدة التي أسكنها كرامة الحاك لأنني أشغل وظيفة عالية فيها، وقد بدأ لي أن أختلِف إلى المسجد لصلاة الجمعة، فاختلفت حتى فاجأني يوماً من الأيام لمن يكن في الحساب.

حدت أن صعلوكاً يعرفني، ويعرف مقامي، تمادى في وقاحته وسوء أدبه، حتى وقف بجاني في الصلاة، فاشمأزت نفسي من هذا الأمر اشمئزاً عظيماً، وحاولت أن أحتمله فلم أستطع، فحفت إن أنا طردته أن يؤاخذني الناس به. فهل تعرف مسوغاً شرعياً يفرق بين درجات الناس في مواقف الصلوات؟

«سائل»

يا مولانا الحاكم...

رُحماك بهذا الصعلوك^(١) المسكين الواقف بجانبك، لا ترضن عليه بمزقة^(٢) من ظلك الظليل أن تمتد إليه فتقيه أشعة التصلع الحارة التي يتلظى^(٣) فيها، ولا تحرمه نفحة من نفحات العطرة التي تهب من بين أردانك^(٤) عله يجد فيها روح الحياة، ويتنسّم منها نسيم السعادة والهناء، فيهدأ ساعة من الزمان عن الشعور بمصائبه ورزاياه، وأحسن كما أحسن الله إليك، إن الله يحب المحسنين.

ليفرخ^(٥) روعك وليثلج صدرك، وأعلم أن هذا المسكين الواقف بجانبك لا يستطيع مهما نال منه العدم، وبرح به الشقاء، أن يقطع قطعة من سعادتك أو يفتلذ^(٦) فلذة من شرفك، فترك كالمصباح تستمد منه المصابيح، ونوره نوره، وبهاؤه بهاؤه. لا تظلم الرجل ولا تقل إنه وقح الوجه، أو سيء الأدب. فإني بما أعلم من أخلاق

(٢) المذقة: القطعة الصغيرة من الشيء.

(٤) أردانك أطراف ثوبك.

(٦) يفتلذ: يفتلذ.

(١) الصعلوك: الفقير البائس.

(٣) يتلظى فيها: يتحمل حرها.

(٥) ليفرخ: ليهدا.

هؤلاء البائسين وطبائعهم وآمالهم التي تعتلج بها صدورهم وتهتف بها أحلامهم -
اعتقد أنه ما وقف بجانبك إلا طمعا في دورة الفلك التي علت بك، وأنزلتكَ منازل
العظماء، أن تدور به كذلك فتنزله به منزلتك، وتعلو به إلى مقامك، فاغفر له جهله
وقصوره، فمثلك من يقيل^(١) العثرة ويستر الرلة.

إنك تريد مني أن ألتمس لك من أبواب الشريعة الإسلامية بابا يسوغ^(٢) لك طرد
هذا الصعلوك المجترئ عليك من موقفه الذي اختاره لنفسه بجانبك فاسمع ما ألقى
عليك. إن الذي وقفت بين يديه في مصلاك أعظم شأنا وأجل خطرا، من أن يحفل^(٣)
بثوبك اللامع، وجبينك الساطع، وردائك المطرز، وقمصك المحبر^(٤)، وأن يعرف
لك من الفضل والشرف أكثر مما تعرف لصاحبك. فما كان له أن يأمرك بالتقدم عليه
في موقف الصلاة، ولا أن يأمره أن يقف منك موقف العبد من السيد، والمحكوم من
الحاكم. إن للجُمعة والجماعة فضائل كثيرة، وحكما جمّة، أرادها الشارعُ منهما.
وإنك كن تجد بين هذه الحكم، وتلك الفضائل، حكمة أعلى، ولا فضيلة أنفس
من خلق التواضع الذي يشعر به العظيم عندما يرى أنه قد وقف من الفقير في ذلك
الموقف المقدس موقف الأخ من أخيه والكفء من كفيته.

إن كنت تريد، يا مولانا الحاكم، من اختلافك إلى المسجد ألا تترك للفقير
موقفا من المواقف يملك فيه الخيار لنفسه، حتى موقفه بين يدي ربه، فخير لك أن
تستصحب معك عند ذهابك شُرطتك وأعاونك؛ لتأمرهم فيه بما يرضيك من طرده
وإقصائه والتنكيل به جزاء على وقاحتِه وسوء أدبه. فإن تم لك من ذلك ما أردت،
فاحذر أن تطوق بعد ذلك بكلمة العبودية، بعدما نطقت بكلمة الألوهية، حتى لا تجمع
على نفسك بين رذيلتي الظلم والرياء.

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فأعلم أن الله لا يقبلها منك ولا يجزل لك ثوابها،
حتى تقف بين يديه موقف من خالطت الخشية قلبه، وملاكت عليه السكينة سمعه
وبصره، فلم يعد يبصر شيئا مما حوله، ولا يعلم أواقف هو في صفوف الملوك، أو
في زمرة^(٥) الصعاليك؟

(٢) يسوغ: يبرر.
(٤) المحبر: المخطط.

(١) يقيل العثرة: يمنعها.

(٣) يحفل: يهتم.

(٥) زمرة: جماعة.

أَيُّهَا الْعِظْمَاءُ ...

لَيْسَتْ الْعِظْمَةُ الَّتِي تَعْرِفُونَهَا لِأَفْسُكُمْ إِلَّا مِئْتَةٌ مِنَ الْفُقَرَاءِ إِلَيْكُمْ. فَلَوْلَا تَوَاضَعْتُمْ
بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مَا عَلَوْتُمْ، وَلَوْلَا تَصَاغُرُهُمْ فِي حَضْرَتِكُمْ مَا اسْتَكْبَرْتُمْ. فَلَا تَجْرُؤْهُمْ
بِالْإِحْسَانِ سُوءًا، وَلَا تَجْعَلُوا الْكُفْرَ مَكَانَ الشُّكْرِ، تَسْتَدْفِعُوا النُّقَمَ، وَتَسْتَدِيمُوا النُّعَمَ.

أَيُّهَا الْعِظْمَاءُ ...

مَا هَذِهِ الْقِصُورُ الَّتِي تَسْكُنُونَهَا، وَلَا هَذِهِ الدُّورُ الَّتِي تَعْمُرُونَهَا، وَهَذِهِ الْأَرْدِيَّةُ الَّتِي
تَجْرُؤْنَ أَذْيَالَهَا، إِلَّا الْأَوَانُ وَأَصْبَاغُ لَا عِلَاقَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَقَائِقِ نَفُوسِكُمْ، وَلَا صِلَةَ لَهَا
بِجَوَاهِرِ أَفْنَدَتِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَطَّلَعَ عَلَيْهَا شَمْسُ الْحَقِيقَةِ حَتَّى تَذْهَبَ
بِهَا ذَهَابًا بِالْوَانِ السَّحَابِ وَأَصْبَاغِ الثِّيَابِ، فَإِذَا أَنْتُمْ عُرَاةٌ مُجَرَّدُونَ، لَا تَشْفَعُ لَكُمْ إِلَّا
فَضَائِلُكُمْ، وَلَا تَنْفَعُكُمْ إِلَّا مَوَاهِبُكُمْ وَمَزَايَاكُمْ.

أَيُّهَا الْعِظْمَاءُ ...

لَا عُدْرَ لَكُمْ فِي الْكِبْرِيَاءِ فِي جَمِيعِ حَالَاتِكُمْ وَشُؤْنِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَرْبَابِ
الْفَضَائِلِ فَحَرِيٌّ بِالْفَاضِلِ أَنْ لَا يُنْمُوهُ وَجْهَ فَضِيلَتِهِ بِرَذَلَةِ الْكِبْرِيَاءِ، أَوْلَا، فَمَا تَحْمِلُ
الْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِهَا أَسْمَجَ وَجْهًا، وَلَا أَصْلَبَ خَدًّا مِنْ جَهْلَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ. فَانظُرُوا أَيْنَ
تَنْزِلُونَ، وَفِي أَيِّ مَقَامٍ تُقِيمُونَ؟



الانتحار



قرأت في بعض الصُحفِ أن رجلاً من تجّار المسلمين انتحَرَ لا لضيق يدٍ، أو شدّة مَرَضٍ، أو بؤس حالٍ، بلّ لأنه حَزَنَ على وفاةِ صديق له فقتَلَ نفسه.

إن الرجلَ المؤمنَ يعتقدُ ولا شكَّ بسوءِ عاقبةِ المُنتحِرِ، فكيفَ هانَ عليه وهو في آخرِ يومٍ من أيامِ حياتِهِ، أن يَضُمَّ إلى خِسارةِ دُنْيَاهُ، خِسارةَ آخِرَتِهِ، وهي العِزَاءُ الباقي لَهُ عن كلِّ ما لا قَاهُ في حياتِهِ من شَقَاءٍ وَعَناءٍ!؟^(١)

إن الانتحارَ نزعةٌ فاسدةٌ وعادةٌ مُستَهجنَةٌ، رَمَتْنَا بها المَدِينَةُ فيما رَمَتْنَا به من مفايسِدِهَا وَأَفَاتِهَا^(٢). ولقد كُنَّا نَعْجَبُ قَبْلَ اليَوْمِ مِنْ تَهَالِكِ الشَّرِيقِيِّينَ عَلَيَّ حُبِّ تَقْلِيدِ الغَرِيبِيِّينَ حَتَّى فيما يُؤْذِبُهُمْ فِي شَرَفِهِمْ وَكَرَامَتِهِمْ... وَكُنَّا إِذَا أَرَدْنَا المَبَالِغَةَ فِي تَمَثِيلِ هَذَا التَهَالِكِ، قُلْنَا: يوشِكُ أن يَقتَلَ الشَّرِيقِيُّ نَفْسَهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ تِلْكَ عَادَةٌ مِنَ العَادَاتِ الغَرِيبَةِ، فَقد صارَ قَرِيبًا ما كان بَعِيدًا، وَأَصْبَحَ مألُوفًا ما كُنَّا نَعُدُّهُ فَرَضًا مِنَ الفُرُوضِ.

الانتحارُ مُنتهى ما تَصِلُ إليه النَفْسُ مِنَ الجُبْنِ وَالخَوَرِ^(٣)، وما يَصِلُ إليه العَقْلُ مِنَ الاضطرابِ وَالخَبَلِ^(٤). وَأَحْسَبُ أن الإنسانَ لا يُقَدِّمُ على الانتحارِ، وفي رأسِهِ ذرَّةٌ مِنَ العَقْلِ وَالشُّعُورِ. حُبُّ النَفْسِ غَرِيزَةٌ رَكِبَهَا اللهُ تَعَالَى فِي نَفْسِ الإنسانِ؛ لِتَكُونَ يَنْبُوعَ حَيَاتِهِ وَعِمَادَ وُجُودِهِ، وَالْمُنْتَحِرُ يُبْغِضُ نَفْسَهُ أَشَدَّ مِمَّا يُبْغِضُ العَدُوَّ العَدُوَّةَ. فَهو شاذٌّ فِي طَبِيعَتِهِ، غَرِيبٌ فِي خُلُقِهِ، مُعَانِدٌ لِإِرَادَةِ اللهُ تَعَالَى فِي بَقَاءِ الكَوْنِ وَعُمُرَانِهِ. وَمَنْ كانَ هَذَا شَأْنَهُ كانَ بلا قَلْبٍ وَلا عَقْلٍ.

لا عُدْرَ لِلْمُنْتَحِرِ فِي انتحارِهِ مَهْمَا امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِالهَمِّ وَنَفْسُهُ بِالأسَى، وَمَهْمَا أَلَمَّتْ بِهِ كَوَارِثُ الدَّهْرِ، وَأَزَمَتْ بِهِ أَزْمَاتُ العَيْشِ، فَإِن ما قَدِمَ عَلَيْهِ أَشَدُّ مِمَّا قَرَّرَ مِنْهُ، وَمَا خَسِرَهُ أَضْعَافٌ ما كَسَبَهُ. وَلَوْ كانَ ذَا عَقْلٍ لَعَلِمَ أن سِكراتِ المَوْتِ تَجْمَعُ فِي لِحْظَةٍ جَمِيعَ ما تَفَرَّقَ مِنَ الأَمِّ الحِياةِ وَشَدائِدِهَا فِي الأَعْوامِ الطَّوَالِ، وَأَنَّ قِضاءَ ساعَةٍ واحِدَةٍ فيما أَعَدَّ

(١) عناء: تعب.

(٣) الخور: الضعف.

(٢) أمراضها.

(٤) الخبل: فساد العقل.

الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم أشد من جميع ما يشكو منه، وما يكابدُه من مصائب حياته وأرزائها لو يُعمر ألف سنة.

ما أكثر هموم الدنيا، وما أطول أجزائها! لا يفيق المرء فيها من هم إلا إلى هم، ولا يرتاح من فاجعة إلا إلى مثلها. ولا يزال بنوها يترجحون فيها ما بين صحة ومرض، وفقر وغنى، وعز وذل، وسعادة وشقاء، فإذا صحَّ لكل مهموم أن يمقت حياته، ولكل معزون أن يقتل نفسه، حلت الدنيا من أهلها، واستحال المقام فيها، بل استحال الوُفود إليها، وتبدلت سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ما سُمِّي القاتل مجرمًا إلا؛ لأنه قاسي القلب متحجر الفؤاد، وأقسى منه قاتل نفسه؛ لأنه ليس بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل والمقتول، فهو أكبر المجرمين، وأقسى القاتلين.

يخدع المنتحر نفسه إن ظن أنه مُقتنع بفضل الموت على الحياة، وأنه إنما يفعل فعلته عن روية وبصيرة، فإنه لا يكاد يضع قدمه في المأزق الأول من مأزق الموت حتى يثوب^(١) إلى رُشده وهُدهُة ويحاول التخلُّص مما وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلاً.

إن ألقى نفسه في الماء تحبَّط وبسط يده إلى من يرجو الخلاص على يده وودَّ لو يفتدي نفسه بكل ما تملك يمينه، وإن حَسَّ نفسه في عُرفته ليموت مُحْتَنقًا بالغاز وُدَّ لو سقط عليه سقف العُرفة ليستنشق نسمة من نسمات الهواء ولو عاش بعد ذلك كسير اليد والرجل فاسد السمع والبصر.

إن فكرة الانتحار نزعَة^(٢) من نزغات الشيطان، وخطرة من خطرات النفس الشريرة، فمن حدَّثته نفسه بقتل نفسه فليترث^(٣) ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت، وآلام النَّزع، وماذا يكون حديث الناس عنه بعد موته، وهل يمكن أن يوجد بينهم عاذر له أو مُشفق عليه أو مُقتصد في النيل منه والسخرية به؟ وليعرض على مخيلته قبل ذلك أشكال العذاب وأنواع العقاب التي أعدّها الله في الدار الآخرة لأمثاله. إنني لا أظنه بعد ذلك فاعلاً إلا إذا كان وحشاً في ثوب إنسان، أو بطلاً من أبطال المارستان^(٤).

(٢) نزعَة: وسوسة.

(١) يثوب: يعود.

(٣) فليترث: فليتمهل.

(٤) المارستان: اسم مستشفى الأمراض العقلية في الأزمان الماضية.

الحياة الشعرية



لولا الحياة الشعرية التي يحيها الناس أحيانا لَسَمَّحَ في نظرهم وَجْهَ الحياةِ الحِسيَّةِ ومَرَّ مذاقُها^(١) في أفواههم، حتَّى ما يغتبط حَيٌّ بنعمة العيش، ولا يكره ميتٌ طلعة الموت.

لذلك ترى كلَّ حَيٍّ يهربُ من الحياةِ الحِسيَّةِ جدَّ الهَرَبِ، لاجئًا إلى الحياةِ الشُّعريَّةِ من أيِّ بابٍ من أبوابها، لأنَّه يَرى في هذه ما لا يراه في تلك مما يُريحُ فؤاده، ويُلجِّجُ صدره، وينفي عن نفسه السامةَ والضَّجَرَ من صُوفِ المناظرِ وأفانينِ المشاهدِ، وغرائبِ المؤتلفاتِ، وعجائبِ المُختلِفاتِ.

لولا حُبُّ الحياةِ الشُّعريَّةِ ما وُجدَ في الناس كثيرٌ من المولعين بتخدير أعصابهم كشاربي الخمر ومُدخني الحشيش وأكلي الأفيون. وهي وإن كانت في نظرهم حياة سعادةٍ يتخلَّلها شقاءٌ، إلا أنها خَيْرٌ عندهم من حياةٍ شقاءٍ لا تتخلَّلها سعادةٌ. ولولا حُبُّ الحياةِ الشُّعريَّةِ ما وُجدَ في الناس هذا الجُمُّ الغفيرُ من الشعراءِ المُتخيلين والعابدين المُتَبسِّلين.

لا يجدُ السَّكِّيرُ لذةَ العيشِ وهناءَته إلا إذا أسلمَ نفسه إلى كأسِ الشرابِ فنقلتهُ من هذا العالمِ البسيطِ المحدودِ إلى عالمٍ واسعِ النطاقِ، شاسع^(٢) الأطرافِ يَرى فيه كلَّ ما تشتهي نفسه أن تراه. فإن كان قبيحِ الوجهِ مُشوَّه الخلقَةِ تخيلَ أنه شَرِكُ الأَبصارِ، وفِتْنَةُ النَّظَّارِ، وأن القلوبَ مُحَلِّقَةٌ على جماله تحليقَ الأَطيارِ على الأشجارِ. وإن كان فقيرًا مُعدِّمًا لا يملكُ فلسًا واحدًا توهمَ أنه جالسٌ على عرشِ المَلِكِ والصَّوْلُجَانِ في يمينه، والتاجُ فوق رأسه واعتقدَ أنَّ عبيدَ الله تعالى جميعًا عبيدُه، وجُنُودَ المَمْلَكَةِ بأسرهم جُنُودُه، حتَّى ذلكَ الجندِيُّ الذي يسحبُه على وجهه إلى عُرفَةِ السَّجَنِ ليَقضِي فيها ليلته. وجملة القولِ إن عينه لا تَقَعُ على ما يُحزُّنُه من المنظوراتِ، وإن أذنه لا تسمعُ ما يُنفرُه من المسموعاتِ، حتَّى ليَرى الجمالَ الباهرَ في وَجهِ العجوزِ الشمطاءِ، ويسمَعُ

(٢) شاسع الأطراف: بعيدها.

(١) مرَّ مذاقها: أصبح مؤا.

في صوتِ الرعدِ القاصِفِ ألحانَ الغناء. ولا يشعرُ المتعبَّدُ بنعيم الحياة إلا إذا جنَّ الليلُ، وأوى إلى معبده، وخلا بنفسه، فتخيَّلَ أنَّ له أجنحةً من النور كأجنحة الملائكة يطيرُ بها في جوِّ السماءِ فيرِي الجنةَ والنارَ، والعرشَ والكُرسيَّ، ويسمعُ صريرَ القلمِ في اللوح، ويقرأ في أم الكتابِ حديثَ ما كان وما يكون.

ولا يستفيقُ الشاعرُ من همومِ الحياةِ وأكدارها ومصائبها وأحزانها إلا إذا جلسَ إلى منضدته، وأمسكَ بيراغِهِ، فطارَ به خياله بين الأزهارِ والأنوارِ، وتَنقَّلَ به بين مسارح الأفلak ومساحِ الأسماك، ووقفَ نارَةً على الطلولِ الدوارسِ، يبكي أهلها النازحينَ وقُطانها المُفارقينَ. وأخرى على القبورِ الدوائرِ، بندبُ جسومها البالياتِ، وأعظُمها النَّخْرَاتِ.

ليس الأملُ إلا بابًا من أبواب الحياةِ الشعريَّةِ، ولا يوجدُ بين قلوب البشر قلبٌ لا يخفقُ بالآمالِ العظامِ والأمانى الحسانِ؛ فالأملُ هو الحياةِ الشعريَّةُ العامَّةُ التي يعيشُ في ظلِّها الناسُ جميعًا، أذكِياءُ وأغبياءُ، فُهَمَاءُ وبُلْدَاءُ. والأملُ هو السدُّ المنيعُ الذي يقفُ في وجهِ اليأسِ، ويعترضُ سبيله أن يتسرَّبَ إلى القلوبِ، ولو تسرَّبَ إليها لضاقتُ بالناسِ هذه الحياةُ وثقلَ عبؤها على عواتقهم^(١)، فطلبوا الخلاصَ منها ولو إلى الموتِ، طلبًا للتغييرِ والانتقالِ، وشغفًا بالتحوُّلِ من حالٍ إلى حالٍ.

يقولون: أشقى الناس في هذه الحياةِ العقلاءُ، ويقولون: ما لذَّة العيش إلا للمجانين! أتدري لماذا؟ لأن نصيبَ الأولين من الحياةِ الشعريَّةِ أضعفُ من نصيبِ الآخرين. وذلك أنَّ عقلَ العاقلِ يحوُّلُ بينه وبين استمرارِ الطيرانِ في فضاءِ الخيالاتِ الذهنيَّةِ والمغالطاتِ الشعريَّةِ، فلا يرى سوى ما بين يديه من الحقائقِ الملموسةِ ولا يسمَحُ له علمُه بأحوالِ الدنيا وشؤونها، ومعرفته أن المصائبِ والآلامِ من لوازمها التي لا تفارقُها، يؤمنُ منها في طبيعتها من دوامِ الشُّرورِ واستمرارِ الهناءةِ، فلا يطلبُ سعةَ العيشِ من وراءِ الأملِ كبقيةِ المؤمنين، ولا يتلذَّذُ بتصديقِ ما لا يكونُ تلذَّذُ المجانين. والحقُّ أقولُ، لولا الحياةُ الشعريَّةُ التي أحيأها أحيانًا في هذه الكلماتِ التي أكتبُها، لأحببتُ، زاهدًا في هذه الحياةِ الحسيَّةِ، أن تطلعَ الشمسُ من مغربها إيذانًا بانقضاءِ العالمِ وفنائِهِ، ولتمنَّيتُ حبًّا في الانتقالِ من حالٍ إلى حالٍ أن أنتقلَ ولو إلى رحمةِ الله.

(١) عواتقهم: أكتافهم.

رباعيات الخيام



وقفتُ برباعياتِ عُمرِ الخيامِ يوماً من الأيامِ كما يقفُ مُسافرٌ ضلَّ به
سبيلُهُ في فُلواتِ الأرضِ ومجاهلِها بوادٍ مُعشِبِ أريضٍ في وَسَطِ فَلَاةٍ
جرداءٍ عندَ مُنقطعِ العُمرانِ، فما خطوتُ فيه بعضَ خطواتٍ حتَّى رأيتُ
ما شاءَ اللهُ أنْ أرى من أنوارِ بيضاءٍ، ووُرودِ حمراءٍ، وألوانٍ من النباتِ،
مُشْتبهاتٍ وغيرِ مُشْتبهاتٍ، وغُدرانٍ مُطرَكةٍ متسلسلةٍ تنبسطُ في تلكِ
الديباجةِ الخضراءِ تَبْسُطُ النجومِ البيضاءِ في الدِّيابجةِ الزرقاءِ، وأسرابِ
من الحمامِ والعصافيرِ والبلابلِ والشحاريرِ، تتطايرُ من فَرْعٍ إلى فَرْعٍ،
وتنتقلُ من عُصنٍ إلى عُصنٍ، وتجتمعُ لتفترقَ، وتفترقُ لتجتمعَ، وتتقاتلُ
مَرَّةً، وتتلاءمُ أخرى، وتصدُّ حتَّى تلامِسَ بأجنحتِها جِلْدَةَ السماءِ، ثم
تهبطُ حتَّى تُصافِحَ صَفْحَةَ الماءِ، ولا تزالُ تُغرِّدُ في صُعودِها وهُبوطِها
تغريداً مختلَفِ النغماتِ، مُتنوِّعِ النبراتِ، فيتألَّفُ من ذلكِ الاختلافِ
والتنوُّعِ نغمٌ لذيذٌ لا أعرفُ له شبيهاً إلا تلكَ الصورةَ الخياليَّةَ التي
أتخيَّلُها في نغمِ الحُورِ الحِسانِ، في فراديسِ الجنانِ.

فلم أزلُ أتقلَّبُ في أعطافِ تلكِ الغلائلِ الخضراءِ، وأجرُّ ذبولَ تلكِ الجداولِ
البيضاءِ، وأقلِّبُ طَرفي فلا أرى رائِحًا ولا غادياً، وأتسمَعُ فلا أسمعُ هاتفاً ولا داعياً،
حتى وقَفَ بي الحظُّ على دَوْحَةٍ فرعاءٍ، مائِلةٍ علي رأسِ بعضِ الجداولِ، وقد اضطجعَ
في ظلِّها على قَطيْفَةٍ من ذلكِ العُشبِ الناعمِ رَجُلٌ هانئٌ، بِاسِمٍ، يقرُّ نارةَ سُورَةِ الجمالِ
في وَجْهِ فتاةٍ جالِسَةٍ بينَ يَدَيْهِ، ويُقبَلُ أخرى تُغرُّ الكأسَ التي تتلألأُ في يَمِينِهِ، ويترنَّمُ
بينَ هَذَا وبمقطوعاتٍ شعريَّةٍ بديعةٍ، يمثُلُ فيها جمالُ الطبيعةِ وهُدوءُها وسَعادةُ
الوَحدةِ وهنأَتِها، ويطيُرُ بأجنحةِ خياله في عالمٍ بديعٍ من عوالمِ الغيبِ، تاركاً هَذَا
العالمَ الحافلَ بالهُموُمِ والآلامِ، طارداً عن نَفْسِهِ كلَّ خاطرٍ من خواطرِ الشُّرورِ والآثامِ؛
ليستكملَ لذَّتهُ في الحياةِ التي يحيها بينَ ظِلِّهِ ومائِهِ، وكأسِهِ وفتانِهِ.

فإن مرَّ بخاطره ذكُرُ الملوكِ والأمراءِ وما يتعمونُ به من عزِّ وسلطانِ، ولذَّةِ
واستمتاعِ، قال: ما لي وللملِكِ والسُلطانِ، والحاشيةِ والجُنْدِ، والقُصورِ السَّماءِ،

والجنان الفيحاء، هنالك المحنة والشقاء، والفتنة الشعواء، والهجوم والأرزاء، والدماء والأشلاء، والعيول والبكاء، وهنا الراحة والشكون في ظلال الوحدة والانفراد، حيث لا سيّد ولا مسودّ، ولا عابد ولا معبود، وبين هذين الثغرين: ثغر الفتاة، وثغر الكأس، وذئبكَ الصديقين: هذا الكتاب المفتوح، وذلك العنصن المِطْل، كل ما يتمنى السعداء لأنفسهم من غبطة في الحياة وهناءة.

وإن ذكّر الآخرة وما أعدّ الله فيها من العذاب للمُسرفين على أنفسهم قال: إن من العجز أن أبيع عاجل السعادة المعلوم بأجلها المجهول. أنا اليوم موجود، فلا بُدّ أن أستمتع بمتعة الوجود، أما الغد فلا علم لي به، ولا بما قدّر لي فيه، وعسير عليّ تصوّر أننا - معشر الأحياء الناطقين - قطع من المعدن الصامت تُدفن اليوم في باطن الأرض لينبش عنا النابشون غداً.

ثم يعود إلى نفسه مُستغفراً لله من ذنبه في شكّه وأزتيابه فيقول: اللهم إنك تعلم أنني ما كُفرت بك مُذْ أمنت، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يُضمّر المؤمنون الموحّدون، فاغفر لي آثامي وذُنوبي، فإني ما أذنبت عناداً لك، ولا تَمَرّداً عليك، ولكنّها الكأس غلبتني على أمري، وحلت بيني وبين عقلي. وأنت أجل من أن تُقاضيني مُقاضاة الدائن غريمه؛ لأنك كريم، والكريم يمنح العطية منحا، ولا يُقرضها قرصاً، ويسعّ نعمته الوارفة الظليلة حتى على العصاة والمجرمين.

وأحياناً يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيكي أحياءهم وأمواتهم، ويقول مخاطباً فتاته: رويداً أيّتها الفتاة في خطاك على هذه الأعشاب النابتة، فلعلّ جذورها مُمتدّة إليّ كبِد فتاة مثلك كان لها قلبٌ مثل قلبك، ووجدانٌ مثل وجدانك، وجمالٌ ورؤاءٌ مثل جمالك ورؤائك، ثمّ ضرب الدهر ضرباته فإذا أنت في غلالة هذه الأشعة البيضاء، وإذا هي في دُجّة تلك الأعماق السوداء، فأزفني بها، واسكبي هذه الفضلة من كأسك على تربتها علّها تسرّب إليها فتطفي ذلك اللاعج الذي يمتلج بين جوانحها.

ثم يتخيّل أحياناً كأنه واقف بين يدي رجل خزاف يُحرق حماته في تنوره^(١) فيقول له: رحمة أيها الخزاف بهذه النار، فقد كانت بالأمس إنساناً مثلك، وستكون أنت في مستقبل الأيام حماةً مثلها؛ وربّما ساقك القدر إلى يد خزافٍ تحتاج إلى رحمته ورفعهِ، فأزفّق بها اليوم بزفّق بك خزافك غداً.

(١) الحماة: الطين؛ والتنور: الفرن.

وَأَوْنَةٌ يَلْبَسُ ثَوْبَ الْوَاعِظِ الْمُنْذِرِ فَيَنْعِي عَلَى السُّعْدَاءِ سَعَادَتَهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ بِمَا
 آلَتْ إِلَيْهِ حَالُ الْمُلُوكِ السَّالِفِينَ، وَالْأَقْيَالِ (١) الْمَاضِينَ، مِنْ خَرَائِبِ دُورِهِمْ وَعُمُرَانِ
 قُبُورِهِمْ، وَغُرُوبِ شَمُوسِهِمْ، وَعَفَاءِ آثَارِهِمْ.

ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْبِكَاءِ عَلَى نَفْسِهِ، وَتَرَقُّبِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي تَصُوحُ (٢) فِيهِ
 زَهْرَتُهُ، وَتَنْطَفِئُ جُذُوتُهُ، وَتَضَعُفُ مُنْتُهُ، وَيَمْحُو نَهَارٌ مَشِيبَهُ لَيْلٌ شَبَابِهِ، فَيُزْحَفُ إِلَى
 قَبْرِهِ خُطْوَةً خُطْوَةً حَتَّى يَتَرَدَّى فِيهِ، فَيَعُودُ كَمَا كَانَ سِرًّا مَكْتُومًا فِي ضَمَائِرِ الْأَقْدَارِ،
 وَذَرَّةً هَائِمَةً فِي مَجَاهِلِ الْأَكْوَانِ.

وَهَكَذَا مَا زَالَ يَنْتَقِلُ مِنْ عِبْرَةٍ بَلِيغَةٍ، إِلَى عِظَةٍ بَدِيعَةٍ، وَمِنْ خَيَالٍ جَمِيلٍ إِلَى تَشْبِيهِ
 رَقِيقٍ، وَمِنْ وَصْفِ نَاطِقٍ، إِلَى تَمَثِيلِ صَادِقٍ، حَتَّى أَصْبَحَتْ أَعْتَقْدُ أَنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي
 تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بُرْدَةٌ هَذَا الشَّاعِرِ الْجَلِيلِ مِرْأَةً صَافِيَةً قَدْ تَمَثَّلَ فِيهَا هَذَا الْكَوْنُ بِأَرْضِهِ
 وَسَمَائِهِ، وَلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَنَاطِقِهِ وَصَامِتِهِ، وَصَادِحِهِ وَبَاطِنِهِ، وَأَنَّ فَخَارَ الْأَعْرَابِ بِمُتَّبِعِيهَا
 وَمَعْرَبِيهَا، وَالْفَرَنْسِيَّةِ بِبَلَا مَرْتِنِيهَا وَفِكْتُورِيهَا، وَالسُّكْسُونِ بِشُكْسَبِيرِيهَا، وَمِلْتُونِيهَا،
 وَالطَّلِيانِ بِدَانْتِيهَا، وَالْأَلْمَانِ بِغُوتِيهَا، وَالرُّومَانَ بِفَرَجِيلِيهَا، وَالْيُونَانَ بِبَهْرَمِيرِيهَا، وَمِصْرَ
 الْقَدِيمَةَ بِبِنْتَاؤُورِيهَا، وَمِصْرَ الْحَدِيثَةَ بِأَحْمَدِيهَا، لَا يَقِلُّ عَنْ فَخَارِ فَارِسَ بِخِيَامِيهَا.



(١) الأقيال: الأسياد.

(٢) تصوح: تيبس.

إلى تولستوي (١)



قِفْ سَاعَةً وَاحِدَةً نُودِّعْكَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ تَرَحَّلَ لِطَيْبِكَ، وَتَتَّخِذَ السَّبِيلَ إِلَى دَارِ عَزْلَتِكَ، فَقَدْ عَشْنَا فِي كَنَفِكَ عَلَى مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مِنْ بَعْدِ الدَّارِ، وَشَطَّ الْمَزَارِ، عَهْدًا طَوِيلًا كُنَّا فِيهِ أَصْدِقَاءَكَ، وَإِنْ لَمْ نَرَكَ، وَأَبْنَاءَكَ، وَإِنْ كَانَ لَنَا آبَاءٌ مِنْ دُونِكَ. وَعَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ تَفَارِقَنَا قَبْلَ أَنْ نَقْضِيَ حَقَّ عَشْرَتِكَ بِدَمْعَةٍ نَدْرِفُهَا بَيْنَ يَدَيْكَ فِي مَوْقِفِ الْوَدَاعِ.

حَدَّثَنَا النَّاسُ عَنْكَ أَنْكَ ضَمَّتْ بِهَذَا الْمَجْتَمِعِ الْإِنْسَانِيَّ ذُرْعًا بَعْدَ أَنْ أَعْجَزَكَ إِصْلَاحُهُ وَتَقْوِيمُهُ فَأَبْغَضْتَهُ، وَعَفَتْ النَّظَرَ إِلَيْهِ، وَأَبْغَضْتَ لِبُغْضِهِ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى زَوْجَكَ وَوَلَدَكَ، وَفَرَرْتَ بِنَفْسِكَ مِنْهُ إِلَى غَابٍ تَسْمَعُ زَيْبَرَ سَبَاعِهِ، أَوْ دِيرَ تَأْنُسُ بَرْتَنَةَ نَاقُوسِهِ، وَأَسَجَلْتَ أَنْ لَا تَعُودَ إِلَيْهِ، وَأَنْ تَقَطَّعَ كُلَّ صِلَةٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِلَى الْأَبَدِ. فَعَدَّرْنَاكَ، وَلَمْ نَعْتَبْ عَلَيْكَ، وَلَمْ نُسَمِّكَ جَبَانًا وَلَا رَعِيدًا، وَلَا مُوَلِّيًّا وَلَا مُدْبِرًا؛ لِأَنَّكَ قَاتَلْتَ فَأَبْلَيْتَ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي غِمْدِكَ سَيْفٌ، وَلَا فَوْقَ عَاتِقِكَ رُمْحٌ، وَلَا فِي كِنَانَتِكَ سَهْمٌ، وَالْعَدُوُّ كَثِيرٌ عَدْدُهُ، صَعَبٌ مَرَّاسُهُ، وَافِرَةٌ قُوَّتُهُ، وَالشَّجَاعَةُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا جَنُودٌ، وَالْوُقُوفُ أَكْثَرُ مِنْ ثَمَانِينَ عَامًا أَمَامَ عَدُوٍّ لَا أَمَلَ فِي بُرَاجِهِ، وَلَا مَطْمَعٍ فِي زِيَالِهِ، عِنَادٌ. وَهَلْ يَكُونُ إِنْ أَنْتَ تَبَّتْ فِي مَوْقِفِكَ حَتَّى سَقَطَتْ قَتِيلًا فِي الْمَعْرَكَةِ إِلَّا مَصِيرَ أَوْلِيكَ الْفَلَاسِفَةِ الْعُظْمَاءِ مِنْ قَبْلِكَ الَّذِينَ قَاتَلُوا حَتَّى قُتِلُوا فَهَدَّرَتْ دِمَاؤَهُمْ، وَاعْتَمِضَتْ عَيُونُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَرَوْا مَنظَرًا مِنْ مَنَاطِرِ الصَّلَاحِ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ يُعْزُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَيُرْوَحُونَ بِهِ مَا يَجِدُونَ بَيْنَ جَوَانِحِهِمْ مِنْ أَلَمِ التَّرْعِ، وَفِي أَفْوَاهِهِمْ مِنْ مَرَارَةِ الْمَوْتِ؟

مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الدُّنْيَا؟ وَمَا الَّذِي أَفْذَتَ مِنْهَا؟ وَأَيْنَ وَقَعَ عَلْمُكَ وَفَضْلُكَ؟ وَلِسَانُكَ وَقَلْمُكَ؟ وَقُوَّةُ عَارِضَتِكَ، وَمَضَاءُ حُجَّتِكَ، مِنْ آثَامِ النَّاسِ وَشُرُورِهِمْ وَقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ وَأَفْنِدَتِهِمْ، وَظَلَمِ أَلْسِنَتِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ؟

(١) كتبت هذه المقالة على أثر ما جاء في الأخبار أن تولستوي ترك منزله هائما على وجهه ليعتزل الناس في أحد الأديرة، أو في أحد الغابات، كذا في طبعة ١٩١١ م.

قلت لقيصر: أيها الملك، إنك صنيعة الشعب وأجيرُهُ، لا إلهة ومعبودُهُ، وإنك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الأكار في المزرعة، وذلك العامل في المصنع، كلاكما ماجورٌ على عملٍ يعملُهُ، وكلاكما مأخوذٌ بإتقانٍ ما يعمل. فكما أن صاحب المصنع يسأل العامل هل وفي عمله ليوفي له أجره، كذلك يسأل الشعب: هل قمت بحماية القانون الذي وكل إليك حراسته فأفقدته كم هو من غير تبادل ولا تأويل؟ هل عدلت بين الناس وأسيت بين قوَّيهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟ هل استطعت أن تستخلص عقلك من يدي هواك، فلم تدع للحب ولا للبغيض سلطاناً على نفسك يعدل بك عن منهج العدل ومحجته؟ وهل أصممت أذنيك عن سماع كلمات الملق والمداهنة والمدح والثناء، فلم تُفسد على الناس فضائلهم، ولم تقتل عزة نفوسهم، ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك، أو الطمع في ضعفك، مذهب الزلفي إليك بالكذب والنميمة، والتجسس والتسقيط، وذلة الأعناق وصرع الحدود؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه وراك أميناً على العهد الذي عهد إليك به أبقى عليك وأبقى لك عرشك وتاجك، وحفظ لك يدك التي اصطنعتها عنده، وأحسن إليك كما أحسنت إليه، أو لا كان له معك شأنٌ غير هذا الشأن، ورأي غير ذلك الرأي.

فما سمع منك هذه الكلمات حتى أكبرها وأعظمها؛ لأنه لم يجد بين الكثيرين الذين يُعاشرونه من يسمعه مثلها، فحقد عليك وأضمر لك من الشر ما يضمُر أمثاله لأمثالك، واستعان على مطارقتك بأولئك الذين أدل نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل لبعدهم عن مقاتلة الحق ومصارعته في مواقف خوفه وقلقه.

وقلت للغرندوق الروسي: ليس من العدل أن تملك وحدك - وأنت نائمٌ في سريرك، بين روضك ونسيمك وظلك ومائك - هذه الأرض التي تضم بين أقطارها مليون فدان، ولا يملك واحدٌ من هؤلاء الملايين - الذين يفكحونها ويحرثونها، ويبدرون بذورها ويستنبئون نباتها، ويسوقون ماشيتها، ويتقلبون بين حرها وبردها وأجيجها وتلجها - شبراً واحداً فيها، فأعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك، وموتهم في سبيل حياتك، واعلم أن الأرض لله يورثها من يشاء.

ثم لم تقنع بما بدلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلاً من نفسك،

فَعَمَدَتْ إِلَى أَرْضِكَ فَجَعَلْتَهَا قِسْمَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا مِنَ الزَّارِعِينَ. ثُمَّ عَمَدَتْ إِلَى فَأْسِكَ فَحَمَلَتْهَا، وَمَاشِيَتِكَ فَأَخَذْتَ بِزَمَامِهَا، وَلَمْ تَزَلْ سَائِرًا حَتَّى بَلَغْتَ مَزْرَعَتَكَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي اسْتَبَقَيْتَهَا لِنَفْسِكَ فَضَرَبْتَ مَعَ الضَّارِبِينَ، وَخُضَّتْ مَعَ الْخَائِضِينَ لَتَعَلَّمَ ذَلِكَ الْجَبَّارَ بِفِعْلِكَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُعَلِّمَهُ إِلَّاهُ بِقَوْلِكَ. فَسَخِرَ مِنْكَ، وَرَتَى لِعَقْلِكَ، وَأَلَّفَ مِنْ أَحَادِيثِكَ رَوَايَةَ غَرِيبَةَ يَرُوحُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ - فِي مُجْتَمَعَاتِ أُنْسِهِ وَلَهْوِهِ - مَا يُسَاوِرُهُ مِنَ السَّامَةِ وَالضَّبَجَرِ.

وَقَلْتَ لِلكَاهِنِ: إِنْ الْمَسِيحَ عَاشَ مُعَذَّبًا مُضْطَهَدًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرْضَ أَنْ يُقَرَّ الظَّالِمِينَ عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَأَنَّهُ أَبَى أَنْ يُخْفِيَ الْمَصْبَاحَ الَّذِي فِي يَدِهِ تَحْتَ ثَوْبِهِ، بَلْ رَفَعَهُ فَوْقَ رَأْسِهِ غَيْرَ مُبَالٍ بِنِقْمَةِ الْمُلُوكِ عَلَى ذَلِكَ النُّورِ الَّذِي يَكْشِفُ سَوَاتِمَهُمْ، وَيَهْتِكُ أَسْتَارَهُمْ، وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ خَلِيفَتُهُ، وَحَامِلُ أَمَانَتِهِ، وَالْقَائِمُ بِنَشْرِ آيَاتِهِ، وَالْمُتَرَسِّمُ مَوَاقِعَ أَقْدَامِهِ فِي خُطْوَاتِهِ، فَمَا هَذِهِ الْجَلْسَةُ الدَّلِيلَةُ الَّتِي أَرَاكَ تَجْلِسُهَا تَحْتَ عُرُوشِ الظَّالِمِينَ؟ وَمَا هَذِهِ الْيَدُ الَّتِي تَسْطُهَا إِلَيْكَ بِالْمُودَةِ وَالْإِخَاءِ كَأَنَّمَا تَرِيدُ أَنْ تَعْقِدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَهْدًا أَنْ يَظْلَمُوا مَا شَاءُوا وَيَسْلُبُوا مَا أَرَادُوا بِاسْمِكَ وَاسْمِ الْكِتَابِ الَّذِي تَحْمِلُهُ فِي يَدِكَ؟ وَمَا هَذِهِ السُّلْطَةُ الَّتِي تَزْعُمُهَا لِنَفْسِكَ أَنْ تُدْخِلَ الْجَنَّةَ مَنْ تَشَاءُ، وَتُخْرِجَ مِنْهَا مَنْ تَشَاءُ؟ وَمَا هَذِهِ الْقُصُورُ الَّتِي تَسْكُنُهَا، وَالِدِيَابِجُ الَّذِي تَلْبَسُهُ؟! أَيْنَ الْانْقِطَاعُ عَنِ الدُّنْيَا وَرُخْرِفِهَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَالْانكِمَاشِ فِي طَاعَتِهِ.

ذَلِكَ مَا قَلْتَ لِلكَاهِنِ، فَكَانَ جَوَابُهُ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْكَ كِتَابَ الْحِرْمَانِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَعْتَرِفُ لَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى إِعْطَاءِ وَلَا مَنَعِ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ تَشْوِيَهُ سُمْعَتِكَ وَالْعَضَّ مِنْ كِرَامَتِكَ، وَإِعْرَاءِ الْعَامَّةِ بِكَ، فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّ مَا أَفَدْتَ مِنْ نَصِيحَتِكَ وَعِظَتِكَ.

وَأَبْكَاكَ مَنْظَرُ الْمُنْفِيِّينَ فِي سِيْرِيَا، وَمَا يَلَاقُونَ مِنْ صُنُوفِ الْعَذَابِ وَيُعَالِجُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَلَامِ، فَصَرَخْتَ صَرْخَةً دَوَّى بِهَا الْمَلَانُ: الْأَعْلَى وَالْأَدْنَى، وَقَلَّتْ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّرَّ لَا يَدْفَعُ الشَّرَّ، وَإِنَّ الْأَشْقِيَاءَ مَرْضَى فِعَالِجُوهُمْ وَلَا تَنْقِمُوا مِنْهُمْ، فَالْتَرِيْبَةُ الصَّالِحَةُ تَمْحُو الْجَرَائِمَ، وَالْانْتِقَامُ يُلْهَبُ نَارَهَا، وَاجْعَلُوا الْمَدَارِسَ مَكَانَ السُّجُونِ، وَالْمُعَلِّمِينَ مَكَانَ السَّجَانِينَ. فَلَمْ يَسْمَعْ صَرْخَتَكَ سَامِعٌ، وَلَا بَكَى لِبَكَائِكَ بَاكٌ، وَمَا زَالَ الْقَضَاءُ يَحْكُمُونَ وَالْجُنْدُ يُصَادِرُونَ، وَالسَّجَّانُونَ يُعَذِّبُونَ، وَالْمَسْجُونُونَ يَصْرُخُونَ.

وَأَزَعَجَكَ مَنْظَرُ الدِّمَاءِ الْمُتَدَفِّقَةِ فِي مَعَارِكِ الْحُرُوبِ، وَبِكَاءِ النِّسَاءِ الْمُعُولَاتِ خَلْفَ أَزْوَاجِهِنَّ وَأَوْلَادِهِنَّ وَإِخْوَتِهِنَّ، وَهُمَّ سَائِرُونَ إِلَى حَرْبٍ لَا يَعْرِفُونَ لَهُمْ مَصْدَرًا

ولا مَورِداً، وقد حَمَلَ بعضهم لبعضِ ضَغائنٍ وسَخائِمٍ^(١) لا سَبَبَ لها إلا ذلكَ الوَهْمُ الذي غَرَسَهُ في قلوبهم قُساةُ السِياسَةِ فَخَيَّلَ إليهم أُنْهُمُ أَعْداءُ وَهُمُ أَصْدِقاءُ، فَخَلَعُوا ثوبَ الإنسانِ ولبَسُوا فِرَوةَ السَّبُعِ، وَأَنْشَبَ كُلُّ مِنْهُمُ ظَفِرَهُ في صَدْرِ أخيه كَأَنَّهُ يُفْتَسُّ عَن قَلْبِهِ؛ لِيُنْتَزِعَهُ مِن مَكَانِهِ، ذلكَ القَلْبَ الذي لو شَقَّ عَن سُوَيْدائِهِ^(٢) لَوَجَدَ لِنَفْسِهِ فيه مَكَاناً عَلِيلاً لولا جِوَرُ^(٣) السِياسَةِ وضَلالُها.

فما أَغْنَى عَنكَ بكاؤُكَ وحينئُكَ، ولا أَجْدَى^(٤) «لديكَ عَويلُكَ وأُنْيُكَ، فالحَرْبُ لم تَزَلْ باقيةً، مَصانِعُ المَوتِ لم تَكْتَفِ بما أَعَدَّتْ مِنَ المَهْلِكاتِ لمعارِكَ الأَرْضِ حَتَّى أَصْبَحَتْ تُعَدُّ مِثْلَها لمعارِكَ السَّماءِ.

فَهينِئاً لَكَ أَيُّها الرَجُلُ العَظيمُ ما اختَرْتَ لِنَفْسِكَ، مِنَ تِلْكَ العُرْلةِ الهادِئةِ المُطمِئِنَّةِ. لَقَدْ نَجوتَ بِها مِنَ حَياةٍ لا سَبيلَ لِلعاقِلِ فيها إلا أَنْ يَسْكُتَ فيهِلِكَ غَيباً، أو يَنْطِقَ فيموتَ كَمَداً.

رَبِّما اسْتَطاعَ الحَكيمُ أَنْ يُحِيلَ الجَهِلَ عِلْماً، وَالظُلْمَةَ نُوراً، وَالسَوادَ بياضاً وَالبحرَ بَرًّا، وَالبَرَّ بَحْراً، وَأَنْ يَتَّخِذَ نَفَقاً في الأَرْضِ أو سُلْماً في السَماءِ، وَلكِنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحِيلَ رذيلَةَ المَجمِيعِ الإنسانيِّ فَضيلَةَ، وَفَسادَهُ صَلاحاً.

ما دامَ الإنسانُ لا يَنْتَهِي عَن ظَلَمِ الإنسانِ حَتَّى يَخافَهُ، وما دامَ لا يُحسِنُ إليه إلا إذا أرادَ أَنْ يَتَّخِذَهُ عَبيداً يعبُدُهُ مِن دونِ اللهِ، وما دامَ للأثَرَةِ^(٥) هذا السُلطانَ الأَكْبَرَ على أَفرادِ المَجمِيعِ، وَمِن أَكْبَرَ كِبارِهِ إلى أَصغَرَ صِغارِهِ، فإنسانَ اليَومِ هُوَ بَعينُهُ إنسانَ الغاباتِ وَالأحراشِ بِالأمسِ، لا فَرَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ سِوى أَنَّهُ قد أَوَى اليَومَ بِشُورِهِ وَمَقاسِدِهِ إلى بَيتٍ مِنَ الزجاجِ يَفْعَلُ فَعلاتِهِ مِنَ ورائِهِ، وَلَكِنَّ الزجاجَ شَفافٌ لا يَكْتُمُ ما وَراءَهُ.



(١) سخائِم: جمع سَخيمَة، وهي الحَقْد.

(٢) سُوَيْدائِهِ: أَعماقُهُ.

(٣) جِوَر: ظَلَم.

(٤) أَجْدَى عَليكَ: نَفَعَكَ.

(٥) الأَثَرَةُ: الأَثانِيَةُ.

وارحمته (١)



في ذلك الأقليم القاحل في تلك الصحراء المحرقة طائفة من فقراء المسلمين وبائسيهم، لا يملكون من الحول غير قلوب يملؤها اليقين بالله، والثقة به، ولا من الحياة غير السنة تهتف بها صباحها ومساءها، وبكورها وأصائلها، بالدعاء إلى الله تعالى أن يتولى أمرها، ويسدّد خطاها، وييسر لها السبيل إلى القضاء النافذ، يريد أن يسلبها ما أبتت الأيام في يدها، وما أبتت في يدها سوى لقيمات غير سائغة، وجرعات غير هنيئة، وظل غير ظليل.

وارحمته لجماعة المسلمين في طرابلس، إنهم عاجزون عن أن يعدلوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنايله وقذائفه غير أجسام ستصيح عمّا قريب أشلاء مبعثرة تحت كل كوكب، وقلوب لا تزال تنبض حتى تسمع طلقات المدافع والبنادق فتسكن، وأرواح ستطير في آفاق السماء طيران ذلك الدخان في أجواز الفضاء.

وارحمته لهم، إنهم يستغيثون فلا يجدون مغيثاً، ويستصرخون فلا يسمعون مغيثاً، وقد تقطعت بهم الأسباب، وأعوزتهم الوسائل، وسدت في وجوههم السبل، فلم يبق لهم منها إلا سبيل الموت، وفي الموت راحة للبايسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها، لو لا أنهم يتركون من بعدهم بين يدي ذلك العدو الظالم أرامل ضعفاء، وأيتاماً صغاراً، وشيوخاً كباراً، لا يعلمون ماذا أضمر لهم القدر في صدره من نعيم أو شقاء.

كأنّي أراهم وقد غلت في صدورهم حمية الدين والوطن ودارت في رؤوسهم سكرة العزة العربية، فأبوا إلا أن يزحفوا إلى الموت الأحمر زحف المستقتل المستبسل الذي يعلم أن باب الحياة السعيدة الأبدية لا يفتح إلا بين يدي الأرواح التي احتقرت أجسادها وازدرتها، فتجردت من أثوابها الرثة البالية وألقته من ورائها.

وكأنّي أرى الرجل منهم، وقد دخل إلى بيته ليعدّ عدته، ويودّع أهله الوداع الأخير؛ فبكت أمه وناحت زوجته وصاح ولده، فبكى لبكائهم، ورنّ لرنينهم، لا جزعاً من

(١) كتبت أثناء الحرب بين إيطاليا وطرابلس الغرب كذا في طبعة ١٩١١ م.

الفراق؛ لأنه فراقٌ يُعزِّبه عنه لقاءُ الله تعالى، ولا خشيةٌ من الموت؛ لأنه يعلمُ أن الحياةَ الذليلةَ أحقرُّ من أن يَضِنَّ بها صاحبُها بل لا ترحمُ صغيراً، ولا تعطفُ على كبير، أو أن يَهْلِكُوا من بعده جوعاً وفقرًا، لأنه لم يترك لهم قوتاً يتكفون به، ولا عماداً يعتمدون عليه. فإذا عَلِمَ أن موقفه بين أهله موقفٌ جَلَلٌ يكادُ يغلبُ فيه على صبره، نظرَ نظرةً في السماءِ أرسلَ فيها إلى ربِّه جميعَ ما تهتَفُ به نفسه القريحةُ من وجدٍ ورحمةٍ وبكاءٍ وحنين، وأملٍ ورحاءٍ ثم انفتلَ من بين أيديهم، ومضى لسبيله لا يلوي على شيءٍ ممَّا ورآه، حتى يبلغَ ساحةَ الحرب، فلا يزالُ يقرعُ بابَ الحياةِ الأخرى حتى يفتحَ له.

هنالك تنوحُ النائحاتُ، وتبكي الباقياتُ، وتطيرُ النفوسُ، وتضعقُ القلوبُ، وترنُّ المنازلُ والدُّورُ بالتَّحِيْبِ والتَّعدادِ.

وهناك ترى المرأةَ المسلمةَ المخبَّأةَ التي لم ترَ في حياتها وجهَ الشمسِ إلا من كوةِ بيتها، برزةَ الوجهِ، عاريةَ الرأسِ حيرى مولهةَ هائمةً في الطُّرُقِ والمذاهبِ، تُسألُ الغادينَ والرائحينَ ما فعلَ اللهُ بولدها أو زوجها أو أخيها، فإما بقيتْ في حيرتها بياضَ يومها وسوادَ ليلها، وإما عادتْ إلى بيتها بالثقلِ القاتلِ، والحُزنِ الدائمِ.

وهناك ترى الشيوخَ الكبارَ والأطفالَ الصِّغارَ، والعاجزينَ والضعفاءَ لاثنينَ بالتلالِ والأكامِ، يحاولون أن يتَّقُوا بها صواعقَ الحربِ وشُهْبَهَا فلا تقيهم، أو عائذينَ بالمضايقِ والشعابِ يفرُّونَ إليها من وجوهِ الخيلِ وسنابكها فلا تحميهم.

وهناك ترى أولئك القومَ الذين يُسمونَ أنفسهم مُجاهدينَ، أو فاتحينَ، أو قوَّادًا عظامًا، أو سؤاسًا كبارًا، يمشونَ بين بيوتِ المسلمينَ ومجامعهم مشيةَ الفرحِ المُختالِ، وينظرونَ إلى أولئك المساكينَ الذين سرقوا حرَّيتهم واستقلالهم، وانتهبوا أرواحهم وأموالهم، نظرَ السيِّدِ إلى مولاةِ الذي ملكَ ولاءه بماله، واستعبدهَ بفضله، وإحسانه. وربما رموا إليهم في تلك الساعةِ بلقيماتِ كتلك التي يلقيها سيِّدُ الكلبِ إلى كلبه، أو الراعي إلى ماشيته؛ ليشهدوا العالمَ الإنسانيَّ أجمعه على كرمهم وسخائهم، وعطفهم ورحمتهم، وأنهم ما سفكوا الدماءَ ولا قطعوا الأوصالَ، ولا أيَّموا النساءَ، ولا يتَّموا الأطفالَ، ولا انتهكوا الحرِّماتِ إلا خِدمةً للإنسانيةِ العامَّةِ وإجلالاً لشأنها.

لا أحسبُ أن مسلماً دخلَ الإيمانَ قلبه فملاهُ رحمةً وإحسانًا، وعطفًا وحنانًا، يستطيعُ أن يتَّخذَ لجنبه في ظلمةِ الليلِ مضجعًا، أو يجدَ لنفسه في ضحوةِ النهارِ قرارًا، حزنًا على هؤلاء المنكوبينَ الحائرينَ الذين يدورونَ بأعينهم في مشارقِ

الأرض ومغاربها يلتمسون ناصراً يعينهم على أمرهم، أو مُنجداً يدفع عنهم عادية البلاء فلا يجدون إلا أمماً إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل. فهي تعجز عن النظر لنفسها، فأحرى ألا تنظر لغيرها. فلم يبق بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يمدوهم بقليل من القوت يستعينون به في جهاد عدوهم ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتصورون جوعاً من بعدهم.

أيها المسلمون:

إنكم إن اجتمعتم اليوم لن تفرقوا غداً وإن هديتم لرشدكم في موقفكم هذا لن تضلوا من بعده أبداً، وإنكم إن قدمتم بين أيديكم هذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم، ووفى لكم بما وعدكم من نصره ومعوته ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ نَصْرُوا اللَّهَ نَصْرَكُمُ وَيُنَازِلَهُمْ أَقْدَامُكَ﴾ [محمد: ٧].

خطبة الحرب...

يا أبطال برقة، وليوث طرابلس، وحماة الثغور، وذادة المعادل والحصون، صبراً قليلاً في مجال الموت، فها هي نجمة النصر تلمع في آفاق السماء فاستنبروا بثورها، واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم.

إن الله وعدكم النصر، ووعدتموه الصبر، فأنجزوا وعدكم وينجز لكم وعده.

لا تحدثوا أنفسكم بالفرار، فوالله إن فررتم لا نفرتون إلا عن عرض لا يجد له حامياً، وشرف لا يجد له ذاتاً، ودين يشكو إلى الله قوماً أضاعوه، وأنصاراً جخلوه.

إنكم لا تحاربون رجالاً أشداء بل أشباحاً تتراءى في ظلاله الأساطيل، وخيالات تلوذ بأكناف الأسوار والجدران، فاحملوا عليها حملة صادقة تطير بما بقي من البابها، فلا يجدون لبناديقهم كفاً ولا لأسيافهم ساعداً.

إنهم يطلبون الحياة، وأنتم تطلبون الموت، ويطلبون القوت، وتطلبون الشرف، ويطلبون غنيمة يملأون بها فراغ بطونهم، وتطلبون جنة عرضها السموات والأرض، فلا تجزعوا من لقاءهم، فالموت لا يكون مر المذاق في أفواه المؤمنين.

إنكم تعتمدون على الله، وتثقون بعدله ورحمته، فتقدموا إلى الموت غير شاكين ولا مرتابين، فما كان ليخذلكم إلى أنفسكم وأنتم من القوم الصادقين.

إن هذه القطرات من الدماء التي تسيل من أجسامكم ستستحيل غداً إلى شهب نارية حمراء تهوي فوق رؤوس أعدائكم فتحرقهم، وإن هذه الأتات المتصاعدة من صدوركم ليست إلا أنفاس الدماء صاعدة إلى إله السماء أن يأخذ لكم بحقكم ويُعديكم على عدوكم، والله سميع الدعاء.

إن أعداءكم قتلوا أطفالكم، وبقرؤا بطون نساءكم، وأخذوا بلحى شيوخكم الإجلال فساقوهم إلى حفائر الموت سوفاً، فماذا تنتظرون بأنفسكم؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجلكم وأصدقوا حملتكم عليهم، وجعجعوا بهم واقتلوهم حيث ثققتموهم، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل أرض وتحت كل سماء، وأزعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم، ويقتطهم ومنامهم، فما أعذب الموت في سبيل تنغيص الظالمين!

احفروا لأنفسكم بسيوفكم قبوراً، فالقبر الذي يحفر بالسيف لا يكون حفرة من حفر النار.

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين، ولا الواسطة بين الطرفين، ولا العيش الذي هو الموت أشبه منه بالحياة، بل اطلبوا إما الحياة أبداً، وإما الموت أبداً.

غداً ينتهك أعداؤكم حرمة أرضكم ودياركم، ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم؛ ويطأون بحوافر خيولهم مساجدكم ومعابدكم، وينظمون في ثقوب أنافكم مقاوِد يقودونكم بها إلى مواقع الذل والهوان، كما تقاد الإبل المخشومة إلى معاطنِها. فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها في سبيل الله ثم تموتون موت الجبان في حياته وحياة الشجاع في موته، فموتوا لتعيشوا، فوالله ما عاش ولا مات كريماً.

إن هذه الأساطيل الرابضة على شواطئكم، والمدافع الفاغرة أفواهاها إليكم، والبنادق المسددة إلى صدوركم ونحوركم، لا يمكن أن يتألف منها سور منيع يعترض سبيلكم في رحلتكم من هذه الدار إلى تلك الدار. فسيروا في طريقكم إلى آخرتكم، فإن الأعداء إن ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت.

المستमित لا يموت، والمستقتل لا يُقتل، ومن يهلك في الإدبار أكثر ممن يهلك في الإقدام، فإن كنتم لا بَد تطلبون الحياة فانتزعوها من بين ماضعي الموت

إِنَّ كِتَابَ التَّارِيخِ قَدْ عَلَّقُوا أَفْلاَمَهُمْ بَيْنَ أُنَامِهِمْ، وَوَضَعُوا صَحَائِفَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ،
وَانْتَبَهُوا مَاذَا تَمَلُّونَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَسَنَاتٍ أَوْ سَيِّئَاتٍ. فَأَمَلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ مَا يَتْرَكُ
فِي نَفْسِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَثَرِ الَّذِي تَرَكْتُهُ فِي نَفْسِكُمْ تِلْكَ الصَّحَائِفُ الْبِيضَاءُ الَّتِي
سَجَّلَهَا التَّارِيخُ لِأَوْلِيكَ الْأَبْطَالِ الْعِظَامِ.

مُوتُوا الْيَوْمَ أَعْرَاءَ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا عَدَا أَدْلَاءَ.

مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَطْلُبُوا الْمَوْتَ فَيَعُوزَكُمُ، وَتَنْشُدُوهُ فَيُعْجِزَكُمُ.

مُوتُوا الْيَوْمَ شُهَدَاءَ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ تُكَفِّنُكُمْ ثِيَابُكُمْ، وَتَغْسِلُكُمْ دِمَاؤُكُمْ وَتَصَلِّيَ
عَلَيْكُمْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ قِضَاءُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، فَيَمُوتَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَجِدُ
بِجَانِبِهِ مُسْلِمًا يَصَلِّيَ عَلَيْهِ صَلَاةَ الْجَنَازَةِ وَيَمْشِي وَرَاءَ نَعْشِهِ إِلَى قَبْرِهِ حَتَّى يُودِعَهُ
حُفْرَتَهُ، وَيُخَلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ.

إِنَّ الشَّيْخَيْنِ أَبَا بَكْرَ وَعَمْرَ، وَالْفَارِسَيْنِ خَالِدًا وَعَلِيًّا، وَالْأَسَدَيْنِ حَمْزَةَ وَالزُّبَيْرَ،
وَالْفَاتِحِينَ سَعْدًا وَأَبَا عُبَيْدَةَ، وَالْبَطْلَيْنِ طَارِقَ بْنَ زِيَادٍ وَعَقَبَةَ بْنَ نَافِعٍ، وَجَمِيعَ حُمَاةِ
الْإِسْلَامِ وَذَادَتِهِ، مِنَ السَّابِقِينَ الْأُولِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ الصَّابِرِينَ، يُشْرَفُونَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ
مِنْ عَلِيَاءِ السَّمَاءِ؛ لِيَنْظُرُوا مَاذَا تَصْنَعُونَ بِمِيرَاثِهِمُ الَّذِي تَرَكَوهُ فِي أَيْدِيكُمْ. فَامْضُوا
لِسَبِيلِكُمْ، وَاهْتِكُوا بِأَسْيَافِكُمْ حِجَابَ الْمَوْتِ الْقَائِمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَقُولُوا لَهُمْ: إِنَّا بِكُمْ
لَاحِقُونَ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِكُمْ لَمُهْتَدُونَ.

إِنَّ هَذَا الْيَوْمَ لَهُ مَا بَعْدَهُ، فَلَا تُسَلِّمُوا أَعْنَاقَكُمْ إِلَى أَعْدَائِكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ لَنْ يُعْبَدَ
اللَّهُ بَعْدَ الْيَوْمِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَبَدًا.



الإنسانية العامة



الجامعة الإنسانية هي الكلية العامة التي يلجأ إلى كتفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته أزمة، أو نزلت به نازلة، وهي المطلع الذي تشرق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتنبئ ظلماءه، وتكشف غمائه. وهي الحكم العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عروتها، ويدب ديبب العداوة والبغضاء بين أحيائها. وهي السلطان المطلق الذي يجلس على كرسي عظمته وجلاله فتحز له الجباه سجداً، وتبتدر يديه الأفواه لثماً وتقبيلاً.

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الأساسية الثابتة التي رأت طينة آدم أولاً، وسترى نفخة إسرافيل آخرًا، والتي تسير مع الإنسان حيث سار في برّه وبحره، وسهله وحزنه، وحياته وموته، وتدور معه حيث دار في إيمانه وكفره، وصلاحه وفساده، واستقامته واعوجاجه، لا يتغير لونها ولا يتحول ظلها، ولا تستحيل مادتها، ولا تبلى جدتها على كثر الليالي ومرّ الأيام.

ما من جامعة من الجامعات القومية أو الجنسية أو الدينية أو العائلية إلا وهي تعتمد على الجامعة الإنسانية في سيرها وتستظل بظلها، وتهدي بهديها. فالمجاهد الوطني يقول: إني أدافع عن وطني، وأحمي حوزته، وأقوم على ثغوره وعوراته مقام الدائد المناضل، لأنني أعتقد أنني إن أغفلت ذلك وأغفله في وطنه كل ممنو^(١) بمثل ما أنا ممنو به في وطني، تساقطت الحواجز القائمة في وجه المطامع البشرية، فجرى سئلهما مُتدفعًا لا يقوم له شيء حتى يأتي عليه. والمجاهد الديني يقول: إني أعتقد أن الإنسانية لا تزال معدّبة يأكل قوئها ضعيفها، ويغتال

(١) ممنو: من منا يمنو منوال الرجل بكذا: ابتلاه واختبره.

كبيرها صغیرها، ويستضعفُ حاکمها معكومتها، حتّى تدينَ بالدين الذي أدينُ به. فأنا إن حاربتُ البلادَ، وقاتلتُ العبادَ، فإنما أريدُ بخَوْضِ هذا البحرِ الأحمرِ منَ الدماءِ أن أصلَ إلى سفينةِ الإنسانيةِ المُشرقةِ على الغرقِ فأستخلصها من يدِ الموتِ الذي يُحيطُ بها.

هكذا يقولُ دُعاةُ الدينِ ودُعاةُ الوطنِ، ودُعاةُ كلِّ جامعةٍ، وهكذا يجبُ أن يقولوا. فإن لم يفعلوا، وأبوا إلا أن يُغفلوا ذكرَ الجامعةِ الإنسانيةِ في دُعائهم إلى جامعاتهم التي يدعون إليها، فسَدَّ عليهم أمرهم في كلِّ ما يقولون وما يفعلون.

ليس لصاحبِ وطنٍ من الأوطانِ، أو صاحبِ دينٍ من الأديانِ أن يقولَ لغيره ممّن يسكنُ وطنًا غيرَ وطنه، أو يدينُ بدينٍ غيرِ دينه: أنا غيرُك، فيجبُ أن أكونَ عدوكَ؛ لأنَّ الإنسانيةَ وَحدةٌ لا تكثُرُ فيها ولا غيَريَّةٌ، ولأنَّ هذه الفروقُ التي تُوجدُ بينَ الناسِ في آرائهم ومذاهبهم، ومواطنِ إقامتهم وألوانِ أجسادهم، وأطوالهم وأعرصهم، إنما هي اعتباراتٌ ومُصطلحاتٌ، أو مُصادفاتٌ واتِّفاقاتٌ، تُعرضُ لجوهرِ الإنسانيةِ بعدَ تكوينه واستتمام خَلقه، وتتواردُ عليه تواردَ الأعراضِ على الأجسامِ. ففي كلِّ بلدٍ، وفي كلِّ عصرٍ يستعجمُ العربيُّ ويستعربُ الأعجميُّ، ويُسلمُ المسيحيُّ ويتمسحُ^(١) المسلمُ، ويُلحدُ المؤمنُ ويؤمِنُ الجاحدُ، ويستشرقُ المغربيُّ، ويستغربُ المشرقيُّ. ولو شئتُ أن أقولَ لقلتُ إنه لا يوجدُ فوقَ رقعةِ الأرضِ من لا يزالُ يمسكُ حتّى اليومِ بطرفِ سلسلةٍ ينتهي طرفها الآخرُ بوطنٍ غيرِ وطنه، ودينٍ غيرِ دينه، وأمّةٍ غيرِ أمته.

إذا جازَ لكلِّ إقليمٍ أن يتنكَّرَ لغيره من الأقاليمِ جازَ لكلِّ بلدٍ أن يتنكَّرَ لغيره من البلادِ، بل جازَ لكلِّ بيتٍ أن ينظرَ تلكَ النظرةَ الشريزة^(٢) إلى البيتِ الذي يجاوره، بل جازَ للأب أن يقولَ لولده، وللولدِ أن يقولَ لأبيه: إليك عني، لا تمددْ عينيكِ إلى شيءٍ مما في يدي، ولا تطمَعِ لأن أوثرَكَ^(٣) على نفسي بشيءٍ ممّا اختصصتها به؛ لأنني غيرُك، فيجبُ أن أكونَ عدوكَ المحاربَ لك. وهناك تتحلُّ كلُّ عقدةٍ وتنصمُ

(١) يتمسح: يصبح مسيحياً.

(٢) النظرة الشريزة: المليئة بالغضب.

(٣) أوثرك: أفضلك.

كُلُّ عُرْوَةٍ، وَيَحْمِلُ كُلُّ إِنْسَانٍ لِأَخِيهِ بَيْنَ أَضْلَاعِهِ مِنْ لَوَاعِجِ الْبُغْضِ وَالْمِقْتِ مَا يُرْتَقُ عَيْشُهُ، وَيُطِيلُ سُهْدَهُ، وَيُقَلِّقُ مَضْجَعَهُ، وَيَحْبُبُّ إِلَيْهِ صُورَةَ الْمَوْتِ، وَيُبْغِضُ إِلَيْهِ وَجْهَ الْحَيَاةِ، وَهَذَا كُلُّهُ يُصْبِحُ الْإِنْسَانُ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِذَلِكَ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ فِي وَحْشَتِهِ وَانْفِرَادِهِ، يُقَلِّبُ وَجْهَهُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، وَيَنْبِشُ بِيَدَيْهِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُ لَهُ فِي الْوَحْشَةِ مُؤَنَسًا، وَلَا عَلَى الْهَمُومِ مُعِينًا.

الجامعةُ الإنسانيةُ أقربُ الجامعاتِ إلى قلبِ الإنسانِ، وأعلَقُها بفؤادِهِ، وألصَقُها بنفسِهِ؛ لأنه يبكي لمُصابٍ مَنْ لا يعرفُ - وإن كانَ ذلكَ المصابُ تاريخًا من التواريخ أو أسطورةً من الأساطير، ولأنه لا يرى غريبًا يتخبطُ في الماءِ، أو حريقًا يتلظى في النارِ، حتَّى تحدِّثُهُ نفسه بالمخاطرةِ في سبيله، فيقفُ وقفةَ الحزينِ المُتلَهِّفِ إن كانَ ضَعِيفًا، ويندفعُ اندفاعَ الشجاعِ المستَقْتَلِ إن كانَ قويًّا، ويسمَعُ وهو بالمشرقِ حديثَ النكباتِ بالمغربِ فيخفقُ قلبُهُ وتطيرُ نفسه لأنه يعلمُ أن أولئك المنكوبين إخوانه في الإنسانيةِ، وإن لم يكن بينَهُ وبينَهُم صلَةٌ في أمرِ سواها. ولولا أن سِتارًا من الجهلِ والعصبيةِ يسبُلُهُ كلُّ يومٍ غلاةُ الوطنيةِ والدينِ أو تُجَارُهما على قلوبِ الضعفاءِ السُدُجِ، لما عاشَ منكوبٌ في هذه الحياةِ بلا راحمٍ ولا ضَعِيفٍ بلا مُعِينِ.

لا بأسَ بالفكرةِ الوطنيةِ، ولا بأسَ بالحميةِ الدينيةِ، ولا بأسَ بالعصبيةِ لهما، والذودِ عنهُما، ولكن يجبُ أن يكونَ ذلكَ في سبيلِ الإنسانيةِ العامةِ غيرِ خارجةٍ عنها. والوطنيةُ لا تزالُ عملاً من الأعمالِ الشريفةِ المقدَّسةِ حتى تخرجَ عن حدودِ الإنسانيةِ، فإذا هي خيالاتٌ باطلةٌ وأوهامٌ كاذبةٌ، والدينُ لا يزالُ غريزةً من غرائزِ الخيرِ المؤثرةِ في صلاحِ النفوسِ وهداها حتَّى يتمرَّدَ على الإنسانيةِ ويُتَابِذُها، فإذا هو شُعبَةٌ من شُعبِ الجُنُونِ.

فإن كانَ لا بدَّ للإنسانِ من أن يحاربَ أخاهُ أو يقاتلَهُ، فليُحاربهُ مُدافعًا لا مُهاجمًا، وليُقاتلَهُ مُؤدَّبًا لا مُنتقمًا، وليُكنَ موقفُهُ أمامَهُ في جميعِ ذلكَ موقِفَ العادلِ المُنصِفِ، والشفيقِ الرَّحيمِ، فيدْفِنَهُ قَتِيلًا، ويعالجَهُ جريحًا، ويكرمهُ أسيرًا، ويُخلفُهُ على أهلهِ ووَلَدِهِ بأفضلِ ما يُخلفُ الرجلُ الكريمُ أخاهَ الشقيقَ على وِلْدِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وليُكنَ شأنُهُ معه شأنَ تلكَ الفئةِ المتحاربةِ التي وَصَفَهَا الشاعِرُ في قوله:

إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فِقَاضَتْ دِمَاؤَهَا تَذَكَّرَتْ الْقُرْبَى فِقَاضَتْ دُمُوعَهَا

أدوار الشعر العربي



كانت العربُ في جاهليّتها أُمَّةً مُتَبَدِّئَةً على الفِطْرَةِ النقيّةِ البيضاء، لا تعبتُ الحضارةُ بجمالها، ولا تعبتُ المدينةُ في صورتها. شمسها في آفاقها، فتنبسطُ أشعتها على سهولها وحُرُونها، ونجادها ووهادها، من حيث لا يعترض سبيلها من الظلِّ سُحْبٌ، ولا من السُّقُوفِ حُجْبٌ. وينبتُ نباتها حيثُ يجري ماؤها، لا تعبتُ في الأيدي بتربيع ولا تدوير، ولا تقويس ولا تعريج، ويجري ماؤها في سبيلها حيثُ ينسابُ به تسلسلُهُ وإطرادُهُ، لا تُلَوِّى به عن قصده الحفائِزُ، ولا تنتصبُ في وجهه القناطرُ. وبهيمٍ وحشها في جبالها.. وطيرها في أجوائها من حيث لا يحبسُ الأوّلُ عرينَ مَوْصُودٍ.. ولا الآخرُ قفصَ محدودٍ. والشعرُ من وراء ذلك كله مرآةٌ صافيةٌ تتمثلُ فيها تلك المناظرُ الفِطْرِيَّةُ على طبيعتها وفِطْرَتِها.

ينطقُ العربيُّ بما يعلمُ.. ويقولُ ما يفهمُ ويصوّرُ ما يرى، ويحدثُ عمّا تمثّل في نفسه حديثًا صادقًا لا تكلفَ فيه ولا تعملُ..؛ لأنَّ كلَّ ما هو محيطٌ به من هواءٍ وماءٍ وأرضٍ.. وطعامٍ وشرابٍ، ومرافقٍ وأدواتٍ، على الفِطْرَةِ السليمةِ الخاصّةِ، فأخرى أن يكونَ شعْرُهُ كذلك.

ذلكَ كانَ شأنَ الشعرِ العربيِّ والعربِ على فِطْرَتِهِمْ. وذلكَ معنى قولهم: الشعرُ ديوانُ العَرَبِ؛ لأنه صورةُ حياتهم الاجتماعيّةِ والأدبيّةِ، ومثالُ خَواطِرِهِم الحقيقيّةِ والخياليّةِ. فإنَّ ظنَّ أن التماثيلَ والنُصبَ والصُورَ والتهاويلَ، وبقايا الآثارِ، وقِطَعِ الأحجارِ التي نراها في خرائبِ اليونانِ والرومانِ، والفينقيّينَ والفراعنةِ، أدلُّ على تواريخِ أولئك الأقاليمِ من الشعرِ العربيِّ على تاريخِ العَرَبِ، قلنا له: ما من ديوانٍ من دواوينِ الأُمَمِ الماضيّةِ إلا وقدَ تحدّثَ المؤرِّخونَ بعبثِ الأيدي به ولعبها بسطوره وسجلاته، أما الديوانُ العربيُّ فصورةٌ صحيحةٌ وآيةٌ ثابتةٌ، لا تغييرَ فيها ولا تبديلَ.

ثم جرتْ بعدَ ذلكَ جوارِ بالسعدِ والنحسِ، فانتقلتِ الأُمَّةُ العربيّةُ من بدائنها إلى حضارتها، وهاجرَ معها شعْرُها بهجرتِها، فطلَعَ جيشُ المولّدينَ يحملُ لواءه الشعاعانِ

الجليلان: بشار، وأبو نواس، فطَرَقُوا معاني لم تكن مطروقةً، ونَهَجُوا مَنَاهِجَ لم تكن معروفةً، فقلنا: لا بأس، فالشعرُ العربيُّ أوسعُ من أن يضيّقَ بحاجاتِ أُمَّتِهِ وَضُرُورَتِهَا، في جميعِ شئونِها وحالاتِها. حتّى جاء أبو تمام شيخُ الصناعةِ اللفظيةِ، فسلكَ إلى كثيرٍ من معانيهِ البديعةِ طريقَ اللَّفْظِ المصنوعِ والأسلوبِ المُتَكَلِّفِ، فَثَغَّرَ في الشعرِ العربيِّ ثغرةً أَلَحَّ عليها السائرونَ على أثرِهِ من بعده بأظفارهم وأنيابهم حتّى صَيَّرُواها فوهةً واسعةً لا تمتنعُ ما وراءها ولا تدفعُ ما أمامها، فأصبحَ الشعرُ على عهدِ ابنِ حُجَّةٍ وابنِ الفارضِ وابنِ مُلَيْكٍ والصَّفديِّ والسَّرَّاجِ والوَرَقِ وأبي الحسنِ الجزارِ والضَّفيِّ الحليِّ وأمثالِهِم، أشبهَ شيءٍ بتلكِ الآنيةِ الصينيةِ التي يَضَعُها المُتَرَفِّونَ في زواياِ مجالِسِهِم وعلى أطرافِ موائِدِهِم ظَهْرًا زاهيًا، وبطنًا خاويًا، لا تشفي غِلَّةً، ولا تكبِّضُ بقطرةٍ، ولا تُسَمِّنُ ولا تُغني من جُوع. ثم جاء على أثرِ هؤلاءِ مَنْ تَدَلَّى إلى منزلةِ أدونٍ من هذه المنزلةِ، فجاءوا بشيءٍ هُوَ أشبهُ الأشياءِ بتلكِ التفاعيلِ التي وَضَعَهَا الخليلُ ميزانًا للشعرِ، لا يروقُ لفظُها ولا يُفهمُ معناها.

وعلى هذا الموردِ الوبيلِ وَقَفَ الشعرُ الوبيلِ، وَقَفَ الشعرُ العربيُّ بضعةَ قرونٍ وَقَفَةً لا يَتَزَحَّزَحُ عنها ولا يَتَحَلَّحَلُ، حتّى أنزلَ اللهُ إليه من ملائكةِ البيانِ رُسلًا في هذا العهدِ الأخيرِ أَخَذُوا بيده، ونَشَرُوهُ من قَبْرِهِ ونَفَّضُوا عنه عُبَارَهُ فأصبحنا نرى في أبرادِ الكثيرِ منهم، أجسامَ امرؤِ القيسِ، والنابغةِ، ومُسلم، وأبي نواس، وأبي عبادة، والشريف.

ومهيأر لا فَرَقَ بينهم وبينه سوى أن هؤلاءِ مُقلِّدونَ يَتَّبِعُونَ الآثَارَ وأولئكِ مُبتدِعُونَ يَفْتَرِعُونَ الأَبْكَارَ.



حوانيت الأعراض



أنا لا أستطيع أن أتصوّر الفرق بين رجل يمدُّ يدهُ إلى خزانة بيتي فيسرقُ مالي، وبين آخر يمدُّ لسانه أو قلمه إلى شرفي فيستلبه. كلاهما مجرمٌ فاتك، وكلاهما لصٌّ مُغتالٌ، وإن كان أولهما في نظر القانون وفي عُرف الناس أكبرهما إثماً، وأسوأهما أثراً.

المالُ خادمٌ من خدام الشرف، وحاجبٌ من حُجابه والوقوف على بابه، ولولا مكان الشرف، والكَلَّةُ بصيانتِه، والضَّنُّ به أن يعبثَ بجوهره، عابثٌ ما كان لامرئٍ في هذا المعدنِ الصامِتِ أربُّ أكثر من أن يقيم به صُلبه، ويمسك به حوباءه. فإن كان سارقُ المالِ مُجرماً من حيث كونه هاتِكاً لذلك الحِجاب المُسبَلِ دون الشرفِ، فجديراً بمن يسرقُ الشرفَ نفسه أن يكون رأسَ الجانين وأكبرَ المجرمين.

يكونُ للرجل - من الصحفيين مثلاً - عند الرجل من كرام الناس وسراهم وذوي السيرة الصالحة فيهم، مآربٌ من المآرب التي لا يعرف لنفسه فيها حقاً ولا يمُتُّ إليها بسبب من الأسباب الظاهرة أو الباطنة، فما هو إلا أن يمتنع عليه حتى يزميه بسهم جارح من سهامه النافذات، يصيبُ به مقتلاً من شرفه وكرامته، ولا ذنبٌ له عنده إلا أنه لم يكن من لحيته يلفُّ عُثونها على يده ثم يقودُه بها إلى حيث شاء كما تُقادُ السائمة إلى مصرعها.

يحبُّ الرجلُ المجدَّ حُباً يملأ ما بين جوانحه، ويكلفُ به حتى يصبح أثرُ عنده من نفسه التي بين جنبيه، ويقضي لكلفه به وحِرْصه عليه سوادَ ليله يساهرُ الكوكبَ حتى يندحر إلى مغربه، وبياضَ نهاره يسائرُ الشمسَ حتى تغربَ في حماتها، ويقومُ بينه وبين شهواتِ نفسه ونزعاتِ قلبه حرباً عواناً يحملُ في سبيلها ما لا يستطيعُ أن يحمله بشراً، حتى إذا أمكنه المقدارُ منه وبدأ ينهلُ أولَ من مورده الباردِ العذب، رآها ممزوجةً بذلك العَلَقَمُ المرُّ الذي صبهُ له في إنائه ذلك المجرمُ الأثيم.

إن بين جدران بعض تلك القاعات التي يسمونها «إدارات» قوماً مفاليك قد دارت عليهم الأيامُ دورتها، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها أمثالهم، ممن ولدَ مولدهم

وَنَشَأَ مَنَشَأَهُمْ، فَضَاعَتْ بِهِمْ سُبُلُ الْعَيْشِ الَّتِي مَا كَانَتْ تَضِيقُ بِهِمْ لَوْ أَنَّ اللَّهَ أَبْقَى لَهُمْ
بَعْدَ أَنْ سَلَبَهُمْ فَضِيلَةَ الْفَهْمِ وَالْعِلْمِ فَضِيلَةَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالسَّيْرَةَ الْمُسْتَقِيمَةَ، فَلَمْ
يَجِدُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَنَفَذًا يَنْفُذُونَ مِنْهُ إِلَى الْقُوَّةِ، فَفَتَحُوا حَوَانِيتَ لِلْأَنْجَارِ بِأَعْرَاضِ
النَّاسِ وَكَرَّامَتِهِمْ سَمُّوهَا صَحْفًا، وَأَكْثَرُ مُشْتَمَلَاتِهَا أَعْرَاضُ الْأَشْرَافِ وَالْعُظَمَاءِ
وَأَرْبَابِ الْجَدِّ وَالْعَمَلِ، الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ إِلَى فِرْدَوْسِ السَّعَادَةِ، وَخَلَفُوهُمْ وَرَاءَهُمْ
يَتَأَكَّلُونَ غَيْظًا لِحِرْمَانِهِمْ مِمَّا أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَهُمْ إِنْ فَتَشَتْ عَنْهُمْ، وَكَشَفَتْ عَنْ
دَخَائِلِ نَفْسِهِمْ، عَلِمْتَ الْأَفْرَقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَوْلِيكَ الْقَوْضِيِّينَ الَّذِينَ يَكْدِنُونَ بِقَتْلِ
الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ. فَلِلْقَوْضِيِّينَ رَأْيٌ فِي تِلْكَ الْجَرَائِمِ يَرَوْنَهُ، وَفِكْرَةٌ
خَاصَّةٌ يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا، بَلْ هُمْ كَقَطَاعِ الطَّرِيقِ الَّذِينَ يَهَاجِمُونَ الْغَادِينَ وَالرَّائِحِينَ
وَلَا ذَنْبَ لَهُمْ عِنْدَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ مُرْوَدُونَ وَهُمْ مُقْفَرُونَ وَالْأَيْدِي مِنَ الزَّادِ.

وَلَقَدْ يَكُونُ خُطْبُهُمْ سَهْلًا وَمُصَابِهِمْ مُحْتَمَلًا، لَوْ أَنَّهُمْ صَرَخُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَبَدُوا
لِلنَّاسِ صَفَحَاتٍ وَجُوهِهِمْ، وَطَلَبُوا قُوَّتَهُمْ مِنْ طَرِيقِ الْكِدِّيَّةِ الْوَاضِحَةِ الْبُئِيَّةِ. وَلَكِنَّهُمْ
مُرَاءُونَ مُخَادِعُونَ، يَشْتُمُونَ بِاسْمِ الْمَوْعِظَةِ وَيَقْرِضُونَ الْأَعْرَاضَ بِاسْمِ النَّصِيحَةِ،
وَيَتَهَمُونَ الْأَبْرِيَاءَ بِاسْمِ الْغِيْرَةِ الدِّينِيَّةِ أَوْ الْأَدْبِيَّةِ. وَوَاللَّهِ مَا بِهِمْ مِنْ أَدَبٍ وَلَا دِينٍ، وَلَا
عِظَةَ وَلَا نَصِيحَةَ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مَحَدَّدُونَ، قَدْ بَلَغَتْ الْفَلَاحُ مِنْهُمْ مَبْلَغًا، وَضَاعَتْ بِهِمْ
الْأَرْضُ الْفَضَاءَ عَلَى رَحْبِهَا. فَهُمْ يُرْوَحُونَ عَنْ نَفْسِهِمْ بِالنَّيْلِ مِنْ شَرْفِ الشُّرَفَاءِ،
وَتَنْغِيصُ لَذَّةَ السُّعْدَاءِ. وَيَطْلُبُونَ قُوَّتَهُمْ فِيمَا بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ مِنْ يَدِ تِلْكَ الْفَيْئَةِ السَّادِجَةِ
الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ الْكَاتِبِ الَّذِي يَكْتُبُ لِقَوْمٍ مُعَوَّجًا، أَوْ يُصْلِحَ مُحْتَطَلًا، أَوْ
يَرْفَعُ بَدْعَةً بَاطِلَةً، أَوْ يَكْشِفُ عَنْ حَقِيقَةِ خَافِيَةٍ، وَبَيْنَ الْآخِرِ الَّذِي يَدُورُ مَعَ الدِّينَارِ دَوْرَةَ
الْحَرْبِ مَعَ الشَّمْسِ، لَا يَفَارِقُهُ حَتَّى تُفَارِقَهَا، وَالَّذِي لَا يَلِدُهُ شَرْبُ الْمَاءِ إِلَّا مَمَزُوجًا
بَدَمًا.

وَاللَّهِ، مَا أَدْرِي مَا الَّذِي أَقَامَهُمْ هَذَا الْمَقَامَ، وَعَهَّدَ إِلَيْهِمْ هَذَا الْعَهْدَ، وَمَنْ الَّذِي وَكَّلَ
إِلَيْهِمُ النَّظَرَ فِي شُئُونِ النَّاسِ وَالْفَصْلَ فِي قَضَايَاهُمْ، وَالْقِيَامَ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ وَسَيِّئَاتِهِمْ،
وَمَا هُمْ بِالْبَرَّةِ الْأَتْقِيَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ أَنْ يَكُونُوا أَمْثَلَةَ حَسَنَةٍ فِي مَنَازِلِهِمْ، فَيَكُونُوا
قَدْوَةً صَالِحَةً فِي أُمَّتِهِمْ، وَلَا بِالْعُلَمَاءِ الْفُضَّلَاءِ فَهْتَدِي بِهِدَاهُمْ، وَنَسْتَنُّ بِسُنَّتِهِمْ، وَلَا
بِالصَّادِقِينَ الْمُخْلِصِينَ فَتَعَبَّدَ بِإِجْلَالِهِمْ وَإِعْظَامِهِمْ، بَلْ لَيْسَ لَوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَضْلُ الصَّانِعِ
فِي مَصْنَعِهِ، أَوْ التَّاجِرِ فِي حَانُوتِهِ، أَوْ الْعَامِلِ فِي مَعْمَلِهِ، فَيُصْلِحُ أَنْ يَكُونَ حَكَمًا فِي

قَصَايَا الْأَشْرَافِ وَالنَّبَلَاءِ، وَمِيزَانًا لِحَسَنَاتِهِمْ وَسَيِّئَاتِهِمْ. وَعِنْدِي أَنْ لَوْ جُمِعَتْ عُيُوبُ النَّاسِ جَمِيعُهَا فِي كِفَّةٍ مِيزَانٍ، وَوُضِعَتْ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى عُيُوبُهُمْ الْجَامِعَةُ لِلسَّفَاهَةِ وَالْكَذِبِ وَالنَّمِيمَةِ وَالتَّجَسُّسِ، وَهَتَكَ الْأَعْرَاضِ، وَاتَّهَامِ الْأَبْرِيَاءِ، اسْتِهْوَاءِ الضُّعْفَاءِ، لَثَقَلَتْ كِفَّتُهُمْ أَمَامَ كِفَّةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُقَوِّمُونَ مُعْجَظَهُمْ وَيَتَّقُونَ مُنَادَهُمْ، وَيُصَلِّحُونَ مَا فَسَدَ مِنْ شُئُونِهِمْ.



الرثاء



مَا أَنْسَى لَا أَنْسَى رَجُلًا كَانَ خَيْرَ مَنْ لَقَيْتُ مِنْ لَقَيْتُ مِنَ الرَّجُلِ، وَكَانَ يُعْجِبُنِي مِنْهُ أَدَبُهُ وَفَضْلُهُ، وَعِفَّتُهُ وَحَيَاؤُهُ، وَشَرَفُ نَفْسِهِ، وَطَهَارَةُ قَلْبِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ صَبُورًا مُحْتَمِلًا، تَقْرَعُ الْخَطُوبُ صَفَاةَ قَلْبِهِ فَتَرْتَدُّ عَنْهَا ثَانِيَةً، كَمَا تَرْتَدُّ الْكُرَّةُ عَنِ الْحَائِطِ إِذَا قَرَعَتْهَا.

كَانَ فَقِيرًا لَا يَمْلِكُ مِنَ الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِمَّا يَقِيمُ صَلْبَهُ، وَيُمْسِكُ حَوْبَاءَهُ، وَيَسْتُرُ سَوَاتِنَهُ، فَزَوْجَهُ أَبُوهُ بَابِنَةَ عَمِّ لَهُ لَمْ يَكُنْ مِثْلَهَا فِي دِمَامَتِهَا، وَسُوءِ خُلُقِهَا، وَجَفَاءِ طَبْعِهَا، مَمَّنْ يَطْمَعُ مِثْلَهُ فِي جَمَالِ خُلُقِهِ وَلِينِ حَاشِيَتِهِ وَانْسِجَامِ طَبْعِهِ. فَكَبَّرَتْ نَفْسَهُ عَنْ مَخَالَفَةِ أَبِيهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَرًّا بِهِ، مُطِيعًا لَهُ، نَازِلًا عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَنْ مُجَافَاةِ رُوحِهِ وَإِرَاحِهَا وَالانْقِبَاضِ عَنْهَا، لِأَنَّهُ كَانَ وَاسِعَ الصَّرِّ، فَسِيحَ رُقْعَةِ الْحَلَمِ، رَفِيقًا بِالضُّعْفَاءِ وَالْعَاجِزِينَ، فَتَزَوَّجَهَا وَفِي نَفْسِهِ مِنَ الْمَضْضِ وَالْأَلَمِ مَا يُلْهَبُ الْجَوَانِحَ، وَيُذِيبُ لِفَائِفَ الْقُلُوبِ.

وَأَذْكُرُ أَنِّي عَلَى طُولِ عَشْرَتِي لَهُ، وَلُصُوقِ نَفْسِي بِنَفْسِهِ، مَا سَمِعْتُهُ يَشْكُو إِلَيَّ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ مَا كَانَ يُعَالِجُهُ مِنْ سُوءِ عَشْرَتِهَا، وَيُكَابِدُهُ مِنْ شُرُورِهَا الَّتِي لَا تَعْبَهُ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا ثِقَةً بِاللَّهِ وَرَحْمَتِهِ. وَإِيثَارًا لِفَضِيلَةِ الصَّبْرِ وَالْجَلْدِ، وَسُكُونًا إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ فِي الْوِجَاحِ الْمُقَادِيرِ.

فَكُنْتُ أَرْحَمُ صَمْتَهُ وَسُكُونَهُ، وَأَرْتِي لِحُمُودِ عَيْنَيْهِ عَنِ الْبِكَاةِ؛ لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ نِيرَانَ الْأَحْزَانِ لَا يَسْكُنُ اضْطِرَامُهَا، وَلَا يَهْدَأُ اعْتِلَاجُهَا، إِلَّا بِاطْرَادِ الْعَبْرَاتِ وَتَصَاعُدِ الرَّفَرَاتِ. وَكَانَ كُلُّ مَا يَتَعَمُّ بِهِ مِنْ لَذَائِدِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَأَطَابِيهَا، أَنَّهُ كَانَ يُسَافِرُ فِي كُلِّ

شهر مرّة أو مرّتين إلى أحد أصدقائه في الرّيف فيقضي عنده يومين أو ثلاثة ثم يعود وفي ثغره ابتسامته تتلألأ تلالو نجمه الصّبح قبل انحدارها إلى مغربها، ثم لا تلبث أن تتلاشى، ولا يلبث أن يعود إلى جُموده الأوّل، لا يحزُن فيبكي، ولا يفرح فيبتسم، حتى يخيل للنّاظر إليه أنّه يعيش في عالم غير هذا العالم، ولا يُظللّه ليلٌ ولا يضيئه نهارٌ.

قضيتُ في صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من دخيلة نفسه ما يحسبُ أني أجهله، فأكتمته ذلك العلم جهدي رفقا به وإشفاقا عليه. حتى زرته في منزله ذات يوم فرأيتُه جائما في مقعده الذي كان يفتعه من غرفته وقد أطرَقَ إطراقا طويلا ذهل فيه عن نفسه فلم يشعرُ بدخولي حتى أخذتُ مكاني، فرفع رأسه فأدهشني من منظره اصفرار وجهه وذبول عينيه، وما كان يعشى جيبته من دخان تلك النار التي تشعل بين جوانحه. ثم نظرتُ إلي نظرة طويلة لا عهد لي بمثلها من قبل وقال:

- أتعقد أن الله موجود؟ قلت: نعم - مُعالجا نفسي على كتمان ما كان يذهبُ يُلبي من تنكّر حاله، وتغيّر أطواره.

قال: وتعتقد أنه عادل؟ قلت: نعم.

قال: وراحم؟ قلت: نعم.

فبسطَ يده إليّ ففعل الضارع المستصرخ، وقال:

- هل لك أن تحدّثني أيها الصديق عن نزول الصواعق، وثورة البراكين، وطغيان البحار، وغرق السفن، وانتشار الأوباء، وفنك الأدوية، ونكبات الفقر والجوع، وتلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء، والضلوع التي لا تزال ملتهبة بنيران الهموم والأحزان هل تعتقد أن ذلك كله عدلٌ من الله ورحمة؟!

قلت: نعم، إن الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا فيدخر لهم في دار تعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدرُون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها.

قال: إن الله أكرم من أن يجعل الشرّ طريقا إلى الخير، وألا يُحسن إلى عباده إلا بعد أن يسلبهم الإساءة.

قلت: ذلك ما كتبت على نفسه أن يُجازي كلّ عاملٍ بعمله. إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

قال: إنه كتبت على نفسه الرحمة.

قلت: نعم، إنه أكرمُ الكرماءِ، وأرحمُ الرّحماءِ.

قال: حَدَّثَنِي عَنِ الْوَلَدِ الصَّغِيرِ الَّذِي لَمْ يُخَالِطْ نَفْسَهُ شَرًّا، وَلَمْ يَنْسَرَبْ إِلَى قَلْبِهِ كَيْدًا؟ مَا لِي أَرَاهُ مُفْتَرِشًا حِجْرَ أُمِّهِ وَقَدْ تَوَلَّى اللَّيْلَ إِلَّا أَقْلَهُ يَتَقَلَّبُ عَلَى مِثْلِ جَمْرِ الْعَضَى مِمَّا يُسَاوِرُهُ مِنَ الْأَلَامِ، فَيَنْتَفِضُ تَارَةً وَيَخْتَلِعُ أُخْرَى، وَيَصْرُخُ صَرَخَاتٍ تَسْتَمِطِرُ الدَّمُوعَ، وَتَحُولُ بَيْنَ الْعَيْنِ وَبَيْنَ الدَّمُوعِ؟ وَمَا لِي أَرَى أُمَّهُ بَاكِيَةً مُؤَلِّهَةً، ذَاهِلَةً اللَّبِّ مُوجِعَةً الْقَلْبِ، تَفْرَعُ لَفْرَعَاتِهِ، وَتَصْرُخُ لَصَرَخَاتِهِ وَقَدْ اخْتَبَلَ عَقْلُهَا وَالتَّتَّأَتْ أَمْرُهَا، وَعَظَمَ بِأَسْهَاهَا، وَفَنِيَتْ حِيلَتُهَا وَقَلَّ مُسَاعَدُهَا وَضَعُفَ نَاصِرُهَا، فَأَنْشَأَتْ تُقَلِّبُ وَجْهَهَا فِي السَّمَاءِ ضَارِعَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِهَا وَيَرْحَمَ نَفْسَهَا بِرَحْمَةٍ وَلِدِهَا. وَبَيْنَا هِيَ تَنْتَظِرُ صَوْتَ الْإِجَابَةِ يَرْنُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، إِذَا بِهَا تَسْمَعُ حَشْرَجَةَ الْمَوْتِ فِي صَدْرِ وَلِدِهَا، وَإِذَا بِهِ يَنْزِعُ نَزْعًا مُؤَلِّمًا يَطِيرُ بِاللَّبِّ، وَيَذْهَبُ بِبَقِيَّةِ الصَّبْرِ، حَتَّى تَفِيضَ نَفْسُهُ، فَمَاذَا جَنَى هَذَا الْوَلَدِ الصَّغِيرِ حَتَّى أَصْبَحَ لَا يَسْتَحِقُّ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ وَلَا رَأْفَةً؟

قلت: وما يُدريك؟ لعلَّ الله أَرَادَ بِهِ خَيْرًا، فَرَحِمَهُ بِالْمَوْتِ الْمُعْجَلِ مِنْ حَيَاةٍ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَلْقَى فِيهَا مِثْلَمَا تَلْقَى أَنْتَ الْيَوْمَ مِنَ الشَّقَاءِ الْمُمِضِّ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

فَنَالَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنْ نَفْسِهِ، وَجَمَدَ أَمَامَهَا جُمُودًا طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ. لَيْتَ الَّذِينَ يَشْقَوْنَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ يَشْعُرُونَ بِصِغَرِ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَحَقَارَةِ شَأْنِهَا، فَيَتَمَنُّونَ لَوْ لَمْ تَلِدْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُمْ سَطْرٌ وَاحِدٌ فِي الْوُجُودِ. وَبَعْدَ فَهْلٍ لَكَ فِي سَفَرَةٍ مَعِيَ إِلَى ذَلِكَ الصَّدِيقِ الرَّيْفِيِّ تَقْضِي عِنْدَهُ يَوْمًا وَاحِدًا ثُمَّ نَعُودُ عَلَيَّ أَنْ تَكُونَ مَعِيَ كَمَا كَانَ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا.

فَوَافَيْتُ رَغْبَتَهُ، وَقَبِلْتُ شَرْطَهُ، ثُمَّ قَامَ وَقَمْتُ. وَلَوْ أَنَّنِي مَلَكَتُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الدُّنْيَا بِحَذَائِرِهَا لَوَهَّبْتُهَا لِمَنْ يَكْشِفُ لِي سِرَّ صَدِيقِي وَيُدَلِّنِي عَلَى مَكَانِ نَكْبَتِهِ الَّتِي رَعَزَعَتْ نَفْسَهُ، وَصَهَّرَتْ قَلْبَهُ، وَمَلَكَتُ عَلَيْهِ لُبَّهُ، وَأَمَّا الْيَوْمَ وَقَدْ صَفَرَتْ مِنْهَا يَدِي، وَأَقْفَرَ بِفِرَاقِهَا رَبِّي.. وَحَالَتْ تِلْكَ الصَّفَائِحُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، فَلَا عَزَاةَ وَلَا سَلْوَى.

مَنْ لِي بِضَرْبَةٍ مِنْ ضَرْبَاتِ الدَّهْرِ تَذْهَبُ بِذَاكِرَتِي جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلَا أَعُودُ أَذْكَرُ أَيَّامَ حَيَاتِهَا مَعِيَ وَمَقْعَدَهَا بِجَانِبِي، وَصَوْتَهَا الرَّقِيقَ، وَحَدِيثَهَا الْعَذْبَ، وَصَفَاءَ عَيْنَيْهَا، وَوَنُوقَ وَجْهِهَا، وَصُورَةَ قَوْمَتِهَا وَجِيَّتِهَا وَذُخُوبِهَا وَضَحِكِهَا وَبُكَائِهَا وَيَقْظَتِهَا وَمَنَامِهَا، وَحَزْنَهَا لِفِرَاقِي وَسُرُورَهَا بِلِقَائِي، فَإِنِّي كَلَّمَا ذَكَرْتُ ذَلِكَ شَعَرْتُ كَأَنَّ قَلْبِي الْمَدْمُوعَ قَدْ اسْتَحَالَ إِلَى أَفْلَازِ صَغِيرَةٍ تَنْطَائِرُ فِي أَجْوَاءِ الْفَضَاءِ.

اللهم، إني أعلمُ أن الدنيا ليستُ بدارِ قرارٍ، فلا أَمَلُ في البقاءِ فيها، والركونُ إليها، والاستمتاعُ بلذَّةِ العيشِ فيها، وأنها الجسرُ الذي يمرُّ به الأحياءُ إلى دارهم الأخرى. وكلُّ ما كنتُ أطمعُ فيه منها أن يكونَ لي كما للناسِ جميعًا رفيقٌ يُعِينُنِي عَلَى قَطْعِ تِلْكَ الشِقَّةِ البعيدةِ، وَيُهَوِّنُ عَلَيَّ آلامَ وَحْشَتِهَا وَكَآبَتِهَا، فَحَرَمْتُنِي ذَلِكَ الرَفِيقَ المُعِينِ. فكيفَ أُسِيرُ، وأينَ أَعِيشُ؟

اللهم، إنك سَلَبْتُنِي كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الدُمُوعَ الَّتِي يُرِيحُ بِهَا البَاكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيُطْفِئُ بِهَا المَحْزُونُونَ لَوَاعِجَ قُلُوبِهِمْ، فَأَصْبَحَ الحُزْنُ يَغْلِي بَيْنَ جَوَانِحِي غَلِيانَ المَاءِ فِي القَدْرِ المُحْكَمَةِ الغِطَاءِ، فامْتَنُنْ عَلَيَّ بِدَمْعَةٍ وَاحِدَةٍ أَطْفِئُ بِهَا غَلِيْلِي، وَلَا أَحْسِبُ أَنَّكَ تَمْنَعِينِيهَا، فَالدُمُوعُ هِيَ الرَّحْمَةُ العَامَّةُ الَّتِي كَتَبْتَ عَلَى نَفْسِكَ أَنْ تَعَالَجَ بِهَا نَكَبَاتِ المَنْكُوبِينَ، وَيُؤَسَّ البَائِسِينَ.

اللَّهُمَّ، لَا رِيْبَةَ فِي عَدْلِكَ، وَلَا ظَنَّةَ فِي كَرَمِكَ، وَلَا اعْتِرَاضَ عَلَى قَضَائِكَ وَقَدْرِكَ، وَلَا سَخَطَ فِي ابْتِلَائِكَ وَمِحْتَتِكَ. خَرَجَ أَمْرُ نَفْسِي مِنْ يَدِي، وَأَصْبَحْتُ لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَبْصِرَ مَا بَيْنَ يَدَيَّ، فَاعْفِرْ لِي سَقَطِي وَزَلْلِي.

اللَّهُمَّ، إِنَّكَ مَنَعْتَنِي حَظِّي مِنَ الحَيَاةِ، فَلَا تَمْنَعْنِي حَظِّي مِنَ المَوْتِ، فَاسْتَرَدَّ إِلَيْكَ عَارِيَتَكَ الَّتِي أَعْرَضْتَنِيهَا، فَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ حَمْلِهَا، وَضُقْتُ دَرْعًا بِأَمْرِهَا، إِنَّكَ بَعْدَادِكَ رُوُوفٌ رَحِيمٌ.

وما أتمَّ كَلِمَتَهُ حَتَّى صَاحَ صَاحَةً عَظْمِي، ثُمَّ سَقَطَ عَلَى صَفَائِحِ القَبْرِ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ الرُّجْلَ قَدْ انْفَجَرَ، وَإِنَّ اللّهَ قَدْ اسْتَرَدَّ وَدِيْعَتَهُ إِلَيْهِ، وَاخْتَارَ للرُّجْلِ مَا عِنْدَهُ. فَذَعَرْتُ وَارْتَعَدْتُ وَالتَفْتُ حَوْلِي فَإِذَا صَدِيقُهُ واقِفٌ وَرَائِي يَشْهَدُ المَنْظَرَ الَّذِي أَشْهَدُ، وَيَذَرُ مِنَ الدُمُوعِ أَضْعَافَ مَا أَذْرُفُ. فَذَنُونَا مِنْهُ مَعًا وَحَرَكَانَاهُ فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ، فَنَقَلْنَاهُ إِلَى المَنْزِلِ، وَبَنَّا حَوْلَ سَرِيرِهِ نَقْصِي حَقَّ صُحْبَتِهِ تَارَةً بِالدُمُوعِ وَأُخْرَى بِالإِطْرَاقِ وَالحُشُوعِ، وَهَنَالِكَ قَصَّ عَلَيَّ ذَلِكَ الصَّدِيقُ قَصَّتَهُ وَكشَفَ لِي عَنْ حَبِيبَتِهِ أَمْرَهُ، فَقَالَ:

إنه قَضَى زَمَانًا طَوِيلًا يَشْكُو إِلَيَّ آلامَ نَفْسِهِ الَّتِي يُعَالِجُهَا مِنْ سُوءِ عَشْرَةِ زَوْجِهِ وَخَشَوْنَةِ طَبْعِهَا، وَجَفَاءِ حُلُقِهَا، ثُمَّ اقْتَرَحَ عَلَيَّ يَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ أَنْ أَرْوِّجَهُ مِنْ أُخْتِي فَفَعَلْتُ رَحْمَةً بِهِ وَإِشْفَاقًا عَلَيْهِ، مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ أبُوهُ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ بِذَلِكَ. فَكَانَ يَزُورُنَا فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَظَلَّ عَلَى ذَلِكَ عِدَّةَ سِنِينَ. حَتَّى وَعَكَتْ

تلك المسكينة وَعَكَّةُ ذهبتَ بها إلى ربِّها، وتركتَ له فتاةً في الخامسة من عمرها فكانتَ هي عزاءُ الوحيدِ عن كلِّ ما فاتتَ من نعيمِ الحياةِ وهنأَتْها. وكانَ يختلفُ إليها كما كانَ يختلفُ إلى أمِّها، وشُغِفَ بها شُغْفًا بلغَ به حدَّ الجنونِ. وكانَ كثيرًا ما يقولُ لي: إنني أشعرُ أن حياتينَا أنا وهذه الطفلة حياةٌ واحدةٌ، وأنا إما أن نعيشَ معًا، أو نموتَ معًا. وكأنه ألهمَ بما سيكونُ، ففَضِيَ اللهُ أن تمرضَ الفتاةَ مَرَضَةً شديدةً لم تُمهَلْها أكثرَ من خمسةِ أيامٍ، ثم لَحِقَتْ بِأمِّها ولما تبلغَ الثامنةَ من عُمرها، فنعيَتْها إليه بكتابٍ أرسلتهُ إليه بالأمس، فجاءَ وجِئتَ معه، ثم كانَ بعدَ ذلكَ ما قَدَرَ اللهُ أن يكونَ.

دفنتُ صديقي بيدي، وألحدتُه بجانبِ ابنته التي قَطَعَ جسرَ الحياةِ الطويلَ في لحظةٍ واحدةٍ شوقًا إليها، ووَجَدًا عليها، ثم عدتُ إلى بلدتي صفرَ الكَفِّ من ذلكَ الإنسانِ الذي كنتُ مَلتًا منه يدي، والذي كنتُ أجلُّه وأعظمُه حَيًّا ولا أزالُ أبكيه وأذكرُه مَيِّتًا، وأتخذُ حياتهُ الشريفةَ الحافلةَ بمواقفِ الصبرِ والجَلْدِ، والوفاءِ والكرَمِ عبرةً أعتبرُ بها حتى يجمعَ اللهُ بيني وبينه.

كفى حُزنًا بموتِكَ ثمَّ إنني نفضتُ ترابَ قبرِكَ مِن يَدَيَا
وكانتَ في حياتِكَ لي عظامٌ وأنتَ اليومَ أوَعظُ منك حَيًّا



الشعر



كتب إليّ كاتبٌ يقول: عَرَفْنَاكَ قَبْلَ الْيَوْمِ شَاعِرًا مَا تَكَادُ تَكْتُبُ سَطْرًا
ثُمَّ رَأَيْتَكَ بَعْدَ ذَلِكَ كَاتِبًا مَا تَكَادُ تَنْظُمُ بَيْتًا. فَلِمَ لَمْ تَكْتُبْ فِي عَهْدِكَ
الْأَوَّلِ، وَلِمَ تَنْظُمُ فِي عَهْدِكَ الثَّانِي؟ كَأَنَّمَا ظَنَّ عَافَاهُ اللَّهُ أَنِّي أَكْتُبُ الْيَوْمَ
بِقَلَمٍ غَيْرِ قَلَمِ الْأَمْسِ، أَوْ أَهَيْمَ فِي وَادٍ غَيْرِ ذَلِكَ الْوَادِي! وَهَلِ الشُّعْرُ
إِلَّا نِتَارَةٌ! مِنَ الدَّرِّ يَنْظِمُهَا الشَّاعِرُ إِنْ شَاءَ شِعْرًا، وَيَنْثُرُهَا الْكَاتِبُ إِنْ
شَاءَ نَثْرًا؟ أَوْ نِعْمَاتُ الْمَوْسِقَى يَسْمَعُهَا السَّامِعُ مَرَّةً مِنْ أَفْوَاهِ الْبَلَابِلِ
وَالْحَمَائِمِ، وَأُخْرَى مِنْ أوتار العِيدَانِ وَالْمَزَاهِرِ، أَوْ عَالَمٌ مِنْ عَوَالِمِ
الْخِيَالِ، يَطِيرُ فِيهِ الطَّائِرُ بِقَادِمَتَيْنِ مِنْ عَرُوضٍ وَقَافِيَةٍ أَوْ خَافِيَتَيْنِ مِنْ فِقْرِ
وَأَسْجَاعٍ.

الكاتبُ الخياليُّ شاعرٌ بلا قافيةٍ ولا بحرٍ، وما القافيةُ والبحرُ إلا ألوانٌ وأصباغٌ
تعرضُ الكلامَ فيما يعرضُ له من شئونه وأطواره التي لا علاقةَ بينها وبين جواهره
وحقيقته. ولولا أن غريزةً في النفس أن يردّد القائل ما يقول ويتغنّى بما يُردّده ترويحًا
عن نفسه، وتطريبًا لعاطفته، ما نظّم ناظمٌ شعرًا ولا روى عروضيٌّ بحرًا.
ما كان الرجلُ العربيُّ في مبدأ عهده ينظّم الشعرَ.. ولا يعرف ما قوافيه وأعاريضه،
وما عللهُ وزحافاته. ولكنه سمع أصوات النواعير، وحفيف الأوراق، وخراير المياه،
وبكاء الحمائم، فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة ولذ له أن يبكي لبكائها وينشج
لنشيجها، وأن يكون صداها الحاكي لرناتها ونغماتها؛ فإذا هو ينظّم الشعرَ من حيث لا
يفهم من شئونه سوى أنه تلك النغمة الموسيقية العذبة الخالية، ولا من أبحره وضروبه
سوى أنها صورةٌ من صورهِ، ولونٌ من ألوانهِ.

ذلك مُتَّهَى نَظَرَ الْعَرَبِيِّ إِلَى الشَّعْرِ، وَذَلِكَ مَا دَعَاهُ إِلَى أَنْ يُسَمِّي النَّبِيَّ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ
إِلَيْهِ شَاعِرًا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا قَصَدَ فِي حَيَاتِهِ قَصِيدَةً وَلَا رَجَزَ أَرْجُوزَةً، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ مِنْ
كِتَابِ اللَّهِ وَأَيَاتِهِ الْمُفْصَلَاتِ أْبْلَغَ الْكَلَامِ وَأَفْصَحَهُ وَأَعْلَقَهُ بِالنَّفُوسِ وَأَخَذَهُ بِالْأَلْبَابِ،

وأملكته للعواطف والمشاعر، وأجمعه لصفوف التشبيهات البديعة، والاستعارات الدقيقة، والمجازات الرائعة، والكنيات المستطرفة، وأمثال تلك مما لا ينطق به الناطق في أكثر مناحيه ومنازعه إلا عند ذهابه مذهب الخيال الشعري، فثبته له فسما ما سمعه شعراً وسمى الناطق به شاعراً، وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون.

ما كل موزون شعراً، وما كل ناظم شاعراً، فالوزن ملكة تعلق بالفس من طول ترديد المنظوم والتغني به مقطوعاً تقطيعاً يوازن تفاعيله.. فهو نعمة موسيقية ولحن من ألحان الغناء، يتمثل في قول الملك الضليل.

ففا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

كما يتمثل في قول الخليل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

ويترأى في أوتار الحلق الناطق كما يترأى في أوتار العود الصامت.

أما الشعر فأمر وراء الأنعام والأوزان، وما النظم بالإضافة إليه إلا كالحلي في جيد الغانية الحسناء، أو الوشي في ثوب الدباج المعلم. فكما أن الغانية لا يحزنها عطل جيدها، والدباج لا يرزى به أنه غير معلم، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه ورؤائه أنه غير منظوم ولا موزون.

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم، وما أنت ترى إلا صلة بينهما غير تلك الصلة الاصطلاحية التي لا منشأ لها سوى ما اعتاده الناس من أنهم يظنون ما يشعرون به. وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمت على كثير من الناس أمرهما، وهي التي أدخلت النظامين في عداد الشعراء وألقت عليهم جميعاً رداءً واحداً لا يستطيع معه التمييز بينهما إلا القليل من الناقدین. فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة بيت فلا نجد بيتاً، ونصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة، وأصبحنا لا نكاد نجد بيتاً قارئاً غير شاعر لأنه لا يوجد بين الناس من يعجزه تصور تلك النعمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين.

ولقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر وأمعنوا إمعاناً بعد به عن مكانه وصل به عن قصده. وعندني أن أفضل تعريف له أنه «تصوير ناطق»؛ لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير، وميزان جودته ما يترك في النفس من أثر. وسر ذلك أن الشاعر يتمكن ببراعة

أُسْلُوبِهِ، وَقُوَّةِ خِيَالِهِ، وَدِقَّةِ مَسَلِكِهِ، وَسَعَةِ حِيلَتِهِ، مَنْ رَفَعَ ذَلِكَ السِتَارَ الْمَسْبُوبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمْعِ، فَيُرِيهِ نَفْسَهُ عَلَى حَقِيقَتِهَا حَتَّى يَكَادَ يَلْمُسُهَا بِنَانِهِ، فَيَصْبِحُ شَرِيكَهُ فِي حَسِّهِ وَوُجْدَانِهِ، يَبْكِي لُبْكَائِهِ، وَيَضْحَكُ لَضَحْكِهِ، وَيَغْضِبُ لَغَضْبِهِ، وَيَطْرُبُ لَطْرِبِهِ، وَيَطِيرُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْفُضَاءِ الْوَاسِعِ مِنَ الْخِيَالِ، فَيَرَى الطَّبِيعَةَ بِأَرْضِهَا وَسَمَائِهَا، وَشُمُوسَهَا وَأَقْمَارَهَا، وَرِياضَهَا وَأَزْهَارَهَا، وَسُهُولَهَا وَجِبَالَهَا، وَصَادِحَهَا وَبَاغِمَهَا، وَنَاطِقَهَا وَصَامِتَهَا، مِنْ حَيْثُ لَا يَنْقَلُ إِلَى ذَلِكَ قَدَمًا، أَوْ يُلَاقِي فِي سَبِيلِهِ نَصَبًا، فَإِنْ سَمِعَ قَوْلَ الْقَائِلِ:

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وَاذِ
نَزَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظَمٍ زُلَالًا
يَصُدُّ الشَّمْسَ أُنَى وَاجِهَتِنَا
يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَدَارَى
سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
حُنُوُّ الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ
أَلَدُّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
فَيَحْجُبُهَا، وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ
فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعَقْدِ النِّظِيمِ

خَيْلَ إِلَى أَنَّهُ يَخْطُرُ فِي ذَلِكَ الرُّوضِ الْبَلْبِلِ بَيْنَ أَنْوَارِهِ وَأَزْهَارِهِ، خَطِرَانَ النَّسِيمِ بَيْنَ ظِلَالِهِ وَأَشْجَارِهِ، وَأَنَّهُ يَرَى بَعَيْنَهُ أَوْلَثَكَ الْعَدَارَى السَّانِحَاتِ، وَقَدْ رَاعَاهُنَّ مَنْظُرُ الْحَصْبَاءِ اللَّامِعِ فَوْقَ تِلْكَ الدِّيَابِجَةِ الْخَضْرَاءِ، فَتَوَلَّهِنَّ وَفَزَعْنَ إِلَى جَوَانِبِ عَقُودِهِنَّ يَلْمَسُنَهَا بِأَطْرَافِ بِنَانِهِنَّ، يَحْسِبْنَ أَنَّ قَدْ وَهَتْ فَانْتَثَرَتْ جَوَاهِرُهَا عَلَى بَسَاطِ ذَلِكَ الرُّوضِ الْأَرِيضِ.

وَإِنْ سَمِعَ قَوْلَ الْآخَرِ:

وَادِرِ نَضَامِي عَطَّلُوهَا وَأَذَلَّجُوا
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي وَجَمَعْتُ شَمْلَهُمْ
أَقْمَنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا
نُدَارِ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجِدِيَّةٍ
بِهَا آثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَجَارِسُ
وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ
وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحُلِ خَامِسُ
قَرَارَتُهَا كِشْرَى وَفِي جَنَبَاتِهَا
مَهَّا تَدْرِيبُهَا بِالْقِسْيِ الْفَوَارِسُ

فللراح مَا زَرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وللماءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

تمثل له كأنه مرَّ في ضاحيةٍ من ضواحي بغدادَ بدارٍ موحِشَةٍ فسمعَ فيها أصواتَ قومٍ يلهونَ ويَقْصِفُونَ وَيَقْرَعُونَ الكئوسَ بأمثالِها، فاقتَرَبَ منها وأطلَّ من خصاصِ بابِها، فرأى أولئك القومَ مُجتمعينَ حولَ دَنٍّ من الخمرِ قد تكاملتْ سنُّه، وشيَّبَ الدهرُ فودَّيه ففَصَّدُوهُ فسألَ دَمَهُ الأحمرُ في كئوسٍ من الذهبِ مَنْقوشَةٍ نُقُوشًا فارسيَّةً قد صَوَّرَتْ في قرارِها صورةً كسرى فارسَ، ودارتْ في جوانبِها صُورُ فُرسانِهِ مُتَنَكِّبِي قِسِيهِمْ يطاردونَ بقرِّ الوحشِ الهاربِ من بين أيديهِمْ. ورآهم يملأونَ الكئوسَ خمرًا إلى ما يوازي أعناقَ أولئك الفُرسانِ، ثم بَمزجُونِها بالماءِ إلى ما يُعْطِي رُءوسَهُمْ، فَتَسَلَّلَ مِنْ مكانِهِ مُغْتَبِطًا بِمُجْتَمَعِهِمْ، وبما هُمِّيَ لَهُمْ مِنَ الهِنَاءِ وَالنَّعْمَةِ فِيهِ. ثم مرَّ بتلك الدارِ بعدَ أيامٍ فرآها مُقْفِرَةً مِنْ أَهْلِهَا لا تُسْمَعُ بِهَا نَعْمَةٌ وَلَا نَأْمَةٌ، فَدَخَلَهَا فلم يَرِ فِيهَا إِلَّا أَعْوَادَ ريحانٍ قد بَيَسَ أَكْثَرُهَا.. مُبْعَثَرَةً فِي جوانبِها.. وَخُطُوطًا كانت رَسَمَتْها زقاقُ الخمرِ فوق تُرْبَتِها في عُدُوِّها وَرَوَاحِها بينَ أولئك النَّدماءِ، فانصرفَ حزينًا مُكْتَتِبًا يَسْمَعُ صَفِيرَ الرِّيحِ الضَّارِبَةِ فِي جوانبِها فبرَّدَ قولَ القائلِ:

رُبَّ رَكِبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الخمرَ بالماءِ الزُّلالِ
عَصَفَ الدهرُ بهم فانقرضوا وكذلك الدهرُ حالًا بعدَ حالِ

وإن سمع قول الآخر:

ويوم كَتَثُورِ الإماءِ سَجَزَنَهُ وأوقَدنَ فِيهِ الجَزَلَ حَتَّى تَضْرُمَا
رَمَيْتُ بِنَفْسِي فِي أَجِيجِ سُومِهِ وبالعِيسِ حَتَّى بَضَّ مِنْخَرُها دَمًا

شَعَرَ كَأَنَّ لَهَيْبِ تِلْكَ الهَاجِرَةِ بِهِيبٌ فِي وَجْهِهِ فَيَشِيخُ عَنْهُ قِرَارًا مِنْ لَفْحَاتِهِ، وَيَكَادُ يَبْكِي رَحْمَةً بِذَلِكَ الشَّبَحِ المَصْهُرِ الَّذِي مَلَكَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ التَّنَوُّفَةُ الحَمراءُ سَبِيلَهُ، وَحَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِنَ فَلَهُوَ بِصَابِرٍ إِنْ رَامَ صَبْرًا، وَلَا بِنَاجٍ إِنْ أَرَادَ نَجَاةً.

وإن سمع قول الآخر:

وازْحَمْنَا لِلغَرِيبِ فِي البَلَدِ النَّا زِح، مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا؟
فَارَقَ أَحبابَهُ فما انتَفَعُوا بالعِيشِ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا انتَفَعَا

هَمَلَتْ عَيْنَاهُ حُزْنًا عَلَى ذَلِكَ الْغَرِيبِ الْحَائِرِ، وَتَمَنَّى أَنْ لَوْ أَلْتَقَى بِهِ فِي بَعْضِ مَذَاهِبِهِ
فَعَطَفَ عَلَيْهِ وَآتَسَ وَحَشَّتْهُ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ فَأَنْزَلَهُ مِنْ بَيْتِهِ مَنْزِلًا كَرِيمًا وَأَبْدَلَهُ أَهْلًا بِأَهْلٍ،
وَجِيرَانًا بِجِيرَانٍ.

وإن سمع قول الآخر:

وإن الذي بيني وبين بني أبي
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن ضيئوا غيبي حفظت غيوبهم
وإن زجرُوا طيرًا بنحسٍ تمرُّ بي
ولا أحملُ الحقدَ القديمَ عليهمُ
لهم جُلٌّ مالي إن تتابع لي غني
وإن لعبدُ الضيفِ ما دامَ ثاويًا
وبين بني عمي لمختلف جدًا
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًا
وإن هم هَوُوا غيبي هويت لهم رشدًا
زجرت لهم طيرًا يمرُّ بهم سعدًا
وليسَ رئيسُ القومِ من يحملُ الحقدًا
وإن قلَّ مالي لم أكلفهم رفا
وما شيمت لي غيرها تُشبه العبدًا

أكبر تلك المكرمة وأجلها، ونظر إليها وهي في علياء سمائها، نظرَ الفلكيِّ إلى
كوكبه الساري، وشعرَ كأن نورها قد لمع فامتدَّ شعاعه إلى نفسه فأضاءها.
ولا غرَّو أن يبلغَ الشعرُ من نفسه هذا المبلغَ، فطالما كان للشعرِ السلطان الأكبر
على النفوس العظيمة، فقد نكب الرشيدُ البرامكةَ عندما دسَّ له أعداؤهم ذلك المُغني
الذي غناه هذا الصوت:

ليت هندا انجزتنا ماتعد
واستبدت مرةً واحدةً
وشفت أنفسنا مما تجد
إنما العاجزُ من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بني أمية بعدما قرَّبهم وأدناهم عندما دخل عليه سيفٌ
مولاه وأغراه بهم في قوله:

لا تقبلنَّ عبدَ شمسٍ عشارًا
أنزلوها بحيث أنزلها الله
خوفهم أظهر التوؤدَّ فيهم
واقطعن كلَّ رقلةٍ وغراس^(١)
بدارِ الهوانِ والإتعاسِ
وبهم منكم كحزَّ المواسي

(١) الرقلة: النخلة التي تفوت اليد.

أَقْصِهِمْ أَبِهَا الْخَلِيفَةُ وَاحْسُمُ
عَنْكَ بِالسِّيفِ شَافَّةَ الْأَرْجَاسِ
فَلَقَدْ سَاءَ نَسِي وَسَاءَ سِوَانِي
قُرْبُهُمْ مِنْ نِمَارِقٍ وَكَرَاسِي
بَلْ عَطَفَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْحُطَيْبَةِ وَأَطْلَقَهُ مِنْ سَجْنِهِ حِينَ
سَمِعَهُ يَقُولُ:

مَآذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحِ بَدِي مَرَخٍ
حُمِرِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرٌ
أَلْقَيْتُ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
فَاغْفِرْ عَلَيكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
بَلْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَوْلَ قَتِيلَةَ بِنْتِ الْحَرِثِ تَعَاتِبُهُ فِي قَتْلِهِ أَخَاهَا النَّضْرَ بْنَ الْحَرِثِ
عَلَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنْ صِلَةِ الْقَرَابَةِ:

أَمَحَمَّدُ يَا خَيْرَ ضَنْءٍ كَرِيمَةٍ
فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرَقٌ
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ، وَرَبَّمَا
مَنْ الْفَتَى، وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمَحْنَقُ
وَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ لَأَصَبَتْ
وَأَحَقُّهُمْ، إِنْ كَانَ عَتَقَ يُعْتَقُ
ظَلَّتْ سِوْفُ بَنِي أَبِيهِ تَنُوشُهُ،
لِلَّهِ أَرْحَامٌ هُنَالِكَ لَتَشَقَّقُ

فَبَكَى وَقَالَ - وَهُوَ مِنْ لَاطِنَةٍ فِي عَدْلِهِ، وَلَا رَيْبَةَ فِي حُكْمِهِ: «لَوْ سَمِعْتُهَا قَبْلَ الْيَوْمِ
مَا قَتَلْتُهُ».

لا مؤثر في نفس الإنسان مثل الشعر، وما خضع الإنسان لشيء في جميع أدوار
حياته إلا للشعر. وللشعر الفضل الأول في نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ
الباهر من التفوق والكمال.

ولقد أحب الإنسان الشعرَ ناطقًا وصامتًا؛ أما الناطق فقد عرفته، وأما الصامت،
فالتماثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال، شعر؛ وهذه النغمات الموسيقية
التي تصور خواطر القلوب ووجداناتها فتتهيج عاطفة الحب في نفس العاشق، وعاطفة
الحماسة في نفس الجندي شعرٌ وهدير الأمواج شعرٌ؛ لأنه يمثل عظمة الجبارين؛
وظلام الليل شعرٌ؛ لأنه يطلق دموع الباكين؛ وحفيف الأوراق شعرٌ؛ لأنه يمثل تناجي
العشاق؛ وبكاء الحمائم شعرٌ؛ لأنه يمثل فجيرة البين ولوعة الفراق. تلك النغمات
الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة، وفم الطبيعة أخرى، هي التي زخرفت لنا
هذه الحياة، وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض حتى أحببناها، وولعنا بها، وحرصنا

عليها، وأعددتنا العُدَّة للبقاء فيها.. والسكون إليها. فكتبنا ودونًا وألّفنا واخترَعنا، وتعلمنا، وبنينا فسيّدنا، وغرّسنا فجنينا، وعملنا فربحنا، واجتهدنا فأثرنا، وأمّلنا فسعينا، فبلَغنا، فكان الشعر سرُّ هذه الحياة؛ وعلة هذا الوجود، لا تطيرُ إلينا الحقائق إلا على جناحه، ولا يطيبُ لنا العيش إلا في جواره، فلنمجد الشعراء كلّ التمجيد، ولنكبرهم كلّ الإكبار، فهم مشارق شمس الحكمة، ومطالع كواكب الفضل، وهم الينابيع الصافية التي يترقرق ماؤها، ثم يتسرّب إلى الأفئدة فيملؤها سعادة وهناءً.



الشهيدتان



لم تغمض عيناي ليلة أمس، لأنني بثّ أسمع في الدار الملاصقة لبيتي أنين امرأة متوجّعة، تعالج همًا ثقيلاً، وتشكو مرضاً أليماً، ويخيل إليّ أني لا أسمع بجانبها معللاً يُعلّلها، ولا جليسا يتوجّع لها فلنّا أصبح الصباح ذهبتُ إليها، فإذا قاعة صغيرة مظلمة لا تستعمل على أكثر من سرير بال يتراءى فوقه شيخ مائل من أشباح الموتى. فترققت في مشيتي حتى دنوتُ منها. وكأنها شعرتُ بمكاني فحركت شفتيها تطلب جُرعة ماء، فأسعفتها بها.. فاستفاقت قليلاً، فوقفّت بجانبها أسألها عن خطبها، فأنشأت تقص عليّ قصتها بصوتٍ خافتٍ مُتقطع كنتُ كأني أنتزعه من بين ماضئها انتزاعاً وتقول:

زوّجني أبي منذ سنواتٍ من رجلٍ مزواجٍ مطلق، لا يكادُ يصبرُ على امرأةٍ واحدةٍ عامًا واحدًا، ولو كان للفتاة رأيٌ في نفسها من دون رأي أوليائها لعرفتُ كيف أحسن الاختيارَ لنفسي، بل لو لم يكن في الأمر إلا أن أتبتل كما تتبتل الراهبات، أو أتزوج زواجًا ينتهي بي إلى هذا المصير، لكان لي في الرهبانية رأيٌ غير ما يراه النساءُ جميعًا. ولكنني عجزتُ فأذعنتُ، وحملتُ إليه فاستقبلني بأحسن ما يستقبل به الزوج الكريم أحطى نسائه لديه، وأكرمهنَّ عليه. فكان يُرييني من ذلك ما يريبُ الفريسة من ابتسامة الأسد، وكنتُ أنتظرُ يومَ كما ينتظرُ المجرمُ يومَ القصاص.

فما أفقتُ من صرعة النفاس حتى علمتُ أنه خَطَبَ فتزَوَّجَ فَبَتِي، وأني أصبحتُ في المنزل وَحِيدَةً مَنْقُطَةً لا مُؤَنَسَ لي إلا طِفْلَتِي الصغيرةَ فجزعتُ عند الصدمة الأولى، ثم نزلتُ عَلَى حُكْمِ الْقَضَاءِ الَّذِي لا أملكُ رَدَّةً ولا أعرفُ وَجْهَ الحيلةِ فيه، واحتملتُ طِفْلَتِي إلى بيتِ أَبِي فوجدتهُ مريضًا مُشْرِفًا، فَبَكَى رحمةً بي، واستغفرني من ذنبه إليَّ فغفرتهُ لَهُ.

وما هي إلا أيامٌ قلائلٌ حَتَّى مَضَى لسبيله مَفْجُوعًا بِرُزْئِي الَّذِي نَزَلَ بي، فعلمتُ أن الدهرَ قد سَجَلَ عَلَيَّ في جريدةِ الشقاءِ أيامًا طَوَالًا لا أعلمُ متى يكونُ انقضاؤها، ولا أدري ما اللهُ صانعٌ فيها. فَظَلْتُ أَسْتَكْتَبُ النَّاسَ الكُتُبَ إلى ذلك الرجلِ أسألهُ القُوتَ، لأستعينَ بِهِ على تربيةِ طِفْلَتِي، أو التَّسْرِيحَ، عَسَى أن يُبَدِّلَنِي اللهُ خَيْرًا منه زكاةً وأقربَ رَحْمًا، فَضَنَّنَ بالأولى واستعظَمَ الأخرى. فلم أرَ له سَبِيلًا غيرَ سبيلِ العملِ، فلبثتُ بضعةً سنينَ ساهرةً الليلِ، قائمةً النهارِ، أَسْتَقْطِرُ الرزقَ من سَمِّ الحَيَاطِ، فلا أبلغُ منه الكفافَ.. حتى نالَ مني الجُهدُ.. فذهبتُ بِمُعْضَلَةٍ من الأدويةِ خرجتُ لها عن كلِّ ما أملكُ من حيلةٍ وذخيرةٍ.. وكسوةٍ وأتيةٍ، وأصبحتُ لا أملكُ دِرْهَمًا أبتاعُ به قارورةَ الدواءِ، ولا أجدُ مِرْقَةً أمسكُ بها قوائمَ هذا السَّرِيرِ المُتداعي.

ولم يَقْنَعِ الدهرُ مِنِّي بذلكَ حتى رَمَانِي بِالذَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ التي يَصْغُرُ بجانبها كلُّ عظيمٍ من خُطوبِهِ ونكباتِهِ. فقد كتبتُ إلى ذلك الرجلِ منذُ شهرٍ أصفُ له حالتي وأُضْطِي إليه بذاتِ نفسي وأسألهُ أن يَمُدَّنِي وابتني بقليلٍ من القُوتِ نُمِسْكَ به تلكَ الصُّبَابَةِ التي أَبْقَتْهَا خُطوبُ الأيامِ وأرزأؤها من أعظمنا وجلودنا. ولبثتُ أترقبُ رَجَعَ الكتابِ كما يترقبُ الغريقُ سوادَ السفينةِ.

فإني لَجَالِسَةٌ أيامَ عَلَى هَذَا المقعدِ أعدُّ عَلَى الدهرِ ذُنُوبَهُ إِلَيَّ وَسَيِّئَاتِهِ عِنْدِي، فلا أفرغُ من عَقْدٍ إلا إلى عَقْدٍ، ولا أنتهي إلا إلى حيثُ أبتدئُ، وقد أجلسْتُ طِفْلَتِي بينَ يديَّ أطلُعُ إلى وَجْهها الساطعِ في ظُلُمَاتِ تلكَ الخُطوبِ كما يَطَّلُعُ المَلَأُخُ في ظُلُمَاتِ بحرِهِ إلى نَجْمَةِ القُطْبِ.. إذ هَجَمَ عَلَيَّ الظالمُ الجبارُ فاختَطَفَ ابنتي من يديَّ من حيثُ لا أملكُ دَفْعًا لما نابني، ولا أجدُ ما أذودُ به عن نفسي، إلا زفاراتٍ لا يسمَعها سامعٌ، وعبراتٍ لا يرحمها راحمٌ.

فشعرتُ كأن سَهَمَ الدهرِ الَّذِي كان يروغُ قبلَ اليومِ هاهنا وهنا.. قد أصابَ في هذه المرَّةِ المَقْتَلَ، فَبِتُّ ليلتي كما يجبُ أن تبيتَ امرأةٌ بائسةٌ مُعدَّمةٌ قد فجعها الدهرُ بكلِّ

ما تملك يدها وبكل ما تتعلق به آمالها، فأصبحت لا تجد أمامها يداً تنسبط إليها، ولا عيناً تبكي عليها.

وقد مرّ بي على ذلك نيفٌ وعشرون ليلةً لا يرقأ لي دمعٌ ولا يهدأ بي مضجعٌ، حتى إذا اختلست من يدِ الظلام نَعَسَةً تراءت لي تلك الفتاة في نومها كأنها صارخةٌ باكيةٌ تهتفُ باسمي، وكان أباهما يُوسِعُها ضرباً وتعذيباً، وكانني أحاولُ استنفادها ممّا هي فيه فلا أجدُ إليها سبيلاً. وهأنذا أشعرُ أن سحابةَ الموتِ تغشى على بصري، وأني مفارقةٌ هذا العالمِ قبل أن ألقِي على ابنتي نظرةً أتزوّدُ بها منها قبل أن أفارقَ هذه الدارَ.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحدِّ حتى جرّضتُ بريقها، وتابعتُ أنفاسها، وشطّرتُ بصرها، فجثوتُ عند سريرها أدعو لها الله أن يعينها على أمرها، ويمدّها برحمته وإحسانه، فإني لكذلك، وقد استغرقتُ في هذا المشهدِ الذي بين يديّ استغراقَ العابدِ في هبّكِهِ، إذ رأيتُ من خلالِ الدموعِ التي كانت تزدحمُ في عينيّ شبحاً منتصباً عند بابِ الغرفةِ فتأملتهُ فإذا رجلٌ يمسكُ بيده فتاةً صغيرةً. فتقدّمتُ نحوه فرأيتُه خاشعاً مستكيناً ينظرُ إلى فتاته نظراتِ الوجدِ والرّحمةِ، والفتاةُ كأنها خرقةٌ باليةٌ لا يتحرّكُ بها عضوٌ، ولا ينبضُ بها عرقٌ. فقلتُ: مَنْ أنتِ، وماذا تريدُ؟ قال: أنا زوجُ هذه المرأةِ ووالدُ هذه الفتاةِ. قلتُ: لعلك جئتَ تستغفرُها من ذنبك إليها في التفريقِ بينها وبين ابنتها؟ قال: يا سيدي، ما زالت الفتاةُ مذفورةً فتبكي عليها بكاءً مرّاً، وتهتفُ باسمها في يقظتها ومنامها، حتى سقطتُ مريضةً لا ينفعها طبٌّ، ولا ينجعُ فيها دواءٌ، فلما رأيتُ أن الأمرَ قد وصلَ بها إلى هذا الحدِّ جئتُ بها إلى أمّها أرجو أن تجدَ بين ذراعَيْها شفاءً من دائها. قلتُ: ذلك موكولٌ إلى القضاءِ، ولا يعلمُ الغيبُ إلا الله. ثم تقدّمتُ نحو الفتاةِ فرأيتها تجودُ بنفسها، فاحتملتُها برفقٍ حتى وضعتها بين ذراعَيْ أمّها. فما هو إلا أن هتّمتِ الفتاةُ بأُمّها، والأُمُّ بفتاتها، حتى فاضتُ نفساهما معاً، كأنما كانتا من الرّدي على ميعادٍ!!

الآن وقد عدتُ من دفنِ تينكِ الشهيديتين، وجلستُ لكتابةِ هذه السطورِ، أشعرُ أنّ نفسي تسيلُ من بين جنبيّ حزناً على تلكِ المرأةِ المسكينةِ، لا بل حزناً على جميعِ البائساتِ من النساءِ اللواتي يقتلُهُنَّ الرجالُ كلُّ يومٍ صبراً بسيفِ الطلاقِ الماضي، من حيث لا يجدنَ راحماً يرحمُهُنَّ، ولا نائراً يثارُ لهنَّ.

الدعاء



وهي خلاصة قصيدة لفكتور هيجو:

قومي، يا بُنَيَّةُ، إلى الصَّلَاةِ، فقد نَزَلَ سَنَارُ اللَّيْلِ، ودَبَّ الشَّفَقُ الأَحْمَرُ
في حَاشِيَةِ الأفقِ، وأَطَلَّتْ عُيُونُ الكَوَاكِبِ من فُروجِ الشُّحْبِ، وأَجْرَى
البَدْرُ المنيرُ لِيَقْتَهُ الفِضْيَةَ البيضاءَ على صَفْحَةِ النهرِ، وَمَسَحَتْ أَيْدِي
النسائمِ المبتلَّةُ بندَى اللَّيْلِ عن أوراقِ الأشجارِ، غبارَ النهارِ.

قومي، يا بُنَيَّةُ، إلى الصَّلَاةِ. فقد ماتَ النهارُ، وماتت بموته الألامُ والأحزانُ والأحقادُ
والأضغانُ والمظالمُ والمآثمُ، ولم يبقَ من تلكِ الأعاصيرِ والزَّوابعِ ما يعترضُ وَقَدَّ
الدُّعَاءِ في طريقهِ إلى أبوابِ السَّمَاءِ.

قومي، يا بُنَيَّةُ إلى الصَّلَاةِ، فقد أوى الناسُ إلى منازلِهِم، والطيورُ إلى وُكُناتِها،
والوحوشُ إلى أوجرتِها، وأخذتِ الطبيعةُ مكانَها من مَرَقَدِها، ولم يبقَ من أصواتِها إلا
أنينُ الراحةِ المتمثلُ في جَفَجَعَةِ هذه المَرَكَبَةِ المُقْبِلَةِ، وجُوارُ هذه السائمةِ العائِدَةِ من
حُقُولِها، ودَمْدَمَةُ تلكِ الرياحِ الضارِبَةِ في ذوائبِ الأشجارِ، وأعالِي الأبراجِ.

قومي، يا بنية إلى الصَّلَاةِ، فقد جاءتِ الساعَةُ التي يجثو فيها الأطفالُ حولَ أسرَّتِهِم
حُفَاةَ الأقدامِ عُرَاةَ الرؤوسِ، شواخِصَ الأبصارِ، يَطْلُبُونَ الراحةَ مِنَ اللَّهِ تعالى لأبائِهِم
وأُمَّهاتِهِم وللناسِ أجمعينَ، فَتَرَنُّ أصواتُهُم في عِلْيَاءِ السَّمَاءِ رنينَ نغماتِ الموسيقى
في أجوازِ الفضاءِ، فيردُّها الملائكةُ طائرِينَ بها إلى عَرشِ الرحمنِ. فإذا فَرَّغُوا من
دُعائِهِم وَقَضَوْا حَقَّ اللَّهِ عِنْدَهُم وَحَقَّهُم عِنْدَ أَنفُسِهِم، ذَهَبُوا إلى مَضَاجِعِهِم وناموا نوماً
هادئاً مُطْمَئِنِّناً تتطايرُ فيه الأحلامُ الجميلةُ حولَ أفواهِهِم الباسِمةِ، كما تتطايرُ أسرابُ
التحلِّ حولَ أحواضِ الأزهارِ.

قومي، يا بُنَيَّةُ، إلى الصَّلَاةِ... واطلبي الرحمةَ لتلكِ التي التَقَطَتْ ذَرَّتِكَ الأولى من
عالمِها، ثم اتَّخَذَتْ لِكَ من حَنَايا ضلوعِها سَريراً قَبْلَ سَريرِكَ مِن أَحشائِها مَهَاداً قَبْلَ
مَهَادِكَ، والتي قَدَّمَ لها الدهرُ كَأَسِي شَقائِهِ وَنَعيمِهِ فَشَرِبَتْ الأولى وَأَتَرَتْكَ بالأخرى.

أُطْلِبِي لها الرحمةَ فإنها كانت طَيِّبَةَ القلبِ، طاهرةَ النفسِ، تحبُّ حَتَّى مَنْ لا يحبُّها وترحمُ حَتَّى من لا يرحمُها، وتبتسمُ ابتسامَةً عَذْبَةً صافيةً لا يمازجُها ذلك الرَيْبُ الذي يمازجُ ابتساماتِ النساءِ، وتَمُدُّ يدها إلى اجْتِناءِ كل ثمرَةٍ إلا ثمرَةَ الشجرةِ المُنْهَيِّ عنها. وكانت تقفُ أمامَ مسرحِ الحياةِ الحافلِ بالزخارفِ والتهاويلِ وقفةَ المُتَمَهِّلِ الذي يَتَهَمُّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، وتتنظرُ إليه نظرةَ الحكيمِ العاقلِ الذي يَعْلَمُ أَنَّ السعادةَ الكاذِبَةَ أمرٌ مَدَاقًا في الأفواهِ مِنَ الشقاءِ الصادِقِ، وَأَنَّ الذينَ يَضْحَكُونَ سُورًا بهذه الصُّورِ الخاليةِ إنما يَبْكُونَ من حيث لا يَشْعُرُونَ، وَأَنَّ الجالسينَ حَوْلَ مائدةِ الشهواتِ واللذائذِ إنما يَقَامِرُونَ بأنفسِهِم ولا يَدْرُونَ أنهم خاسِرُونَ، فَتَحُولُ بَصَرُهَا، وتُشِيخُ بوجهِها، وتعودُ أدراجها بقلبِ غيرِ مَخْدُوعٍ، وفؤادِ غيرِ مَصْدُوعٍ.

أذكرِي، يَا بِنْتِي أَنَّ تَطْلِبِي الرحمةَ لأبيكَ تَطْلِبِينَهَا لِأَمِّكَ، فهو أَحْوَجُ إليها منها، ولأنَّ الخطايا قَدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرَهُ فَأَصْبَحَ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ إلى السماءِ، وَغَلَّتْ يَدُهُ، فلا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمُدَّهَا إلى الله بالدُّعاءِ.

إنني أشعرُ، يَا بِنْتِي، حينما أَسْمَعُ نشيدَ دعائكِ أنني أَسْمَعُ صوتَ انقسامِ القيودِ عن قَدَمِي، وَأَنَّ تلكَ السحابةَ السوداءَ التي تَغْشَى علي عَيْنِي تَنْقَشُ عَنْهَا قليلاً قليلاً وكأنَّ جَنَاحِي المهيضِ قَدْ نَبَتَ له ريشٌ ناعمٌ جميلٌ أحاولُ أَنْ أَطِيرَ بِهِ في أعالي السماءِ.

أُطْلِبِي الرحمةَ للآباءِ العائدينَ إلى منازلهم تحتَ جَنحِ الظلامِ بدموعِ مُنْهَلَةٍ، وقلوبِ واجمةٍ، بعدَ أَنْ سَايَرُوا الشمسَ من مَشْرِقِهَا إلى مَغْرِبِهَا فلم يجدوا ما يمسحُونَ به دموعَ آبائِهِم الذينَ يَنْتَظِرُونَهم في منازلهم.

أُطْلِبِي الرحمةَ للأُمَّهَاتِ الجالساتِ حَوْلَ أَسْرَةِ آبائِهِنَّ المرضَى وَقَدْ رَجَفَتْ قُلُوبُهُنَّ، وَجَارَتْ أَبْصَارُهُنَّ مَخَافَةَ أَنْ يَذُقْنَ مرارةَ الثكلِ والثكلِ كثيرٌ على قلوبِ الأُمَّهَاتِ. أُطْلِبِي الرحمةَ للبخيلِ الذي يُجِيعُ بطنَهُ وَيُشْبِعُ صَدْرَهُ، والأحمقِ الذي يَبْتَسِمُ للمعانِ الحَرِيرِ في صَدْرِهِ، والذهبِ في أصابعِهِ، والمَلِكِ الذي يُشْعِلُ نارَ الحربِ في أُمَّتِهِ؛ لِطُغْيِ نَارِ غَضَبِهِ، والزوجِ الذي لا يَحَاسِبُ نَفْسَهُ على ليلَةٍ سَوْءٍ يَقْضِيهَا خارجَ بيتِهِ، وَيَحَاسِبُ زَوْجَهُ على ابتِسامَةٍ تَبْسُمُهَا لرجلِ غيرِهِ، وسائرِ البائِسينَ الذينَ لا يَشْعُرُونَ بِبُؤْسِهِم، والأشقياءِ الذينَ يظُنُّونَ أنهم سَعْدَاءُ.

أطلبني الرحمة لأولئك الذين عمّروا الأرض وبنّوا دُورَها، وشادُوا قُصورَها
وزخرفُوا سُهولَها وجبالَها، وأغوارَها، وأنجادَها، فجازَتْهُمْ سُوءًا بما عَمِلُوا، وابتَلَعَتْهُمْ
في أعماقِ جَوْفِها، فأصْبَحُوا في تلكِ الحُفْرَةِ المُظْلِمَةِ الموحِشَةِ التي تختلطُ فيها
الرءُوسُ بالأقدامِ، والنعالُ بالتيجانِ، والتي ينطوي فيها كلُّ قديمٍ تحتَ كلِّ حديثٍ،
انطواءً اللّجّةِ تحتَ اللّجّةِ في البحرِ المحيطِ، يتألّمونَ ويَنطِقُونَ، ولا يَسْتَصْرُخُونَ فلا
يجدونَ مَنْ يسمعُ نداءَهم، أو يُلبّي دُعاءَهم.

أطلبني الرحمة لهم، فإن الدعاءَ الخالصَ يستحيلُ في نظرِهِم إلى رَوْضَةِ غَناءٍ
تزهّرُ فوقَ أجدانِهِم، وارزُكُمي فوقَ التربةِ التي يَبْثُونَ تحتَها، واسقِها مِن دُمُوعِكَ
قطراتٍ باردةً تَبَلُّ غُلَّتْهُمْ وتُطْفِئُ جُدُوءَ الحزنِ المُلْتَهَبَةِ في أحشائِهِم، إنهم إلى الرحمةِ
مُحتاجونَ وإلى الله راغبونَ.

أطلبني الرحمةَ للأبرارِ والفُجّارِ، والعُصاةِ والطائعينِ، والمُلاحِدِينَ والمؤمنينَ، وكلِّ
دارِجَةٍ في الأرضِ، وكلِّ سابِحَةٍ في السماءِ، ولا تَبْأَسِي أن يَسْتَجيبَ الله دُعاءَكَ، فلكلِّ
بدايةٍ، ولكلِّ سائِلَةٍ قَرارٌ.

كما أن النهرَ يصبُّ في البحرِ، والطائرُ يقَعُ على الغُصنِ، والشمسُ تجري
لمستقرِّها، والنفْسُ تصعدُ إلى عالِمِها، كذلك أبوابُ السماءِ مُفْتَحَةٌ لخالصِ
الدُّعاءِ.



الكوخ والقصر



أنا إن كنتُ حاسدًا أحدًا على نعمةٍ، فإني أحسدُ صاحبَ الكوخِ
على كُوخِهِ قبلَ أن أحسدُ صاحبَ القصرِ على قصرِهِ. لو أن للأوهامِ
سلطانًا على النفوسِ لما تضاءلتِ الفقراءُ بينَ أيدي الأغنياءِ، ولا ورمَ
أنفُ الأغنياءِ أن يتخذَهُمُ الفقراءُ أربابًا من دونِ الله.

أنا لا أغيظُ الغنيَّ إلا في موطنٍ واحدٍ من موطنِهِ، إن رأيتهُ يُشبعُ الجائعَ ويُواسي
الفقيرَ، ويعودُ بالفضلِ من ماله على اليتيمِ الذي سلبتهُ الدهرُ أباهُ، والأرملةَ التي فجَّعها
القدرُ في عائلها، ويمسحُ بيده دَمعةَ البائسِ والمحزونِ، ثم أرثي له بعد ذلك في جميعِ
مواطنِهِ الأخرى.

أرثي له إن رأيتهُ يترَّصُّ وُقوعَ الضائقةِ بالفقيرِ؛ ليدخلَ عليه مدخلَ الشيطانِ من
قلبِ الإنسانِ فيمتصُّ الثمالةَ الباقيةَ له من ماله؛ ليسدَّ في وجهه بابَ الأملِ. وأرثي له
إن رأيتهُ يعتقدُ أنَّ المالَ هو منتهى الكمالِ الإنسانيِّ فلا يطمعُ في فضيلةٍ ولا يحاسبُ
نفسه على رذيلةٍ. وأرثي له وأبكي على عقلِهِ إن مشى في طريقهِ يُخزِّرُ بعينه خزرًا ليرى
هل سجدَ الناسُ لمشيتهِ، أو صعقوا من هيئتهِ؟ وارحمه الرحمةَ كلِّها إن عاش شحيحًا
جعدًا مُقتَرًا على نفسه وعياله، بغيضًا إلى قومه وأهله، ينقمونَ عليه حياته، ويستيطئونَ
ساعةَ حتفه.

أما الفقيرُ فهو أسعدُ الناسِ عيشًا، وأزوحهم بالًا، إلا إذا كان جاهلًا مخدوعًا
يظنُّ أنَّ الغنيَّ أسعدُ منه حظًا، وأرغدُ عيشًا، وأثلجُ صدرًا فيحسدوه على النعمةِ التي
أسبغها الله عليه، ويجلسُ في كسرِ بيتهِ جلسةَ الكئيبِ المخزونِ يُصعدُّ الزفرةَ، ويرسلُ
العبرةَ فالعبرةَ. ولولا جهلهُ وبلاهةُ عقلِهِ لعلمَ أنَّ ربَّ صاحبِ قصرٍ يتمنى كوخَ الفقيرِ
وعيشه، ويرى أنَّ ذلك السراجَ الضعيفَ الذي لا يكادُ يبينُ نفسه أسطعُ دُبالًا وأكثرُ
لألاءَ من تلكِ الشموعِ الباهراتِ التي تأتلقُ بينَ يديه، وأنَّ تلكَ الحشيةَ من الشعرِ أو
الوبرِ أنعمَ ملمسًا وألينُ مَضجَعًا من وسائدِ الحريرِ ونضائدِ الديباجِ.

لقد بَلَغَ الضُّعْفُ وَصَغُرَ النفسُ بكثيرٍ مِنَ الناسِ أَنَّهُمْ يَحْفَلُونَ بِالْأَغْنِيَاءِ لِأَنَّهُمْ أَغْنِيَاءُ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَنَالُونَ مِنْهُمْ مَا يَبُلُّ غَلَّةً أَوْ يُسِيغُ غُصَّةً. وَلَيْتَ شِعْرِي إِنْ كَانَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ إِجْلَالِ الْمَالِ وَإِعْظَامِهِ حَيْثُ وُجِدَ، فَلِمَ يُقْبَلُونَ أَيْدِي الصَّيَارِقَةِ، وَلَا يَنْهَضُونَ إِجْلَالًا لِلْكِلَابِ الْمُطَوَّقَةِ بِالذَّهَبِ، وَهُمْ يَعْمَلُونَ إِلَّا فَرْقَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ!؟

لَوْ عَامَلَ الْفُقَرَاءُ بِخُلَاءِ الْأَغْنِيَاءِ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُعَامَلُوا بِهِ لَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَشَعَرُوا أَنَّ بَدَارَتِ الذَّهَبِ الَّتِي يَكْنِزُونَهَا إِنَّمَا هِيَ أَسَاوِرٌ مُلْتَفَّةٌ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَأَغْلَالٌ آخِذَةٌ بِأَعْنَاقِهِمْ، وَلَعَلَّمُوا أَنَّ الشَّرْفَ فِي كِمَالِ الْأَدَبِ، لَا فِي رَنِينِ الذَّهَبِ، وَفِي جَلَائِلِ الْأَعْمَالِ، لَا فِي أَحْمَالِ الْمَالِ.

فَلْيُعْظِمِ النَّاسُ الْكِرْمَاءَ، وَلْيَحْتَقِرُّوا الْأَغْنِيَاءَ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ الشَّرْفَ شَيْءٌ وَرَاءَ الْغِنِيِّ وَالْفَقْرِ، وَأَنَّ السَّعَادَةَ أَمْرٌ وَرَاءَ الْكُوحِ وَالْقَصْرِ.



على سرير الموت



مررتُ يوماً من الأيام على باب منزلٍ صغيرٍ في أحدِ الأزقةِ الضَّيِّقَةِ، فرأيتُ حوله مَجْمَعًا حَافِلًا تصطكُ فيه الأقدامُ بالأقدامِ، وتمتزجُ فيه الأنفاسُ بالأنفاسِ، وقد تَخَلَّلَهُ قَوْمٌ مِنْ رِجَالِ الشَّرْطَةِ، وسمعتُ قائلاً يقولُ: «قَبِّحَ اللَّهُ الْإِنْحَارَ»، وآخرُ يقولُ: «أَحْسَبُهُ شَابًا غَرِيبًا لِأَنِّي لَمْ أَرُ عَيْنًا تَدْمَعُ عَلَيْهِ». فعلمتُ أن هناك شَابًا مُنْتَحِرًا، وأن هذا الحادثُ سَبَبُ هذا الاجتماعِ.

لم أَقْنَعُ بِالْإِجْمَالِ، فَأَحْبَبْتُ مَعْرِفَةَ التَّفْصِيلِ، فَحَاوَلْتُ الدُّخُولَ إِلَى الْمَنْزِلِ فَمَا اسْتَطَعْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، فتريشتُ حتى لمحتُ رَجُلًا مِنْ رِجَالِ الشَّرْطَةِ أَعْرَفُهُ فَدَخَلْتُ مَعَهُ. وهنالك رأيتُ على سريرِ الموتِ فتىً في نحوِ العِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، رقيقَ الجسمِ، أَصْفَرَ اللَّوْنِ، لَمْ تَسْتَطِعْ يَدُ الْمَوْتِ أَنْ تَمْحُوَ كُلَّ آثَارِ جَمَالِهِ، بَلْ بَقِيََتْ مِنْهُ بَقِيَّةٌ مِنَ الطَّيِّبِ الَّتِي يَسْتَنْشِقُهَا الْإِنْسَانُ فِي الزَّهْرَةِ الذَّابِلَةِ.

اهتمَّ الضابطُ بملابسه لعله يجدُّ فيها ما يدلُّ نلبه، واهتمَّ الطبيبُ بجثته ليعرفَ علةَ^(١) موته. أما أنا فجلستُ بجانبه جلسةَ الكئيبِ المحزونِ أفكرُ في مُصيبتِهِ، وأندبُ شبابه وجماله، فلمحتُ حَوْلَ سريره أوراقًا منشورًا فجمعتها ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعرُ الضابطُ ولا الطبيبُ بما أفعلُ، عَنِّي أجدُ فيها عبرةً مِنَ العِبَرِ.

وما هي إلا ساعةٌ، حتَّى قرَّرَ الطبيبُ أنه مُتَّحِرٌ بِشُرْبِ مادَّةِ الزرنيخِ، وقرَّرَ الضابطُ نقلَ جثته إلى المستشفى. فنقلتِ الجثةُ، وانفضَّ الجمعُ المزدحمُ، لم أعد أعلمُ بعدَ ذلكَ مِنْ أمره شيئًا.

خلوتُ بنفسِي والأوراقُ فنثرتها فرأيتهَا مجموعةً حَوَاطِرَ عاشقٍ، تناولَ كأسَ الحبِّ بيده، فارتشفَ منها الرشفةَ الأولى فوجدَهَا خلوةَ المذاقِ، فألصقَ الكأسَ بفمه، واستمرَّ يشربُ لا يرفعُهَا، ولا يشعُرُ بالمرارةِ المُتجدِّدةِ في جرعَاتِهَا حتَّى أتى على الجرعةِ الأخيرةِ، فإذا هي السمُّ الناقعُ الذي قتلَهُ وذنبَ بحياته.

قرأتُ تلكَ المذكراتِ فبكيتُ بكاءً رَحِمَتْ نفسي مِنْهُ، ثم طَوَيْتُهَا وألقيتُ بها بين أوراقِي، وظلَّت على ذلكَ أعوامًا طويلاً.

وبينما أنا أقلبُ أوراقِي ليلَةَ أمسٍ إذ عثرتُ بها في سَقَطِ صَغِيرٍ، قد اصفرَّ لونه لتقادمِ العهدِ عليه، كما يَصْفُرُ الكفنُ حَوْلَ الجثةِ الباليةِ، فشعرتُ برعدةٍ تمشي في أعضائي، وتخيَّلتُ أنها في هذا السَقَطِ سَبَّحَ كاتبها في ذلكَ القبرِ.

ثم عدتُ إلى نفسي فنثرتها للمرَّةِ الثانيةِ وأعدتُ قراءتَهَا، فرأيتُ قلبَ العشيِّ مرسوماً فيها رسماً صحيحاً في حَالِي سَعَادَتِهِ. وهأنذا أنشرُهَا في الناسِ لتكونَ عبرةً يعتبرُ بها المخاطرونَ بقلوبهم في هذا السبيلِ، سبيلِ الحبِّ القاتلِ.

(١)

رأيتهَا فأحببتها، وما كنتُ أعرفُ الحبَّ مِنْ قَبْلِهَا.

كانَ قلبي في ظلامِ حَالِكٍ لا يرى حتَّى نفسه، فلما أشرقَ فيه الحبُّ أشرقَتْ فيه شمسٌ ساطعةٌ مُنيرةٌ، لها مِنَ الشمسِ نورُهَا وجمالُهَا، وليسَ له مِنْهَا حرارَتُهَا ولذعَتُهَا.

كنتُ أشعُرُ قَبْلَ اليومِ كأنَّ قلبي في صحراءِ هذهِ الحياةِ وحيدٌ موحشٌ لا يعرفُ القلوبَ، أو يعرفها ثم يُنكرُهَا. فلَمَّا أحببتُ رأيتُ بجانبه قلبًا يُؤنسُه ويُزيلُ وحشتهُ،

(١) المراد بعله موته: سببه الذي أدى إليه.

فوجدتُ بينَ جوانحي مِنَ اللذَّةِ والغِبطةِ ما لو قُسمَ على القلوبِ جميعًا ما خالطَها حُزنٌ ولا مَسها ألمٌ.

كنتُ أسمعُ باسمِ السعادةِ ولا أفهمُ معناها، غيرَ أني كنتُ أسمعُهم إذا ذكروها ذكروا بجانبها القصرَ والحديقةَ، والفضةَ والذهبَ، والسلطةَ والجاهَ، والشهرةَ والصِّيتَ. فلَمَّا أحببتُ اعتقدتُ ألا سعادةَ في الدنيا غيرُ سعادةِ الحبِّ، وأيقنتُ أن الناسَ جميعًا إنما يطلبونَ سعادةَ الأجسامِ لا سعادةَ النفوسِ، فمثَّلُهم كمثلِ الدِّفينِ المُكفَّنِ بالحريِّ والديباجِ، وباطنُهُ مسرُحُ الدودِ ومرتعُ الهوامِ والحشراتِ.

(٢)

أحببتُها قبلَ أن أعرفَ عنها شيئًا مِنَ الشئونِ سوى أنها تُحِبُّني، فكأنني ما منحتُها قلبي إلا؛ لأنها منحتني قلبها، وهو ثمنٌ قليلٌ في جانبِ هذه المِنحةِ الغاليةِ التي ما كنتُ أحدثُ نفسي بها، ولا كانت تستطيعُ أن تُمثِّلها في عينيَّ خواطرُ الأمانِي، ولا سوانحِ الأحلامِ.

عشتُ دهرًا بينَ أقوامِ لا يعينهم أمري ولا يهتمُّهم شأني، وذقتُ من آلامِ الحياةِ وشقاءِ العيشِ ما لا يستطيعُ أن يَحتمِلَهُ بشرٌ، فسمعتُ مَنْ يسألني: كيفَ حالُك؟ ومَنْ يقولُ لي: ما أشدَّ جزعِي لمُصابكِ؟ ومَنْ يتبأكي رَحمةً وإشفاقًا عليَّ. ولكني لم أرَ بجانبِي يومًا مِنَ الأيامِ عينا تدمعُ، ولا قلبًا يخفقُ!

رأيتُ مَنْ يحبُّ جمالي كما يحبُّ تمثالًا مُتقنَ الصنعِ، ومَنْ يحبُّ مالي كما يحبُّه في كيسِه أو خزانتهِ، ومَنْ يُعجبُ بحديثي إعجابَه بروايةٍ بدِيعَةٍ ولكني لم أرَ في حياتي مَنْ يُحِبُّني!

أما اليومَ فقدَ وجدتُ بجانبِي القلبَ الذي يخفقُ لأجلي، والعينَ التي تبكي في سبيلي، والنفسَ التي تحبُّني لا لشيءِ سِواي، فقليلٌ لها مِني أن أمنحها حياتي، فكيفَ أبخلُ عليها بقلبي؟!!

(٣)

جلستُ إليها للمرَّةِ الأولى فحدَّثتني نفسي أن أمدَّ يدي إلى يدها فأضَعها على صدري لأطفيءَ بها غلتي، فما لمستها حتى نظرتُ إليَّ نظرةَ العتبِ، وقالت: كُن رجُلًا في حبِّك، واتركِ الطفولةَ لغيرِك.

إن كنت تحبني لنفسي فها أنت قد ملكتها عليّ وأحرزتها من دوني. وإن كنت تحبني لهذه الصورة الجسمانية فما أضعف همّتك.. وما أضعف نفسك!
أتذرف دمعك، وتسهر ليك، وتذيب حبة قلبك من أجل عظمة تلمسها أو جلدة تلمسها؟

أنت شريف في نفسك، فكن شريفًا في حبك، واعلم أنني ما أحببت غير نفسك فلا تحب غير نفسي.

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى رأيتني قد صغرْتُ في عين نفسي، وتمنيت أن لو عجل إليّ أجلي قبل أن يمر هذا الخاطر الفاسد في ذهني. ثم استوهبتُها ذنبي فوهبتُ لي، وما عدت من بعدها إلى مثلها.

(٤)

الآن عرفت مبالغ عظمتها، وفضل هدايتها، ومقدار ما يبلغه الحب الشريف من النفس. فهأنذا أشعر كأن نفسي مرآة يعشاها الصدا، وكان الحب صيقل يصقلها فيجلو صفاتها شيئًا فشيئًا.

كنت أحمل بين جوانحي لأعدائي ضغنا وحقدًا، فأصبحت لا أشعر بما كنت أشعر به من قبل؛ لأن الحب ملك عليّ قلبي، واستخلصه لنفسه فلم يترك فيه مجالاً لشيء سواه.

كنت صيقل الصدر إن مسني ألم.. سريع الغضب إن فاتني مأرب.. فأصبحت فسيح رقة اللحم، لا يستفزني غضب، ولا يحرّجني محرّج لأنني قنعت بسعادة الحب، فلم أحفل بعدها بشيء سواها.

كنت شديد القسوة، متعجّر القلب، لا أعطف على بائس، ولا أحنو على ضعيف، فأصبحت أشعر بالمصيبة أراها تُصيب غيري ولا تُصيبني، وأتألم لبؤس كل بائس وحزن كل محزون؛ لأن الحب أشرق في قلبي فملاء نورًا.. فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلاً بينه وبين القلوب.

وجملة القول إنني كنت وحشًا ضارياً أعيا العالمين رياضته وتدليله، فصرت بين يدي الحب الشريف إنسانًا شريفًا، وملكًا كريمًا.

(٥)

خرجتُ بها في الليلِ إلي ضِفَّةِ النهرِ، وكانَ الماءُ رائِقًا، والسَّماءُ صافيةً، وفي كلِّ منهما نجومٌ وكواكبٌ تتلألأُ في صَفْحَتِهِ، فاخْتَلَطَ عَلَيْنَا الأَمْرُ حتى ما نُفَرِّقُ بَيْنَ الأَصْلِ والمِرَاةِ، ولا نَدْرِي أَيْنَ مَكَانُ الماءِ مِن مَكَانِ السَّماءِ. فمَشِينَا طَوِيلًا لا يَنْبَسُ^(١) أَحَدُنَا بكلمةٍ، وكانَ سكونُ الليلِ قَدْ سَرَى إلى أَفْنِدَتِنَا ومَلَأَ ما بَيْنَ جَوَانِحِنَا، فأَمْسَكْنَا عَنِ الحَدِيثِ هَيْبَةً وإِجْلَالًا.

وكنْتُ أشعُرُ في تلكَ الساعَةِ بخَفَّةٍ في جِسمِي، وَصَفَاءٍ في نَفْسِي حتَّى كانَ يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي لو شِئْتُ أن أَطِيرَ لَطَرْتُ بغيرِ جَنَاحٍ، وأنَّ في اسْتِطَاعَتِي أن أُخْتَرِقَ بِنَظَرِي حُجُبَ السَّماءِ وَأُنْفِذَ إلى المَلَأِ الأَعْلَى فَأَرَى هُنَالِكَ ما هُوَ مَحْجُوبٌ عَنِ نَظَرِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَحتَّى صِرْتُ أتمنَّى أن يُضِلَّ النَجمُ سَبيلَهُ فلا يَهْتَدِي إلى مَغرِبِهِ، وأن يَخْتَبِئَ اللَّيْلُ في بُرْدَتِهِ فلا يَعرِثُ بِهِ فِجرُهُ، وأن تَسْتَمِرَّ مَشيتِنَا هَذِهِ ما ضَلَّ النَجمُ وما دامَ الظلامُ.

فالتفتُ إليها وسألتها: هل تشعرُ بالسعادةِ التي أشعُرُ بها؟

قالت: لا؛ لأنني أعرفُ مِن شئونِ الأيامِ وأحوالِها غيرَ ما تعرفُ، ولأنني لا أنظرُ إلى الدنيا بالعينِ التي تنظرُ بها إليها!

أنت سعيدٌ بالأملِ، وأنا شقيَّةٌ بالحقيقةِ الواقِعَةِ.

إنك سعيدٌ؛ لأنك تظنُّ أن سعادتكِ دائمةٌ لا انقطاعَ لها، وأنا شقيَّةٌ لأنني أتوقَّعُ في كلِّ لحظةٍ زوالَها وفناءَها.

إنك إن استطعتَ أن تُوقِفَ الشمسَ في كَبِدِ السَّماءِ، وأن تُحوِلَ بَيْنَ الأَرْضِ ودَوَرَتِها، وأن تمنعَ الساكنَ أن يتحرَّكَ، والمتحرَّكَ أن يسكنَ، فأضْمَنَ لِنَفْسِكَ اسْتِمرارَ السَعادَةِ وبِقَاءَها.

وهنا أَمْسَكْتُ عَنِ الكلامِ وأَطَرَقَتْ بِرأسِها طَوِيلًا، فأرَيْتُ مَدامِعَها تتحدِرُ عَلى خَدَيْها بِيضاءٍ صافيةً كاللؤلؤِ المَكُونِ. فبَكَيْتُ لِبِكائِها، وقلتُ: لِمَ تبكين؟ قالت: خَوْفُ الفِراقِ. قلتُ: فِراقُ الحِياةِ، أو فِراقُ المَوْتِ؟ قالت: أَمَّا فِراقُ الحِياةِ فإِنني لا أَخافُهُ؛ لأنَّهُ لا توجِدُ قوَّةً في العالَمِ تَسْتَطِيعُ أن تُحوِلَ بَيْنِي وبَيْنَكَ. إِنما أَخافُ فِراقَ

(١) لا يَنْبَسُ: لا يَنْطِقُ، وفي الكلامِ المَعْلُومِ: فلانَ لَم يَنْبَسِ بِنَتِ شَفِه: أي لَم يَنْفِوه، ولم يَنْطِق.

الموت، لأنه الفراق الذي لا حيلة لي فيه.. ولا مُتَدَحِّع عنه. قلت: هل لك أن نتعاهدَ على أن نعيشَ معاً ونموتَ معاً؟ قالت: ذلك ما يُهَوِّنُ عَلَيَّ أَلْمِي.
فتعاهدتُنا، ثم رَجَعْنَا أَدْرَاجَنَا، واللَّيْلُ يُسَمِّرُ أَدْيَالَهَ لِلْفِرَارِ مِنَ النَّهَارِ، ثم افترَقْنَا على ميعادٍ، وَذَهَبَ كُلٌّ لِسَبِيلِهِ.

(٦)

ألا يستطيعُ هذا الدهرُ الغادرُ أن ينامَ ساعةً واحدةً عن هذا الإنسان؟
ألا يستطيعُ أن يَسْتَقِيهَ كأساً واحداً لا يُخالِطُها كَدْرٌ، ولا يمازِجُها شَقَاءٌ؟
ألا يستطيعُ أن يَحْرِمَهُ السعادةَ بناتاً فلا يُذيقَهُ مِن كَاسِها قِطْرَةً واحدةً ما دام يريدُ أن يمنحَهُ اليومَ؛ لِيَسْلُبَهُ غَدًا؟
إن الإنسانَ لا يَعْبِزُ عن احتِمَالِ الشقاءِ الدائمِ، ولكنَّهُ يَعْبِزُ عن احتِمَالِ السعادةِ المُتَفَطِّعَةِ.

يقولون: إن الأملَ حياةُ الإنسانِ، وما قَتَلَ الإنسانَ وَمَرَّقَ شَمْلَ حَيَاتِهِ إلا الأملُ.
ليتني ما سعدتُ؛ لأنني ما شقيتُ إلا بسعادتي، وليتني ما أملتُ، لأنَّ اليأسَ القاتِلَ ما جَاءَنِي إلا مِن طَرِيقِ الأملِ الباطِلِ.
ماتتِ الفتاةُ التي كانتَ شمسَ حياتي، وَأَشِعَّةَ أَمالي، وبنوعِ سَعَادَتِي وهَناءَتِي.
ماتتِ الفتاةُ التي كانتَ مِلءَ الدُّنيا جَمالاً وبِهَاءً، فماتَ بموتِها كلُّ حَيٍّ في هذا الوجودِ.

أرى الأرضَ غيرَ الأرضِ، والسَماءَ غيرَ السَماءِ، وأرى الطيورَ صامِتَةً لا تُعَرِّدُ، والغصونَ ساكِنةً لا تتحرَّكُ، وأرى النجومَ أَفَلَةً، والأزهارَ ذابِلَةً، والطبيعةَ واجِمَةً^(١) حزينَةً، لا يفتَرُّ نُغْرَها ولا يتلأأُ جمالُها، وأرى الدُّنيا كأنما عادتْ إلى عهدها الأوَّلِ لا يَسْكُنُها إنسانٌ ولا يَخْطُرُ بها حيوانٌ، وكأَنني فيها آدمُها الوحيدُ المسكينُ يندُبُ جَنَّتَهُ وَيَشْكُوا وَحَدَّتَهُ.

أَيُّها الدهرُ الغادرُ إن غَلَبَتْنِي عَلَيْها فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أن تَغْلِبَنِي عن نَفْسِي. لك أن تُخْرَجَ مِنَ الدُّنيا مَنْ تَشَاءُ، ولكنْ لَيْسَ لَكَ أن تُرَدَّ إِلَيْها مَنْ تُخْرَجُ مِنْها.

(١) الوجم: السكوت في ذهول وتعجب.

ويا آيتها النفس الهائمة في سمائها، لا تجزعي ولا تعجلي، فوالله لأفين بعهدك، ولأذهبن عما قليل وحشتك ليكون عهدنا في مستقبلنا كعهدنا في ماضينا، فما تعارفنا في العالم الأول إلا بأرواحنا، فلنكن كذلك في العالم الثاني.



غدر المرأة



يَقْصُونَ فِي بَعْضِ الْأَسَاطِيرِ الْقَدِيمَةِ أَنَّ حَكِيمًا مِنْ حُكَمَاءِ الْيُونَانِ كَانَ يَحِبُّ زَوْجَتَهُ حُبًّا مَلَكَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ وَعَقْلُهُ.. وَأَحَاطَ بِهِ إِحَاطَةَ الشُّعَاعِ بِالصَّبَاحِ الْمُتَّقِدِ. وَكَانَ يَمَازُجُ هِنَاءَتَهُ الْحَاضِرَةَ شِقَاءً مُسْتَقْبَلٌ يَسُوقُهُ إِلَى نَفْسِهِ الْخَوْفِ مِنْ كَانَ مُعْتَبَطًا بِاعْتِلَاقِهِ إِلَى صَائِدٍ آخَرَ يَعْتَلِقُهُ مِنْ بَعْدِهِ. وَكَانَ كَلَّمَ أَبْتَ زَوْجَتَهُ ^(١) سِرَّهُ وَشَكَا إِلَيْهَا مَا يُسَاوِرُ قَلْبَهُ مِنْ ذَلِكَ الْهَمِّ، حَنْتَ عَلَيْهِ، وَعَلَلْتَهُ بِمَعْسُولِ الْأَمَانِي، وَأَفْسَمْتَ لَهُ بِكُلِّ مُحْرَجَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ أَنَّهَا لَا تَسْتَرِدُّ هَيْبَةَ قَلْبِهَا مِنْهُ حَيًّا وَمَيِّتًا.. فَكَانَ يَسْكُنُ إِلَى ذَلِكَ الْوَعْدِ سُكُونِ الْجِرْحِ الذَّرْبِ ^(٢) تَحْتَ الْمَاءِ الْبَارِدِ.. ثُمَّ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَعُودَ إِلَى هَوَاجِسِهِ وَوَسَاوِسِهِ.

حتى مرّ في بعض رُوَحَاتِهِ إِلَى مَنْزَلِهِ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي الْمَقْمَرَةِ بِمَقْبَرَةِ الْمَدِينَةِ.. فَبَدَأَ لَهُ أَنْ يَدْخُلَهَا لِئُرْوَحَ عَنْ نَفْسِهِ هِمُومِ الْمَوْتِ بِوَقْفَةٍ بَيْنَ قُبُورِ الْمَوْتَى. وَكَثِيرًا مَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ، وَيَلْدُّ لِلْجَبَانِ وَهُوَ يَرْتَعِدُ فَرَقًا ^(٣) الْإِصْغَاءِ إِلَى حَدِيثِ الْمَرَدَةِ وَالْجَبَانِ، فَرَأَى فِي بَعْضِ مَذَاهِبِهِ بَيْنَ تِلْكَ الْقُبُورِ امْرَأَةً مُتَسَبِّلَةً ^(٤) جَالِسَةً أَمَامَ قَبْرِ جَدِيدٍ لَمْ يَجْفَ تَرَابُهُ، وَبِيَدِهَا مَرُوحَةٌ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَبْيَضِ مَطْرَزٌ بِأَسْلَاكِ مِنَ الذَّهَبِ، تَحْرُكُهَا يَمَنَةً وَيَسْرَةً لِتُجْفَفَ بِهَا بَلَلُ ذَلِكَ التَّرَابِ. فَعَجِبَ لِشَأْنِهَا وَتَقَدَّمَ نَحْوَهَا فَارْتَاعَتْ لِمَرَأَةٍ.. ثُمَّ أَنْسَتْ بِهِ حِينَمَا عَرَفْتَهُ.. فَسَأَلَهَا مَا

(١) أبيت: كلمة مجازية من قولك: بثته ما في نفسي أي صارحته، وتقول بثته سري، أو باطن أمري.

(٢) الذرب: المولم.

(٣) الفرق: شدة الخوف.

(٤) متسبلة: متتعبة.

شأنها وما مقامها هنا؟ ومن هذا الدفين؟ وما هذا الذي فعل؟ فأبت أن تجيبه عمًا
سأل حتى تفرغ من شأنها.

فحلَسَ إليها وتناولَ المروحةَ منها، وظلَّ يُساعِدُها في عملها حتى جفَّ الترابُ.
فحدَّثته أنَّ هذا الدفينَ زوجها، وأنه مات منذ ثلاثة أيام، وأنها جالسةٌ من الصباح
مجلسها هذا لتُجفِّفَ ترابَ قبره وفاءً بيمين كانت قد أقسمتْها له في مرضِ مؤتهِ ألا
تتزوَّجَ من غيره حتى يجفَّ ترابُ قبره، وأن هذه الليلة هي ليلةٌ بناهها بزواجها الثاني.
فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبُّها ويحسِنُ إليها أن تحنَّتَ بيمين أقسمتْها
له.. أو تخيسَ بما عاهدتهُ عليه، ثم قالت له: هل لك، يا سيدي، أن تقبلَ هذه المروحةَ
هديةً مني إليك.. وجزاءً على حُسنِ صنيعك معي؟ فتقبَّلَها منها شاكرًا بعد أن هنَّأها
بزواجها الجديد!

ثم انصرفَ وليس وراءَ ما به من الهمِّ غايَةً، ومشى في طريقه مشيةَ الراحِ النَّشوانِ (١)
يحدِّثُ نفسه ويقول: إنه أحبُّها وأحسنَ إليها، فلما ماتَ جلستُ فوق قبره لا لتبكيه..
ولا لتذكرَ عهده، بل لتتخلَّلَ من يمين الوفاءِ التي أقسمتْها له. فكأنَّها وهي جالسةٌ أمامَ
زوجها الأولِ نعدُّ عُدَدَ الزواجِ من زوجها الثاني، وكأنَّما اتخذتَ من صفائحِ قبره مرآةً
تصقُلُ أمامها جبينها، وتصفِّفُ طرَّتْها (٢) وتلبسُ حليتها، للزفافِ إلى غيره.

وما زالَ يحدِّثُ نفسه بمثل هذا الحديثِ حتى رأى نفسه في منزله من حيث لا
يشعُرُ، ورأى زوجته ماثلةً أمامه مُرتاعةً لمنظره المؤلمِ المحزن، فقال لها: إن امرأةً
خائنةً غادِرةً أهدتْ إليَّ هذه المروحةَ فقبلتها منها إليك.. لأنها أداةٌ من أدواتِ الغدرِ
والخيانة، وأنتِ أولى بها مني. ثم أنشأ يقصُّ عليها قصَّةَ المرأةِ حتى أتى عليها.
فغضبتُ وانتزعَتِ المروحةَ من يدهِ ومرَّقنتها إربًا إربًا.. وأنشأت تسبُّ تلكَ المرأةَ
وتشتُمُّها، وتنعى عليها غدرها وخيانتها وسفالتها ودناءتها، ثم قالت: ألا يزالُ هذا
الوسواسُ عالقًا بصدرك ما دمتَ حيًّا؟ وهل تحسبُ أن امرأةً في العالمِ ترضى لنفسِها
بما رَضيتُ به لنفسِها تلكَ المرأةَ الغادِرةُ؟ فقال لها: إنك أقسمتِ لي ألا تتزوَّجي من
بعدي، فهل تقيِنُ بعهدك؟ قالت: نعم، ورَماني الله بكلِّ ما يرمي الغادِرَ إن فعلتُ.
فأطمأنَّ لقسَمِها وعادَ إلى هُدُوئِهِ وسُكُونِهِ.

(١) النَّشوان: السكران.

(٢) الطرة: الشعر الكثيف.

مَضَى عَلَى ذَلِكَ عَامٌ ثُمَّ مَرَضَ الرَّجُلُ مَرَضًا شَدِيدًا، فَعَالَجَ نَفْسَهُ فَلَمْ يَجِدِ الْعِلَاجَ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ، فَدَعَا زَوْجَتَهُ، وَذَكَرَهَا بِمَا عَاهَدْتَهُ عَلَيْهِ، فَادَّكَرَتْ. فَمَا غَرَبَتْ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى غَرَبَتْ شَمْسُهُ، فَأَمَرَتْ أَنْ يُسَجَّى بِرِدَائِهِ وَيُتْرَكَ وَحْدَهُ فِي قَاعَتِهِ حَتَّى يُحْتَفَلَ بِدَفْنِهِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، ثُمَّ خَلَّتْ بِنَفْسِهَا فِي غُرْفَتِهَا تَبْكِيهِ وَتَدْبُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَفْعَلَ.

وإنها لذلك إذ دَخَلَتْ عَلَيْهَا الْخَادِمُ وَأَخْبَرَتْهَا أَنَّ فِتْنَى مِنْ تَلَامِيذِ مَوْلَاهَا حَضَرَ السَّاعَةَ مِنْ بِلَدَّتِهِ؛ لِيَعُودَهُ حِينَمَا سَمِعَ بِخَبَرِ مَرَضِهِ، فَلَمَّا سَمِعَ حَدِيثَ مَوْتِهِ دُعِرَ دُعْرًا شَدِيدًا وَخَرَّ فِي مَكَانِهِ صَعِقًا، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ صَرِيحًا عِنْدَ بَابِ الْمَنْزِلِ لَا تَدْرِي مَا تَصْنَعُ فِي أَمْرِهِ. فَأَمَرَتْهَا أَنْ تَذَهَبَ بِهِ إِلَى غُرْفَةِ الْأَضْيَافِ، وَأَنْ تَتَوَلَّى شَأْنَهُ حَتَّى يَسْتَفِيقَ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى بَكَائِهَا وَنَحْيِهَا.

فلما مَرَّ الْهَزِيْعُ^(١) الثَّانِي مِنَ اللَّيْلِ دَخَلَتْ عَلَيْهَا الْخَادِمُ مَرَّةً أُخْرَى مَدْعُورَةً مَرْتَاعَةً وَهِيَ تَقُولُ: رَحِمْتِكَ وَإِحْسَانِكَ، يَا سَيِّدَتِي، فَإِنَّ ضَيْفَنَا يَعَالِجُ مِنَ الْآمِهِ وَأَوْجَاعِهِ عَذَابًا أَلِيمًا، وَقَدْ حَرْتُ فِي أَمْرِهِ، وَمَا أَحْسَبُهُ إِنْ نَحْنُ أَغْفَلْنَا أَمْرَهُ إِلَّا هَالِكًا. فَأَهْمَهَا الْأَمْرُ، وَقَامَتْ تَتَحَامَلُ عَلَى نَفْسِهَا حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى غُرْفَةِ الضَّيْفِ فَرَأَتْهُ مُسَجَّى عَلَى سَرِيرِهِ، وَالْمَصْبَاحُ عِنْدَ رَأْسِهِ. فَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَنَظَرَتْ فِي وَجْهِهِ، فَرَأَتْ أَبْدَعَ سَطْرَ خَطَّتُهُ يَدُ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي لَوْحِ الْوُجُودِ، فَخَيَّلَ إِلَيْهَا أَنَّ الْمَصْبَاحَ الَّذِي أَمَامَهَا قَبَسٌ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ الْمُتَلَائِي فِي ذَلِكَ الْوَجْهِ الْمُنِيرِ، وَأَنَّ أُنَيْنَهُ الْمُنْبَعَثُ مِنْ صَدْرِهِ نِعْمَةٌ مُوسِقِيَّةٌ مُحْزِنَةٌ تَرْنُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ.

فأنسأها الحزنُ على المريض المُشْرِفِ الْحَزْنَ عَلَى الْفَقِيدِ الْهَالِكِ، وَعَنَّاها أَمْرُهُ، فَلَمْ تَتْرُكْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ إِلَّا تَوَسَّلَتْ بِهَا إِلَيْهَا حَتَّى اسْتَفَاقَ، وَنَظَرَ إِلَى طَبِيبِهِ الرَّائِكَةِ بِجَانِبِ سَرِيرِهِ نَظْرَةَ الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقْضُ عَلَيْهَا تَارِيخَ حَيَاتِهِ. فَعَرَفَتْ مِنْ أَمْرِهِ كُلِّ مَا كَانَ يَهْمُهَا أَنْ تَعْرِفَهُ، فَعَرَفَتْ مَسْقَطَ رَأْسِهِ وَسِيرَةَ حَيَاتِهِ وَصِلْتَهُ بِزَوْجِهَا وَأَنَّهُ فَتَى غَرِيبٌ فِي قَوْمِهِ لَا أَبَ لَهُ، وَلَا أُمَّ، وَلَا زَوْجَةَ وَلَا وَلَدًا. وَهُنَا أَطْرَقَتْ بِرَأْسِهَا سَاعَةً طَوِيلَةً عَالَجَتْ فِيهَا مِنْ هَوَاجِسِ النَّفْسِ وَتَوَازَعِهَا مَا عَالَجَتْ، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا وَأَمْسَكَتْ بِيَدِهِ، وَقَالَتْ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ أَسْتَادَكَ وَأَنَا تُكَلِّمْتُ زَوْجِي، فَأَصْبَحَ هُمْنَا

(١) الهزيع من الشيء: الجزء، تقول: مضى هزيع الليل.

واحدًا، فهل لك أن تكونَ عونًا لي وأنا أكونَ عونًا لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا مُساعدًا ولا مُعينًا؟

فألمَ بخبيئتهِ نفسها، فابتسمَ ابتسامةَ الحُزنِ والمُضضِ^(١)، وقال لها: مَنْ لي - يا سيدتي - أن أظفرَ بهذه الأمانةِ العُظمى، وهذا المرضُ الذي يُساورُني ولا يكادُ يهدأ عني قد نَعَصَ عليَّ عَيْشي، وأفسدُ عليَّ شأنَ حياتي، وقدَ أُنذِرني الطبيبُ باقتراب ساعةِ أجلي إن لم تُدرِكني رحمةُ الله، فاطلبي سعادتك عندَ غيري، فأنتِ من بناتِ الحياة، وأنا من أبناءِ الموتِ.

فقلت له: إنك ستعيشُ، وسأعالجُكَ ولو كانَ دواؤك بينَ سَحري وتَحري قال: لا تُصدِّقي ما لا يكونُ - يا سيدتي - فأنا عالمٌ بدوائي، وعالمٌ بأنِّي لا أجدُ السبيلَ إليه. قالت: وما دواؤك؟ قال: حَدَّثني طبيبي أن شِفائي في أكلِ دِماغِ مَيِّتِ لِيومِهِ، وما دامَ ذلكَ يُعجِزُني فلا دواءَ لي ولا شِفاءَ.

فارتعدتُ وشَحِبَ لونُها، وأطرقتُ إطراقةً طويلةً لا يعلمُ إلا اللهُ ماذا كانت تحدُّثُها نفسها فيها.. ثم رفعتُ رأسها وقالت: كُنْ مطمئنًا فدواؤك لا يُعجِزُني.. ثم أمرتهُ أن يعودَ إلى راحتهِ وسُكونه، وخرَّجتُ من العُرفةِ مُتسلِّلةً حتى وصلتُ إلى عُرفةِ سلاحِ زوجها، فأخذتُ منها فأسًا قاطعةً، ثم مَشَتْ تختلسُ خطواتها اختلاسًا حتى وصلتُ إلى عُرفةِ الميتِ، ففتحتُ البابَ فدارَ على عَقِبِهِ وصَرَ صريرًا مُزعجًا، فجمدتُ في مكانها رُعبًا وخوفًا. ثم دارت بعينيها حولها فلم ترَ شيئًا فتقدَّمتُ لشأنها حتى دنتُ من السريرِ، ورفعتُ الفأسَ لتضربَ بها زوجها الذي عاهدتهُ ألا تتزوجَ من بعده، ولم تكذُ تهوي بها حتى رأيتُ الميتَ فاتحًا عَيْنَيْهِ ينظرُ إليها، فسقطتُ الفأسَ من يديها، وسمعتُ حركةَ وراءها، فالتفتتُ فرأتِ الضيفَ والخادمَ واقفينِ يتصاحكانِ، ففهمتُ كلَّ شيءٍ.

وهنا تقدَّم نحوها زوجها وقال لها: أليستِ المروحةُ في يدِ تلكِ المرأةِ أجملَ من هذهِ الفأسِ في يدِكَ؟ أليستِ التي تُجفِّفُ ترابَ قبرِ زوجها بعدَ دفنِهِ أفضلَ من التي تكسِرُ دماغه قبلَ نعيهِ؟ فصارتَ تنظرُ إليه نظرًا غريبًا ثم شهقتُ شهقةً كانت فيها نفسها.

(١) المِضضُ: الألمُ، يقال: جثت على مِضضٍ، وتكلم على مِضضٍ.

الضاد



كان العربُ الأولونَ أحرارًا في لغَتِهِمْ، يَضْعُونَ لِكُلِّ ما يَخْطُرُ بِبِالِهِمْ
مَنْ المعاني ما يُريدونَ مِنَ الألفاظِ، لا يَتَّقِدُونَ بِقَاعِدَةٍ ولا شَرْطِ (١)،
ونحنُ عربٌ مثلَهُمْ تجري في عُرُوقِنَا دِمَاؤُهُمْ، كما تَجْرِي في عُرُوقِهِمْ
دَمَاءُ آبائِهِمْ من قَبْلِ فَسْهُمُنَا في الضادِ (٢) سَهْمُهُمْ، وَحَقَّنَا فِيهَا حَقَّهُمْ،
فَلَمْ يَضْعُونَ الألفاظَ لِلتَّفَاهُْمِ والتَّخاطُبِ، ولا نَضْعُهَا مِثْلَهُمْ لمِثْلِ ما
وَضَعُوا وَحاجَّتُنَا أَكْثَرُ من حاجاتِهِمْ، وَمَرافِقُنَا أَوْفَرُ عَدَدًا مِنْ مَرافِقِهِمْ،
وأَوْسَعُ فُضُولًا وأنواعًا؟

أين باديتهم الخلاء المقفرة التي لا يُعمرها إلا القليل من الخيام المبعثرة بين
معاظن الإبل ومرابض الشاء، من مدائننا الفاخرة الحافلة بصنوف الموجودات،
وأنواع الآلات، وغرائب المصنوعات، وأكثرها مستحدث متطرف لم تتداوله السنون
والأيام، ولم تعصف به عواصف القرون والأعوام.

أليس من الظلم المبين والغبن الفاحش، أن تضيق حاجتهم عن لغتهم، فيتكفها
بوضع خمسمائة اسم للأسد، وأربعمائة للداهية، وثلاثمائة للسيف، ومائتين للحية،
وخمسين للناقة؟ وتضيق عن حاجاتنا، فلا نعرف لأداة واحدة من آلاف الأدوات التي
يضمها المعمل اسمًا عربيًا واحدًا؟ اللهم إلا القليل النافه من أمثال: المسير والميرد،
والمشار والمسمار؟

أليكون لسفينة البرّ - وهي لا تحمّل إلا الرجل، أو الرجل وزديفه - مائتا اسم ومائتان
من الأسماء لأعضائها وأوصالها، وزحلها وكورها.. ولا يكون لسفينة البحر - وهي
المدينة المتقلّة في الدماء (٣) - القليل من ذلك الحظ الكثير؟

(١) بدأ المنفلوطي العبارة الأولى في طبعة ١٩١١م بقوله: «إذا كان العرب الأولون يعبرون بالرأس عن متين من الأعضاء
والعظام والأعصاب والشرايين، فلم لا تعبر نحن بالضاد عن ثمانية وعشرين حرفًا.. ثم قال: ونحن عرب مثلهم..»
(٢) يريد أنه لا مانع من أن تسمي اللغة العربية بالضاد.
(٣) الدماء: المياه، أو هي نفس البحر.

كَانَ لِعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى مُؤْتَمَّرٌ لِعُويِّي يَعْقِدُونَهُ فِي كُلِّ عَامٍ بِالْحِجَازِ بَيْنَ نَخْلَةَ وَالطَّائِفِ^(١)، يَجْتَمِعُ فِيهِ شُعْرَاؤُهُمْ وَخُطْبَاؤُهُمْ، وَيَتَنَاشَدُونَ وَيَتَسَاجَلُونَ وَيَتَحَاوَرُونَ، وَيَتَطَارَحُونَ، وَيَعْرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى قُضَاةٍ مِنْهُمْ يَوَازُنُونَ بَيْنَهُمْ، وَيُحْكَمُونَ لِمَبْرَرِهِمْ عَلَى مُقْضَرِّهِمْ، حُكْمًا لَا يُرَدُّ وَلَا يُعَارَضُ. وَلَقَدْ شَعَرُوا بِضَرُورَةٍ عَقَدَ هَذَا الْمُؤْتَمَّرَ عِنْدَمَا أَحْسَوْا بِتَشَعُّبِ لُغَتِهِمْ بَيْنَ الْيَمَنِ وَالشَّامِ وَنَجَدٍ وَتِهَامَةَ لُصُوعِيَّةِ التَّوَاصُلِ فِي تِلْكَ الْبِقَاعِ، وَبَعْدَ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا. فَكَانَ مَطْمَاحُ أَنْظَارِهِمْ فِي ذَلِكَ الْمَجْتَمَعِ تَوْحِيدَ لُغَتِهِمْ، وَجَمْعَ شَتَاتِهِمْ، وَالرَّجُوعَ بِهَا إِلَى لُغَةِ قُرَيْشِ الَّتِي هِيَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَقْرَبُهَا مَأْخَذًا وَأَسْهَلَهَا مَسَاعًا وَأَحْسَنَهَا بَيَانًا.

أَيَقْدِرُ هَؤُلَاءِ الْعَجْزَةُ الضَّعْفَاءُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمُ الْأُولَى عَلَى مَا نَعْبِزُ عَنْهُ نَحْنُ؟ وَنَحْنُ إِلَى مُؤْتَمَرِهِمْ أَحْوَجُ مِنْهُمْ إِلَيْهِ، لِأَنَّ تَشَعُّبَ اللُّغَةِ فِي عَصْرِهِمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَ مَبْلَغَهُ فِي عَصْرِنَا بَيْنَ لُغَةِ الْأَدْبَاءِ وَلُغَةِ الْعُلَمَاءِ وَلُغَةِ الدَّوَابِّينِ وَلُغَةِ الْمُتَصَوِّفِينَ، وَلُغَةِ الْمُتَرَجِّمِينَ، وَلُغَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي لَا حَضَرَ لَهَا.

إِنْ كَانَ الْجَاهِلِيُّونَ فِي حَاجَةٍ إِلَى مُجْتَمَعٍ لِتَوْحِيدِ اللُّغَاتِ الْمُتَشَعَّبَةِ، فَنَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مُجْتَمَعَاتٍ كَثِيرَةٍ: مُجْتَمَعٌ لَجَمْعِ الْمَفْرَدَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَأْثُورَةِ وَشَرْحِ أَوْجِهٍ اسْتِعْمَالِهَا الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِيَّةِ فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ يَقَعُ الْأَتَّفَاقُ عَلَيْهِ وَالْإِجْمَاعُ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ؛ وَمُجْتَمَعٌ دَائِمٌ لَوْضَعِ أَسْمَاءٍ لِلْمُسَمِّيَّاتِ الْحَدِيثَةِ بِطَرِيقَةِ التَّعْرِيبِ أَوْ النَّحْتِ أَوْ الْاِسْتِثْقَاقِ؛ وَآخَرَ لِلْإِشْرَافِ عَلَى الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ، وَتَهْدِيئِهَا وَتَصْفِيئِهَا مِنْ الْمَبْتَدَلِ السَّاقِطِ وَالْمُسْتَعْلَقِ بَيْنَ الْكُتَّابِ وَالشُّعْرَاءِ وَالْخُطْبَاءِ وَمُجَازَاةِ الْمَبْرَّرِ مِنْهُمْ وَالْمُقْضَرِّ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا.



(١) يعني به سوق عكاظ.

سياحة في كتاب (١)



أعجب ما أعجب له من أمر نفسي أني أحب الجمال خيالاً، أكثر ممّا أحبّه حقيقة، فيعجبني وصف الروض أكثر ممّا يعجبني مرآه، ولا أطرب لمنظر الفتيات الجميلات، طربي لمنظر القصائد الغزليات، وأحب أن أقرأ وصف المدن الجميلة، وما كتبه الكاتبون على قصورها ودورها، وسهولها وبطاحها وأنهارها وجداولها.. وميادينها وتمائيلها، وأنديتها ومجامعها، ولا يهمني أن أراها. كأنني أريد أن أستديم لنفسي تلك اللذة الخيالية، وأخاف أن تحول الحقيقة بيني وبينها. وأحسب أني لو كنت عاشقاً لأصبحت أضحوكة العاشقين.. وأعجوبة الهازئين والساخرين، ولكان مثلي مثل ذلك الرجل الذي أحب امرأة فاستزّارها فمَنَعَتْهُ حيناً ثم زارته، فلما رآها تركها وذهب؛ لينام فعجبت لسأله وسألته: ما بآله؟ فقال لها: أريد أن أنام علني أرى طيفك في المنام!

جاء يوم شمّ النسيم فخرج الناس إليه يستقبلونه استقبال الجيش المدجج للملك المتوج، ويُرْحَبُونَ به ترحيب العشق بيوم التلاقي، بعد طول الفراق، ويسمون له ابتسام الرياض الزاهرة للشحّب الماطرة، وقد ذهبوا في شأنه المذاهب كلها: فمن صاعد إلى رءوس الجبال، وسارب في سهل الرمال، وواقف موقف الإعجاب والإجلال.. بين جمال الأنوار، وأنوار الجمال، ومقلب طرفه بين حُسن الزهرات وحُسن الفتيات.. لا يعلم أتشبه القامات الغصون، أم الغصون القامات.

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب، وما كان لي أن أذهب مذهبهم؛ لأنني لا أعجب بما يعجبون، ولا أهتف لما يهتفون، فقبعت في كسر بيتي أفتش عن ضالة خيال أجد فيها من السعادة والهناء ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء وثغر الصهباء. فلمحت بجانب كتاب بلاغة العرب، وهو الكتاب الذي تزجّمه الأستاذ «كامل

(١) جاء في هامش طبعة ١٩١١م ما نصه:

ليس في هذه الرسالة شيء منقول بلفظه من كتاب «بلاغة العرب»، وإنما هي ملخصات فهم الكاتب معناها وأنشأ لفظها.

حجاج»، وجمع فيه نفائس اللغة الفرنسية ورُبْدَة ما جادت به قرائح كتابها وشعرائها..
فقلتُ: حسبي من الرياض هذه الزهراء، ومن النساءِ تلك النّفحاتُ.

خطوتُ الخطوةَ الأولى من سياحتي في الكتاب فرأيتني واقفاً تحت نافذة قصر اللوفر في باريس، ورأيتُ الناسَ وقوفاً في ذلك الميدان الفسيح وقد هاج بعضهم في بعض حتى ضاقت بهم رُقعة الأرض، ورأيتهم يمدون أعناقهم إلى تلك النافذة وينظرون إليها نظرة الفلكي إلى كوكبه اللامع، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحب. وإنهم وكذلك إذ أطل عليهم نابليون الأول من نافذة قصره كما يطل البدر من وراء الأفق يحمل بين يديه طفله الصغير كما يسميه الناس، ومليك روما كما يسميه أبوه. فضج الناس لمطلعه ضجيجاً ملاً مسمَع الخافقين، وابتسموا لمرآة ابتساماً ما بين المشرقين والمغربيين. وهُنا سمعتُ الشاعرَ الكبيرَ يخاطبُ ذلك الملكَ العظيمَ بصوتٍ يُشبه صوتَ البحرِ الزاخر قائلاً له:

رؤيداً، أيها الرجلُ المغرورُ بالتاج والسرير. والمُلكُ الكبير.. والجيش الخاضع،
والشعب الطائع، أنت تُقدّرُ لطفك في مُستقبل الأيام مُلكاً كملكك، ومجداً كمجدك،
وعزاً وسُلطاناً كعزك وسُلطانك، غيرَ عالم بما تكتُمه ضمائرُ الأيام من الحوادثِ
العظام، والخطوبِ الجسام. فهل أخذت على الأيام عهداً لنفسك فتأخذهُ لولدك؟
وهل وثقت بما في يدك فتثق بما في يد غيرك؟

أيها الملكُ المغرورُ، إنك ستفارقُ عمّا قليل هذا القصرَ الكبير.. إلى الكوخ
الحقير، وسيحيطُ بك الجندُ في متفак إحاطة الإخضاع والإذلال.. لا إحاطة الإعظام
والإجلال، وسيموتُ ولدك محروماً هذا العرش الذي هيأته له بل محروماً بضمة
أشبارٍ من تربةِ فرنسا يضطجعُ فيها ضجعة الموت.

أيها الملكُ المغرور، لا تقل إن المستقبل لي، فإنما المستقبل لله.

تركتُ هذا الموقفَ الفخْمَ الجليلَ وقد امتلأتُ نفسي عبرةً بمصائر الأيام، ومصرع
الكرام، وتقلبات الدهر ما بين رُفَعٍ وخَفَضٍ، وإبرامٍ ونَقْضٍ، ومشيتُ حتى وصلتُ إلى
بريةِ جرداء، وذويةِ قفرَاء، لا يطرُقها إنسانٌ، ولا يدبُّ بها حيوانٌ، فلمحتُ على البُعدِ
رجلاً يمشي على بعض الشواطئ فوق أرضٍ رمليةٍ يخدعُ ظاهرها، ويقتلُ باطنها،
ويدبُّ ماؤها في أحشائها، دببَ الصهباءِ في الأعضاء، ويكمنُ في صدورِها كُمونَ
الأسرارِ في صدورِ الأقدارِ.

فما هي إلا بضعة خطوات حتى وَقَعَ نظري على رَجُلٍ مِسْكِينٍ غَاصَّتْ قَدَمَاهُ فِي الرَّمْلِ، فحَاوَلَ نَزْعَهُمَا فغَاصَ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، فَتَحَلَّحَلَّ، فغَاصَ إِلَى صَدْرِهِ، وَمَا زَالَ يَسَاعِدُ عَلَى نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ وَيَهْبِطُ شَبْرًا كَلَّمَا حَاوَلَ أَنْ يَرْتَفِعَ فَنَزَّ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ غَيْرُ فَمٍ يَصْرُخُ بِالنَّدَاءِ، وَعَيْنٌ تَذُرْفُ بِالْبِكَاءِ، ثُمَّ مَا لَبَثَ أَنْ غَطَّاهُمَا الرَّمْلُ فَرَفَعَ يَدَيْهِ بِالدُّعَاءِ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْ رَحْمَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وقفتُ أمامَ هذا المشهدِ المؤثِّرِ المُحزِنِ ووقفَةً أرسلتُ فيها بضعَ قطراتٍ من الدمعِ على هذا البائِسِ المِسْكِينِ، وقلتُ في نفسي: إنني عَجِزْتُ عَنِ إِسْعَادِهِ فِي نَكْبَتِهِ وَمَعُونَتِهِ فِي شِدَّتِهِ، فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ أَسْعِدَهُ بِقَلِيلٍ مِنَ الْأَسْفِ عَلَى مَصِيرِهِ الْمُحزِنِ الْأَلِيمِ.

ثم فارقته ومشيئاً حتى بلغتُ منزلَ الشاعرِ لِمَرَّتَيْنِ فرأيتُهُ جَالِسًا فِي عُرْفَتِهِ الصَّغِيرَةِ وَلَيْسَ مَعَهُ مَنْ يُؤْنِسُهُ غَيْرُ كَلْبِهِ الْمُقْعَى عَلَى عَتَبَةِ بَابِهِ، فَسَمِعْتُهُ يَخَاطِبُهُ وَيَقُولُ لَهُ:

أَيُّهَا الْكَلْبُ الْأَمِينُ، قَدْ هَجَرَنِي النَّاسُ وَبَقِيَتْ بِجَانِبِي، وَخَانَنِي الْأَصْدِقَاءُ وَوَفَيْتَ لِي، فَأَنْتَ فِي نَظْرِي أَوْفَى الْأَوْفِيَاءِ، وَأَصْدَقُ الْأَصْدِقَاءِ. وَلَوْلَا أَنْكَ كَرِيمُ الْأَخْلَاقِ مُتَوَاضِعٌ، تَأْتِي إِلَّا أَنْ تَعْرِفَ لِسَيِّدِكَ مَنْزِلَتَهُ مِنَ السِّيَادَةِ عَلَيْكَ، وَتَحْفَظَ لَهُ فَضْلَ مَا أَسَدَى مِنْ النِّعْمَةِ إِلَيْكَ، لَا كَبُرْتُ جِلْسَتَكَ هَذِهِ عِنْدَ عَتَبَةِ الْبَابِ، وَلَا جِلْسَتَكَ بِجَانِبِي عَلَى فِرَاشِي، لِأَنَّكَ صَدِيقِي وَمُؤْنِسِي، وَلِأَنَّكَ أَحَقُّ بِالْإِكْرَامِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَفْتَرِشُونَ الطَّنَافِيسَ، وَيَتَوَسَّدُونَ الْوَسَائِدَ. وَحَسْبِي مِنْكَ هَذِهِ النَّظْرَاتُ الَّتِي تُلْقِيهَا عَلَيَّ بِهَدْوٍ وَسُكُونٍ، كَأَنَّكَ تَقْرَأُ صَفْحَةَ وَجْهِي، مَا غَابَ عَنْكَ مِنْ دَخِيلَةٍ أَمْرِي، وَكَأَنِّي أَسْمَعُكَ تَقُولُ: مَا بَالُهُ، وَمَا شَأْنُهُ؟ وَمَا الَّذِي يُبْكِيهِ؟ لِيَتَنِي أَعْرِفُ دَخِيلَةَ أَمْرِهِ، وَلِيَتَنِي أَسْتَطِيعَ أَنْ أَكُونَ فِدَاءَهُ! فَحَسْبِي مِنْكَ ذَلِكَ، وَهَلْ يَطْمَعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجِدَ مِنْ أَوْفَى أَصْدِقَائِهِ أَكْثَرَ مِمَّا أَجِدُهُ فِي لَفْتَاتِكَ، وَالْمَحْهُ فِي نَظْرَاتِكَ؟

سمعتُ لِمَرَّتَيْنِ يَنَاجِي كَلْبَهُ بِهَذَا النَّجَاءِ الرَّقِيقِ، فَتَسَلَّلْتُ وَذَهَبْتُ لِشَأْنِي وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي: إِذَا كَانَ لِمَرَّتَيْنِ - وَهُوَ أَشْعَرُ شَاعِرٍ فِي فَرَنْسَا، وَفَرَنْسَا مَهْبِطُ وَحْيِ الشَّعْرِ - لَمْ يَجِدْ لَهُ صَدِيقًا وَفِيَا غَيْرَ كَلْبِهِ الْمُقْعَى عَلَى عَتَبَةِ عُرْفَتِهِ، فَأَيْنَ يَذْهَبُ سَائِرُ الشَّعْرَاءِ، وَمَتَى يَجِدُونَ الْأَصْدِقَاءَ؟

تركتُ منزلَ لِمَرَّتَيْنِ وَذَهَبْتُ إِلَى مَنْزِلِ «دِي مُوسِيه» فرأيتُهُ مُعْتَزِلًا فِي عُرْفَةٍ مِنْ عُرْفِ مَنْزِلِهِ يَبْكِي بُكَاءً مُرًّا... وَيَزْفِرُ زَفِيرًا شَدِيدًا، تَكَادُ تَتَقَطَّعُ لَهُ أَحْشَاؤُهُ. فقلتُ: لَيْتَ شِعْرِي، مَا أَبْكَاهُ؟ وَمَا الَّذِي دَهَاهُ؟ فَسَمِعْتُهُ يَتَرَنَّمُ بِقَصِيدَةٍ مِنْ قَصَائِدِهِ يَشْرَحُ فِيهَا تَارِيخَ

وَجِدِهِ وَهَوَاهُ شَرْحًا مُؤَثِّرًا مُؤَلِّمًا حَتَّى كَانَ يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنَّ كُلَّ بَيْتٍ مِنْ أُبَيَاتِهَا جُدُوهٌ نَارٍ مُلْتَهَمَةٌ. وَسَمِعْتُهُ يَشْكُو مِنْ خِيَانَةِ حَبِيبَتِهِ «جورج صاند» ويعالج نفسه على أن يسألوها، وَيَتَنَاسَى عَهْدَهَا وَزَمَانَهَا، فَلَا يَجِدُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أْتَمَّ قَصِيدَتَهُ حَتَّى تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَشَخَصَ بَصْرُهُ.. وَاضْطَرَبَ اضْطِرَابَ الْأَغْصَانِ الْيَابِسَةِ.. بَيْنَ أَيْدِي الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، ثُمَّ أَخَذَ يَهْدِي هَذِيانَ الْمَحْمُومِ، وَيَخْلِطُ فِي كَلَامِهِ خَلْطًا شَدِيدًا. فَعَلِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ جُنَّ، وَأَنَّ الْعَالَمَ الشَّعْرِيَّ قَدْ فَجَعَ إِلَى الْأَبْدِ. فَمَضَيْتُ لَسْبِيلِي، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ. وَأَقُولُ: إِنْ جَمَالَ الْمَرْأَةُ أَحْقَرُ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ أَوْفَرَ عَقْلٍ، وَأَعْجَزُ أَنْ يُطْفِئَ أَكْبَرَ قَرِيحَةٍ:

ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا وأمر الغيب سرٌّ مُحَجَّبٌ

تركتُ منزل دي موسيه، ومشيتُ في شارع من شوارع باريس، فرأيتُ شَيْخًا رَثَّ الثِيَابِ، زَرِّيَّ الْهَيْئَةِ، بِمِشْيِ مِشِيَّةٍ هَادِيَّةٍ، وَيَجْرُ فِي رِجْلَيْهِ نَعَالًا بَالِيَةً، قَدْ أَطَلَّتْ أَصَابِعُهُ مِنْ خُرُوقِهَا كَمَا تَطُلُ الْحَيَّاتُ مِنْ أَحْجَارِهَا. فَأَتَّبَعْتُهُ نَظْرِي، فَرَأَيْتُهُ لَا يَرْفَعُ طَرْفَهُ سُكُونًا وَإِطْرَاقًا، وَلَا يَكَادُ يُحْرِّكُ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ رِزَانَةً وَوَقَارًا. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنْ لِهَذَا الرَّجُلِ شَأْنًا. فَمَشَيْتُ وَرَاءَهُ حَتَّى رَأَيْتُهُ قَدْ وَقَفَ عَلَى الْأَرْضِ يَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَعُودَ فَيَخْصِفَ لَهُ نَعْلَهُ. فَسَأَلْتُ بَعْضَ الْمَارَّةِ عَنْهُ فَقَالَ: هَذَا «كورني» شاعرٌ فرنسي. فَأَخَذْتَنِي الدَّهْشَةُ وَمَلَكَنِي الْعَجَبُ، حَتَّى كَادَ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَقْلِي، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَيْحَ لَكُمْ، مَعْشَرَ النَّاسِ، أَنْتُمْ تَنْقُطُونَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْجِلْدِ الْأَسْمَرِ، عَلَى رَجُلٍ يَقْلُدُ أَعْنَاقَكُمْ الدَّرَّ وَالْجَوْهَرَ؟ أَعْجِزْتُمْ عَلَى أَنْ تُجْمِعُوا أَمْرَكُمْ عَلَيَّ أَنْ تَمَسَّحُوا هَذِهِ الْغُضُونَ عَنْ تِلْكَ الْجَبْهَةِ الَّتِي تَجُودُ عَلَيْكُمْ كُلَّ يَوْمٍ بِمَا يُفْرَجُ كَرَبَّتِكُمْ، وَيُخَفَّفُ مِحْنَتَكُمْ؟

ثم رجعتُ أدراجي وأنا أقول: كَانَ قِضَاءٌ حَتْمًا عَلَى الدَّهْرِ الْأَيْنِيْلِ هَوْلَاءِ الْأَدْبَاءِ مِنْ دَهْرِهِمْ مَا يَرِيدُونَ وَلَا يَمْنَحُهُمْ مِنَ الْعَيْشِ مَا يَشْتَهُونَ.

إِنْ فِي جَلْسَةِ «لَا مَارْتِينَ» مُنْفَرِدًا فِي مَنْزِلِهِ لَا مُؤَنَسَ لَهُ غَيْرُ كَلْبِهِ، وَفِي عُرْزَلَةِ «دِي مُوسِيه» فِي عُرْفَتِهِ بَيْنَ دُمُوعِهِ وَأَحْزَانِهِ، وَفِي جَلْسَةِ «كورني» أَمَامَ حَانُوتِ الْإِسْكَافِ يَنْتَظِرُ تَرْقِيعَ نَعْلِهِ، لَأَيَّةٍ لِلْمُنْتَفِكِينَ، وَعِبْرَةٍ لِلْمُعْتَبِرِينَ.

الآن عدتُ من سياحتي في ذلك الكتاب أشكرُ للكاتب ما كتَبَ، وللمترجم ما تَرْجَمَ، وَأَقُولُ مَنْ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ بِسِيَاحَةٍ مِثْلَ هَذِهِ السِّيَاحَةِ فِي كِتَابٍ مِثْلِ هَذَا الْكِتَابِ؟

دمعة على الأدب



مات بالأمس إمام الشعر البارودي، وإمام الشر محمد عبده، فجزعنا ما جزعنا، وسكنا عليهما من الدموع ما سكنا، ثم كفكنا من تلك الدموع وخفضنا من زفرات الضلوع، حينما سمعنا قول القائل: إن في الباقي عزاءً عن الفاني، وإن الأبناء خلف من الآباء. ولقد كثر على عهدهما الشهر بعد الشهر، والدهر بعد الدهر، والأدب جاثم في مكمينه هائم لم يبعث من مرقدِه بعد ما قبرناه، ولم ينشر من قبره بعدما وازيناه، ففسأنا: أين الباقي الذين يزعمون؟ والخلف الذي يذكرون؟

أين فطاحل اللغة العربية، لا السياسيّة، وأرباب الأقلام العربية لا الأعجمية؟ عذرنا المويلحي الكبير، واليازجي، لأنهما ماتا ولحقا بصاحبيهما، فهل مات شوقي وحافظ والبكري والمويلحي الصغير؟ ما مات منهم أحد، وإنما كانت حياة ذنك الرجلين، حياة الصنّاعيين، وكان لوجودهما سرٌّ من الأسرار ينبعث في الألسنة فيطلقها، والأقلام فيجربها. وكانت منزلتهما من الأحياء منزلة الإم من مصابيح الكهرباء، تشتعل المصابيح بتيارها، وتضيء بأسرارها، فإذا فرغت مادتها وانقضت أجلها، عمّ الظلام واشتدّ الحلك، والمصابيح - كما هي - جسم بلا روح، بلا معنى.

أما شوقي فقد طار في جو غير هذا الجوّ، في واد غير ذلك الوادي، وما زالت تعبث به الأنواء حتى أغرقته في شبر من الماء. وأما حافظ فقد انقبضت حياته الشريفة قبل انقضاء البؤساء^(١). أما حياته الشعرية فلم يبق منها غير نظم المقالات السياسية من العام إلى العام. وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان وأفانين الأشجان؟ وأما البكري والمويلحي

(١) هو كتاب ل: فيكتور هيجو «الشاعر الفرنسي، ترجمة حافظ إبراهيم ولم يتمه، وقد أخرجه مكتبة ابن سينا، دراسة وتقديم / عادل عبد المنعم أبو العباس.

فقد قَضِيَا حَقَّ التَّالِيفِ هَذَا بِصَهَارِيحِهِ (١) وَذَلِكَ بَفْتَرَاتِهِ (٢) ثُمَّ لَحِقًا بِالسَّابِقِينَ، وَمَضِيَا عَلَى أَثَرِ الْمَاضِينَ:

أَيَّنَ سَكَانِكَ لَا أَيَّنَ لَهُمْ أَحْجَازًا أَوْ طُنُوهَا أَمْ شَأْمًا
أَيَّنَ الرُّوْضَةَ الْغَنَاءُ الَّتِي كُنَّا نَتَفَيَّأُ ظِلَالَهَا، وَنَهْصِرُ (٣) أَغْصَانَهَا، وَنَقْطِفُ مَا سِتْنَا مِنْ
وُرُودِهَا وَرِيَاحِينِهَا؟ وَأَيَّنَ الْبَلَابِلُ الَّتِي كَانَتْ تَنْتَقِلُ بَيْنَ أَشْجَارِهَا فَتَنْطَرِبُ بِالْأَغَارِيدِ،
وَتَسْتَهْوِي بِالْأَنَاشِيدِ؟

فَأَسْأَلُهَا وَاجْعَلْ بُكَاءَكَ جَوَابًا تَجِدُ الدَّمْعَ سَائِلًا وَمُجِيبًا
أَنَا لَا أَعْجَبُ لَشَيْءٍ عَجَبِي لَهُوْلَاءِ الْأَدْبَاءِ: يَحْزَنُونَ فَلَا يَبْكُونَ، وَيَطْرُبُونَ الْبَلْبُلُ
فِيغْرُدُ، وَيَشْجِي الْحَمَامُ فَيَنُوحُ، وَيَطْرِبُ الشَّاعِرُ، وَيَشْجِي الْكَاتِبُ، فَلَا يَنْطِقُ لِسَانُهُمَا
وَلَا يَهْتَرُ قَلْمُهُمَا؟

لَمَا أَسَنَّ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَرَأَى أَنْ شَعَرَ الْغَزَلَ وَالتَّصَابِي غَيْرَ لَاقِقٍ بِشَيْئِهِ وَوَقَّارِهِ،
عَزَمَ عَلَى هَجْرِهِ فَمَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَعَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ كَمَا يَغْلِبُ الْمَرْءُ عَلَى
غَرَائِزِهِ وَسَجَايَاهِ، فَاحْتَالَ لِدَلِّكَ بِأَنْ حَلَفَ الْأَقْوَلُ بَيْتًا مِنَ الشَّعْرِ أَلَّا أَعْتَقَ رَقَبَةً، فَشَكَا
إِلَيْهِ رَجُلٌ حُبًّا بَرَّحَ بِهِ، فَحَنَّنَ وَاهْتَاجَ وَنَظَّمَ أَيْبَاتًا فِي شَأْنِ الرَّجُلِ وَوَجِدِهِ، ثُمَّ أَعْتَقَ عَنْ
كُلِّ بَيْتٍ رَقَبَةً.

فَهَلْ نَدَّرَ أَدْبَاؤُنَا مَا نَدَّرَ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَهُمْ فِي شَرْخِ الشَّبَابِ وَإِتَانِ الْفِتْوَةِ؟ إِنْ
كَانُوا فَعَلُوا ذَلِكَ فَأَسْأَلِ اللَّهُ لَهُمْ قِصَّةَ كَقِصَّةِ عُمَرَ تَهِيحُ أَشْجَانَهُمْ، فَتَحْنُتُ أَيْمَانَهُمْ،
وَالْأُمَّةُ كَفِيلَةٌ لَهُمْ بِوَفَاءِ النَّذُورِ، وَكَفَّارَةِ الْإِيمَانِ:

وَذُو الشُّوقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَعَزَّى مُشَوِّقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَ



(١) هو كتاب «صهاريج اللؤلؤ» للسيد البكري.

(٢) هو كتاب «فترة من الزمن» المسمى بـ«حديث عيسى بن هشام»، لمحمد المويلحي.

(٣) هَصَرَ: لَوَّى وَكَسَرَ.

نفس الشاعر



للشاعر ثلاثٌ مميّزاتٍ لا أستطيعُ أن أتصوّرَ أن الله وهبَهُ مَلَكَه الشّعْر
وأفأضُ عليه روحَه إذا تجرّدَ مِن واحدةٍ منها: عزّةُ النفس، وطهارةُ
القلب، وسَمَاحَةُ اليد.

واجتماعُ هذه الصفاتِ فيه هو السببُ في بؤسِهِ وشقائِهِ وَعَدَمِهِ وإقتارِهِ، لأن
صاحبَ النفس العزيزة لا يَحتمِلُ مَنَّةً لأحدٍ، وصاحبَ القلب الطاهر لا يعرفُ كيف
يتلمّسُ وُجوهَ الجبلِ لِعَيْشِهِ، والكرِيم لا يُبقي على شيءٍ مما في يَدِهِ.

ولقد صوّرَ الروائيُّ العظيم «إدمون رويستان» عزّةَ نفسِ الشاعر وإبَاءَهُ، وهي
الصفةُ الأولى من تلك الصفاتِ، أحسنَ تصويرٍ في قطعةٍ بديعةٍ من رواية «سيرانو دي
برجرارك» أقدمُها للقارئ؛ لتكونَ مثلاً صالحاً للشعراءِ يَحْتَدُونَهُ في حياتهم الأدبيّةِ،
وميزاناً يزنُ به الناسُ قيمةَ الشعراءِ ومَنزِلَتَهُم من الشّعْر والأدبِ.

أعجَبَ الكونت دي جيش، أحدُ قوَادِ الجيشِ الفرنسي وصهرُ الكاردينالِ ريشلييه
وزيرِ فرنسا الشهير، بالشاعر العظيم «سيرانوا دي برجرارك» يرتجلُ على مسمعِ منهُ
قصيدةً من أعلى طبقاتِ الشّعْر وأرقاها فقالَ في نفسه: إن اصطناعَ شاعرٍ مجيدٍ كهذا
الشاعر حليةٌ لا ينبغي أن يفوقنا التحلي بها. ثم استدناهُ إليه وكان جالساً على كرسيِّهِ
العالي جلسةَ العظمة والكبرياءِ، وقال له: أتحبُّ أن تكونَ لي يا سيرانو؟ فامتعضَ
الشاعرُ امتعاضاً شديداً، ونظرَ إليه نظرةً جامدةً قاسيةً، وقال له: لا، يا سيدي، ولا لأبي
إنسان. قال: إن صهرِي الكاردينالِ يُعجِبُ بكِ جداً، وكثيراً ما سمعتهُ يُثني عليكِ وعلى
أدبِكَ. وقد علمتُ أنكِ نظمتِ منذُ عهدٍ قريبٍ روايةً تمثيليةً جميلةً اسمها «أجربين»
لم تُوفِّقِ إلى تمثيلها حتى اليوم. فلو أنكِ ذهبتِ بها إليه وقدّمْتها له لَعَرَفَ لكِ فضلكِ
فيها، وأحسنَ جزاءَكَ عليها. وربما نَوّهَ بشأنها وشادَ بذكرها، فاهتمَّتِ الملاعبُ
بتمثيلها، وتمَّ لكِ ما ترجوهُ لنفسِكِ من المجدِ والفخارِ. والرجلُ كما تعلمُ، شاعرٌ
جليلٌ راسخٌ القَدَمِ في النقدِ الأدبي، وسينظرُ في روايتكِ هذه نظراً الناقدِ البصيرِ. ولا

أَحْسَبُهُ يَضُنُّ عَلَيْكَ بِتَهْذِيبٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّهْذِيبِ مِنْ أُبْيَانِهَا، فَتَأْتِي آيَةُ الْآيَاتِ فِي حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا.

فَاكْفَهْرَ وَجْهَ سِيرَانُو وَتَغَضَّنَ (١) جَبِينَهُ، وَقَالَ لَهُ: ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ يَا سَيِّدِي وَإِنْ دَمِي لِيَجْمِدُ فِي عُرُوقِي عِنْدَمَا أَتَخَيَّلُ أَنْ إِنْسَانًا فِي الْعَالَمِ يَحْدُثُ نَفْسَهُ بِتَغْيِيرِ حَرْفٍ وَاحِدٍ فِي قَصِيدَةٍ مِنْ قَصَائِدِي.

فَعَجِبَ الْكُونَتُ لِأَمْرِهِ وَقَالَ لَهُ: وَلَكِنَّكَ تَعْلَمُ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ حِينَ يَعْجَبُ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ يَدْفَعُ ثَمَنَهُ غَالِبًا. قَالَ: رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا. وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْدُلَ فِيهِ مِنَ الثَّمَنِ مِثْلَ مَا أَبْدُلُ. لِأَنِّي أَسْكُبُ فِي شِعْرِي دَمَ قَلْبِي حَارًّا، وَدَمَ الْقَلْبِ أَعْلَى ثَمَنًا مِنَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ. فَقَالَ: يَظْهَرُ لِي أَنَّكَ أَبِي النَّفْسِ يَا سِيرَانُو. قَالَ: نَعَمْ، يَا سَيِّدِي، مَا فِي ذَلِكَ شَكٍّ. وَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى أَنَّكَ قَدْ شَعَرْتَ بِذَلِكَ.

فَاسْتَشَاطَ الْكُونَتُ غَضَبًا وَقَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ سَاخِطًا. وَهُوَ يَعْجَبُ أَشَدَّ الْعَجَبِ لِكِبْرِيَاءِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَرْفُضُ قَبُولَ نِعْمَةٍ تَسِيلُ عَلَى مِثْلِهَا نَفُوسُ الشُّعْرَاءِ وَالرَّوَائِثِينَ جَمِيعًا.

وَكَانَ لَبْرِيهِ صَدِيقُ سِيرَانُو جَالِسًا بِجَانِبِهِ، فَأَخَذَ يُعَنِّفُهُ بَعْدَ انْصِرَافِ الْكُونَتِ، وَيَلُومُهُ عَلَى حَمَقِهِ وَرُعُونَتِهِ، وَيَنْعِي عَلَيْهِ خُشُونَتَهُ وَغَلْظَتَهُ، وَيَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ أَضَعْتَ فُرْصَةً كَانَ جَدِيرًا بِكَ أَنْ تَفْتَرِصَهَا حِينَ لَاحَتْ لَكَ، فَقَدْ كُنْتَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى مَنْ يَرْفَعُ لَكَ شَأْنَ رَوَائِكَ وَيُؤَوِّهُ بِذِكْرِهَا، وَيَمَسِّحُ عَنْ رَأْسِهَا غِبَارَ الْخُمُولِ وَالضَّعْفَةِ، وَيَأْخُذُ بِبِدِّكَ فِي طَرِيقِ الْمَجْدِ الَّذِي تَحْبُّهُ وَتَعَشَّقُهُ. فَمَاذَا أَنْتَ صَانِعٌ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَانْتَقِضَ سِيرَانُو غَيْظًا، وَاسْتَوَى فِي مَكَانِهِ جَالِسًا، وَأَلْقَى عَلَى صَدِيقِهِ نَظْرَةً طَوِيلَةً هَادِيَةً، وَأَنْشَأَ يَقُولُ لَهُ بِصَوْتٍ قَوِيٍّ رَنَانَ:

مَاذَا تَرِيدُ مِنِّي يَا لَبْرِيهِ؟ أَتَرِيدُ أَنْ أَعْتَمِدَ فِي حَيَاتِي عَلَى غَيْرِي وَأَنْ أَضَعُ زَمَامَ نَفْسِي فِي يَدِ عَظِيمٍ مِنَ الْعِظَمَاءِ أَوْ نَبِيلٍ مِنَ النَّبَلَاءِ يَصْطِنِعُنِي وَيُجَنِّبُنِي مَوْوَنَةَ عَيْشِي وَيَحْمِلُ عَنِّي هُمُومَ الْحَيَاةِ وَأَثْقَالَهَا، فَيَكُونُ مِثْلِي مِثْلَ شَجَرَةٍ «الْبَلَاب» لَا عَمَلَ لَهَا فِي حَيَاتِهَا سِوَى أَنْ تَلْتَفَّ بِأَحَدِ الْجَذُوعِ تَلْعَقُ قَشْرَتَهُ وَتَمْتَصُّ مَادَّةَ حَيَاتِهِ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَعْتَمِدَ فِي حَيَاتِهَا عَلَى نَفْسِهَا؟ ذَلِكَ مَا لَا يَكُونُ.

أتريدُ أن أحملُ نفسي على عاتقي كما يحملُ الدَّلالُ سِلْعَتَهُ وأدورُ بها في الأسواقِ مُنادياً عليها: مَنْ منكم، أيها الأغنياءُ والأثرياءُ والوزراءُ والعظماءُ وأصحابُ الجاهِ والسلطانِ، يتناحَرُ نفساً بذمتِها وضميرها وعواطفِها ومَشاعرِها بلقمةِ عيشٍ وجُرعةِ ماءٍ؟ أتريدُ أن أنصبَّ نفسي سُخريةً في الأنديةِ الخاصَّةِ والمجتمعاتِ العامَّةِ، ألعبُ كما يلعبُ القردُ، وأنطقُ كما تنطقُ البغاةُ، وأتلوُّنُ كما تتلوُّنُ الحرياءُ، رجاءُ أن أجدَ التفاتَةً من عينيِّ أميرٍ، أو أرى ابتسامةً على شفطيِّ وزيرٍ؟

أتريدُ أن تستحيلَ قامتي إلى قوسٍ من كثرةِ الانحناءِ، وأن تهتدَلَ أجناني من كثرةِ الإطراقِ والإغضاءِ^(١) وأن تجتمعَ فوق رُكبتي طبقةٌ سميكةٌ من كثرةِ السجودِ والجنبيِّ بين يدي العُظماءِ؟

أتريدُ أن يكونَ لي لسانان: لسانٌ كاذبٌ أمدحُ به ذلك الذي اصطنعني واجتبانني^(٢)، ولسانٌ أعددُ به عيوبه وسبباته، وأن يكونَ لي وجهان: وجهٌ راضٍ عنه؛ لأنه يذودُ^(٣) عني ويحميني، ووجهٌ ساخطٌ عليه لأنه يستعبدني ويسترقُّني؟

أتريدُ أن أقضي حياتي كلَّها واقفاً وسَطَ دائرةٍ واحدةٍ أثبُ فيها وأظفرُ وأتطاوَلُ بعنقي ليتوَهَمَ الناسُ أنني طويلٌ وما أنا بطويل، أو أتخذَ لي بوقاً ضخمًا أنفخُ فيه ليتوَهَمَ السامعونُ أنني جهوريُّ الصوتِ وما أنا إلا نافخٌ في بوقٍ؟

أتريدُ أن أسيرَ سفينةً شعري في العالمِ بأذرعِ العُظماءِ والكُبراءِ، بدلاً من المجاذيفِ التي أنحتُها بفأسي، وبشعورِ «الدوقات» الغانياتِ بدلاً من الأشرعةِ التي أنسجها بيدي، وبتنهَّداتِ الأميراتِ العاشقاتِ بدلاً من الرياحِ الجاريةِ التي يسخرُّها اللهُ لي؟

أتريدُ أن أجعلَ حياتي الأدبيةَ تحتَ رحمةِ المقرَّطينِ^(٤) والناقدينِ، والراضينِ والساخطينِ، فإن شاءوا رفَعُوني إلى علياءِ السماءِ، وإن شاءوا هَوَّأوا بي إلى أعماقِ الجحيمِ؟

ذلك ما يكونُ، الموتُ أهونُ عليَّ من ذلك.

أريدُ أن أعيشَ حرًّا مُستقلاً لا أخشى أحداً ولا أهابُ شيئاً، لا يعينني تهديدُ الجرائدِ التجاريةِ الساقطةِ، ولا يفرحني أن تنشرَ الصحفُ الكبيرةُ اسمي بالأحرفِ الضخمةِ في

(٢) اجتبانني: اختارني.

(٤) المقرَّطين: المارحين.

(١) الإغضاء: السكوت.

(٣) يذود: يدفع.

النظرات الجزء الثاني

أكبر أنهارها، ولا أبالي أتداول الناس قصائدي وتدارسوها ورثت نعماتها في أرجاء المسارح؟ أم بقيت في كسر خزانتني أقرأها بنفسي لنفسي وأنغني بها في ساعات وحشتي وخلوتي.

أريد أن أعيش حُرًّا، أضحكُ كما أشاء وأبكي كما أريد، وأحتفظ بنظري سليماً وصوتي رناناً، وخطواتي منتظمةً ورأسي مرتفعاً، وقولي صريحاً، أنظم الشعر في الساعة التي اختارها، وفي الشأن الذي أريده. فإن أعجبني ما ورد عليّ منه فذاك، وإلا تركته غير آسف عليه وأخذت في نظم غيره بدلاً من أن أتوسل إلى الطابعين أن ينشروه، والأدباء أن يقرطوه، والممثلين أن يمثّلوه، والعظماء أن يتوهوا به ويرفعوا من شأنه.

أحب أن لا أنظم من الشعر إلا ما يجود به خاطري، وأن لا أنظم إلا بالطريقة التي أريدها أنا، لا التي يريدها الناس لي، وأن لا أمتع نظري إلا بمنظر الأزهار التي أغرسها بيدي في حديقتي. فإن قدر الله لي منزلة في الحياة فلن أكون مديناً بها لأحدٍ غيري، ولن يكون فخرها عائداً إلا عليّ وحدي، ولا أسمح لأحدٍ من الناس كائناً من كان أن يرفعني، بل لا بد لي أن أرفع نفسي بنفسي.

أريد أن أعيش حُرًّا طليقاً أناضِلُ من أشاء، وأجادلُ من أشاء، وأنتقدُ من أشاء، وأن أقول كلمتي الخير والشر للأخيار والأشرار في وجوههم، لا متملقاً أولئك، ولا خاشياً هؤلاء. إن العبد المقيّد بقيود الإحسان والنعم لا يمكن أن يكون حُرًّا طليقاً. فليغفني الناس من أياديهم وصنائعهم لأنني لا أحب أن أكون عبداً لهم، ولا أسيراً في أيديهم.

وآخر ما أقول لك إنني أفضل أن أعيش ممقوتاً مردولاً عند الناس على أن أعيش ذليلاً مستعبداً لهم، ولا أحب أن أرتفع ارتفاع الزيفون والسرّو إذا كانت اليد التي ترفعني غير يدي. وحسبي من الرفعة والشرف أن أنال منها نصيبي الذي قسم لي قدر ما تسمح به قوتي ومواهي لا أزيد على ذلك شيئاً.

فقال له لبريه: عش بنفسك وحيداً كما شئت، ولكن لا تكن عدواً للجميع.

قال: ربما أكون مغالياً في ذلك. ولكن ما داعاني إلى المغالاة في المعادة إلا مغالاةكم معشر المتكلمين والمتعلمين في المصادقة والموااة، وتصنعكم في اجتذاب الخلان والأصدقاء. وما بغض إليّ التواد والتحاب إلا بغضي لتلك الابتسامات الباردة

الثقيلة التي تنفرج عنها شفاهكم كأما قابلتم صديقاً أو عدواً، شريفاً أو وضيعاً، كريماً أو لئيماً؛ حتى أصبحت لا أحب شيئاً في العالم حبي لبغض الناس إيتاي، ولا أكره شيئاً كرهني لحبهم لي وتوددهم إليّ.

هذا هو عيبي الوحيد الذي لا أعرف لنفسي عيباً سواه، ولكنه عيبٌ يُعجبني جداً ويلدُّ لي كثيراً. وإنك لا تستطيع أن تدرك مقدار ما أجد من اللذة والغبطة في نفسي عندما أسير في طريقي فأراه مملوءاً بنظراتِ البغض، ملتهباً بنيرانِ الحقد، وأرى نفسي مُحاطاً بنطاقٍ مُحكم من قلوب الساطخين والناقمين.

أما الشتائم التي أسمعها واللعنات التي تُصوّب إليّ فهي أشبه الأشياءِ عندي بذلك البردِ المُتساقطِ الذي يتناثر من الجوِّ على رداي ثم ينزلق عنه إلى الأرضِ فأدوسه بقدمي.

إن الصداقة الباردة المُتفككة التي يسعى وراءها الناسُ أشبه شيء بالياقة الإيطالية اللينة التي تتهدّل حول العنق فيتهدّن العنق معها، فهي، وإن كانت ليّنة مُريحة، إلا أنها رُخوةٌ مهلهلةٌ ليست لها مسكةٌ ولا قوام.

أما العداوةُ فهي الدرعُ الفولاذيةُ الصلبةُ التي تدورُ بالجسم فتحفظُ كيانه وقوته، وتمنعه عن أن يضعفَ أو أن يخورَ، وكلُّ عدوٍّ جديدٍ هو حلقةٌ جديدةٌ في تلك الدرعِ القويةِ المتينةِ.

هذا هو المثلُ الذي ضربته «أدمون رويستان» للشُعراءِ والأدباءِ «ليكونَ عبرةً لهم وميداناً لأقدارهم ومنازلهم. ولقد قضى سيرانو بقيّةَ أيامه بعد ذلك مُحافظاً على مبدئه لا يحتملُ منّةً لأحدٍ، ولا يمدُّ يده بالسؤال لأحدٍ، ولا يُعطي هواذةً في حقِّ من الحقوقِ أو مبدإٍ من المبادئ. ينتقدُ رجالَ الدين الذين يتّجرونَ بدينهم، والأشرافَ الذين يمالئون الظلمةَ على ظلمهم وجورهم. فعاش فقيراً مُعدماً مُضطهداً حتى مات موتَ المساكينِ المُعوزين، ولكنه عاش بعد ذلك في صفحاتِ التاريخِ عيشَ العظماءِ النابهين.



جوستاف لوبون وفتحى زغلول



إنَّ لِكتاب «روح الاجتماع» عِندي يَدًا لا أنساها لمؤلِّفه الدكتور جوستاف لوبون، ومُترجمه العالم الفاضل سعادة «أحمد فتحى زغلول باشا». فقد وَجَدني ضالًّا فهداني، وحايرًا فَرَفَع لي مِنارةً أحمرَ حتى عرفتُ السَّبيل.

كنتُ أنقِم من هذا المجتمع المصريِّ شُئونا ما كنتُ أنقِمُ مثلها من غيره من المجتمعاتِ البشريَّة. وقد كنتُ أكادُ أعتقدُ أنه مجتمعٌ شاذٌّ غريبٌ في أطواره وِصفاته. حتى قرأتُ الكتابَ الذي شَرَحَ طبيعةَ المجتمعاتِ عامَّةً، شَرَّيها وغريبها، وقرَّرَ لها حُكْمًا واحدًا يختلفُ ولا يتخالفُ. عرفتُ أن لا فَرْقَ بينَ الشعبِ المصريِّ وغيره من الشعوبِ الأخرى إلا كما يكونُ بينَ الشيءِ والشبيهِ به من الاتفاقِ في الجوهرِ والكميَّةِ والاختلافِ في العَرَضِ والكميَّة.

كنتُ أعجَبُ للجماعةِ المؤلِّفةِ من أتباعِ الحزبِ الوطنيِّ أن أراها مائلةً إلى تصديقِ زُعماءِ ذلك الحزبِ في دَعواهُمُ القُدرةَ على إزعاجِ الاحتلالِ الإنكليزيِّ من مكانه، ومُقاومةِ قُوَّتهِ القاهرةِ بمقالاتٍ يُسَطِّرونها، أو خُطَبٍ يُتمِّقونها؛ وعلى انتزاعِ الدستورِ من يَدِ صَاحِبِ الأمرِ فيه بصُراخِ الشوارعِ، وهُتافِ المَجامعِ؛ بل إلى تصديقِ كلِّ قائمِ بيتها، سواءً أكانَ هِنديًا أو جَرَكسيًا أو بَربريًا أو نُوريًا أو فرنسيًا أو إنكليزيًا، زاعِمًا أنه يخدمُ الوطنيَّةَ المصريَّةَ بصدقٍ وإخلاصٍ، كما صدَّقتُ بالأمسِ المستر بلانت الإنكليزيِّ في دَعواهُ أنه قد نزلَ من حُبِّ الوطنِ المصريِّ منزلةً من يُهدي النصائحَ والعِظاتِ إلى الخديوي السابقِ أكبرِ أصحابِ الشأنِ في القضيَّةِ المصريَّةِ، ويُعلِّمُه كيف يكونُ وطنيًّا؛ وكما صدَّقتُ اليومَ المسيو ديروجا الفرنسيِّ والمسيو دراجيلا الإسباني، في دَعواهُما الغيرةَ عَلَیْها، والاهتمامَ بِشأنها وظهرتُ في تَوَديعهما إلى مَنفاهُما بمظهرِ تنصَّبٍ لهُ الجباهُ عَرَقًا، وتندِّي له الوجوهُ الكريمةُ حياءً وحَجَلًا. فلما قرأتُ في «روح الاجتماع» له: «ولما كانتِ الجماعةُ على الدوامِ مُحَلِّقَةً في حدودِ اللاشعورِ تتأثَّرُ

بالسهولة من جميع المؤثرات، وذلك إحساس قويّ كإحساس الأشخاص الذين لا يمكنهم الاستعانة بالعقل، ومجرّدة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد»، عرفت أن تلك طبيعة الجماعات، وأن ليس الذنب على المجتمع المصري خاصة بل على المجتمعات الإنسانية عامة.

وكنت أعجب للرجل الذي لا بأس بلبته، ولا ظنة في فهمه وإدراكه من محام بارع، أو طبيب حاذق، أو عالم مُحقق، أو باحث مُدقق، أن أراه على جلاله وعظمه مُتصبًا وسَط أتباع الحزب الوطني يضحّ ضجيجهم، ويصرخ صراخهم، ويقول بما يقولون، ويفهم كما يفهمون، ويتقلب في أكفهم تقلب الكرة في أكف اللاعبين، ويشاركهم في تصوّر ما لا يتصوّر، وتصديق ما لا يكون، حتى قرأت في «روح الاجتماع» قوله أثناء الكلام على قابلية الجماعة للتصديق بالخيالات الباطلة: «ولا ينبغي في ردّ ما تقدّم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل والذكاء الوافر، لأنه لا تأثير لتلك الصفة في موضوعنا، إذ العالم والجاهل سواء في عدم القدرة على التمييز ما داموا في الجماعة».

وقوله في موضع آخر: «وأشدّ الناس افتراقًا من حيث مداركهم يتشابهون في الوجدانيات والشهوات والمشاعر. وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها الشعور كالدين والآداب والميل والتفوق وهكذا إلا نادراً. فقد يكون بين الرياضي الكبير وبين صانع حدائمه بُعْد ما بين السماء والأرض من حيث العقل والذكاء، ولكن الفرق بينهما في الطباع معدوم في الغالب أو هو ضعيف للغاية».

وقوله في موضع آخر: «يهبط بمجرد انضمامه إلى الجماعة عدّة درجات من سلم المدنية، ولعله في نفسه كان رجلاً مثقّف العقل، مُهذّب الأخلاق، ولكنه في الجماعة ساذج تابع للغريزة. ففيه اندفاع الرجل الفطريّ وشِدته، وفيه عنفه، وفيه حماسته وشجاعته، وفيه من سهولة التأثر بالألفاظ والصوّر مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة. ثم فيه الانقياد بذلك إلى فعل ما يخالف منافع البديهية ويناقض طباعة التي اشتهرت عنه. وبالجملة فإنّ الإنسان في الجماعة أشبه بحبّة من رمال تثيرها الرياح ما هبت». هنالك هدأ خاطري، وتلج صدري. وأمكنتني أن أقول إن أذكاءنا ليسوا بأغبياء، وعلماءنا ليسوا بجهلاء، ولكنهم انضموا إلى الجماعة فنزلوا منها منزلة أمثالهم من أمثالها في كل زمان ومكان.

وكنْتُ أعجَبُ لخضوعِ أتباعِ الحزبِ الوطنيِّ لرؤسائِهِم الذينَ يُؤذونَهُم ويمثَلونَ بِهِم ويستَلَبونَ أموالَهُم إن كانوا أغنياء، وقواهُم إن كانوا أقوياء، ومُستقبَلَهُم إن كانوا مُتعلِّمين، وحاضرَهُم إن كانوا مُوظَّفين، وعُقُولَهُم إن لم يَكونوا شَيئاً من هَذَا وَذَلِكَ. كما كُنْتُ أعجَبُ لانصرافَهُم عَمَّن يأخذُهُم باللينِ وَيَرْفُقُ بِهِم، ويحنوُ عَلَيْهِم، ويضعُ يَدَهُ في أيديهِم في مزالِقِ الحوادثِ مخافةً أن تزلَّ بِهِم أقدامُهُم. فما زالَ عَجَبِي حتى قرأتُ «روح الاجتماع» قولَهُ في حديثِهِ عن الجماعة: «وهي صورةٌ من صُور الضعيفِ ليسَ إلا. لذلك لم تَمِلْ إلى رؤسائِها الذينَ عرَّفوا باللينِ والرَّفقِ، بل إلى الطغاةِ المُستبدينَ الذينَ سَحَقوها».

وكنْتُ أعجَبُ لاهتمامِهِم بِمطالعةِ المقالاتِ السياسيَّةِ التي تنشرُها جرائدُ حزبِهِم، وتأثرِهِم بها على ما تشتمَلُ عليه من الأدلَّةِ الفاسدةِ والمعاني السَّقِيمَةِ، والأساليبِ الباردةِ، والبراهينِ المُلفَّقةِ التي يأنفُ عقلُ العاقلِ أن يَمَنَحها حتى النظرةِ الأولى. وكنْتُ أظنُّ أن ذلكَ راجعٌ إلى فسادِ ذاتِي في أدواقِهِم، أو ضعفِ عَريزِي في مدارِكِهِم، حتى وقفتُ على الحقيقةِ عندَ الاطلاعِ على قولِ صاحبِ «روح الاجتماع»: «إن رابطةِ الأفكارِ التي تقارنُها الجماعاتُ ببعضِها من حيثِ المشابهةِ أو التلازمِ ظاهرةٌ لا حَقِيقِيَّة. فهي تتسلسلُ عندها كما تتسلسلُ الأدلَّةُ في ذهنِ الرجلِ الإسكيمياويِّ الذي عَرَفَ بالتجربةِ أن الثلجَ، وهو جسمٌ شفافٌ، يذوبُ في الفمِّ، فاستنتجَ من ذلكَ أن الزجاجَ، وهو شفافٌ أيضاً، يجبُ أن يذوبَ في الفمِّ؛ وكالمُتوحِّشِ الذي يتصوَّرُ أن أكلَ قلبِ العدوِّ الشجاعِ ينقلُ شجاعتهُ إلى الأكلِ. والحاصلُ أن تعقُّلَ الجماعاتِ عبارةٌ عن الجمعِ بينَ أشياءٍ مُتخالفةٍ لا رابطةَ بينها إلا في الظاهرِ، والانتقالِ الفُجائيِّ منَ الجزئيِّ إلى الكليِّ، ومن التَّخصيصِ إلى التَّعميمِ بلا تروٍّ. والأدلَّةُ التي يقدِّمها إليها أولئكُ الذينَ عرَّفوا كيفَ يَقودونها كلها من هذا الطرازِ؛ لأنها هي الأدلَّةُ التي تُؤثِّرُ فيها بخلافِ سلسلةٍ من الأدلَّةِ المنطقيَّةِ، فإنها لا تُدرِكُها بحالٍ. فالخطيبُ الخبيرُ بأحوالِ جماعتهِ يعرفُ طريقةَ استحضارِ الصُّورِ التي تجذبُها، فإذا نَجَحَ فذلكَ ما أراد. ولو ألقى حُطْبٌ في عشرينَ مُجلدًا بعدَ ذلكَ ما كانَ لها من التأثيرِ ما أحدثتهُ تلكَ الكليَّماتُ التي دَخَلتْ في الرؤوسِ المرادِ إقناعُها».

وكنْتُ أعجَبُ لإعراضِ المتعلِّمينَ مِنْهُم عن الحقائقِ التاريخيَّةِ والسياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ المتعلِّقةِ بذلكَ، فالمسألةُ المصريَّةِ وعلاقةُ الدولِ الأجنبيَّةِ بها عامَّةٌ،

والدول المحتلة خاصة، وتقدير الفرق بين قُوَّة الدولة الغاصبة وقُوَّة الأمة المغصوبة، وتنظيم حلقات الوسائل الموصلة إلى سعادة مصر واستقلالها، وطيرانهم وراء الذين يقولون لهم: «الحلاء على الأبواب»، و«الدستور قاب قوسين أو أدنى»، و«قطعنا شوطاً بعيداً»، و«لم يبق إلا القليل»، و«الدولة العثمانية بدأت تهتم بشأننا»، و«الحكومة الألمانية تساعدنا»، و«الحكومة الإنكليزية ترتعد فرائضها منا»، و«أوروبا جميعها تحسب لنهضتنا ألف حساب»، وأمثال ذلك مما هو أشبه بخيالات الأطباء الذين يحاولون تعزية المرضى والمُشرفين، وخرافات المنجمين الذين يعثون بعقول عَجْزة الشيوخ وجاهلة النساء. حتى قرأت في «روح الاجتماع» قوله: «سارت الفلسفة إلى الأمام شوطاً بعيداً، ولكنها مع تقدُّمنا لم تهَيِّ للجماعات خيالاً يلذها، والجماعات لا غنى لها عن الأوهام. لذلك اندفعت وراء غريزتها، وذهبت إلى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثَل الحشرة التي تدرج حين يكون الضياء.. فما كانت الجماعات في ظمأ إلى الحقيقة طول حياتها. وإذا تبدت أمامها وكانت تُغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الأوهام التي ترضى الإمرة عليها لمن أضلها. والويل منها لمن هداها». فعلمت أن تلك الجماعة ليست جاهلة ولا قاصرة، ولكنها جماعة. ومن الضروري أن تكون كذلك.

وكنت أعجب لتشييعهم للدستور واحتفالهم به، وإلحاحهم في طلبه إلحاح الفاهم المدرك. وأنا أعلم أن أكثرهم لا يفهمون منه إلا أنه القُوَّة، فلو عرفوه حق معرفته لوجدوا في أنفسهم أن عدمه خيرٌ لهم من وجوده الذي يقتدر به الشعب على أن يأكل بعضه بعضاً بلا رقة ولا حذر؛ لأنه عدلٌ ورحمة، ولأنه يمنع ظلمة الأكلين أن يجدوا ما يأكلون. فلم أقف على سرّ تشييعهم له وهو في الحقيقة أبغض الأشياء إليهم، حتى قرأت في ذلك الكتاب قوله: «وكم من جماعة تقدمت إلى الموت في سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئاً من معانيها.. لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع».

وكنت أراهم غالبيين في مشاعرهم، متطرفين في ميولهم. وأرى أنهم إما أن يحبوا فيعبدوا، وإما أن يبغضوا فيقتلوا، وأن الرجل عندهم إما أن يكون إلهاً أو شيطاناً ولا ثالث لهما، وأن رضاهم عن رؤساء حزبهم لا يقل عن رضاهم عن رؤسائهم وأبيائهم الذين هدوهم الصراط المستقيم فأكاد أخصهم بصفات الغفلة والبله لولا أن كشف

لي «روح الاجتماع» سرّ المسألة في قوله: «علوّ مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لا تعرف الشكّ ولا التردد. فهي كالنساء تذهب فوراً إلى الحدّ الأقصى. فالشبهة متى بدت تنقلب إلى بديهي لا يقبل البحث. والرجل مُنفرداً قد لا يقرّ على أمرٍ أو ينفرّ منه نُفوراً لا يتعدّى مجرد الرغبة عنه. وأما الرجل في الجماعة فإنه متى نفرّ انقلب نفوره حقداً شديداً».

وقوله في موضع آخر: «كثيراً ما سمعنا عن ملهى كان يُكثر من تمثيل الروايات المحزنة، فكان الحرس يُحيط دائماً بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفاً عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه؛ لأنه ارتكب تلك الجرائم الوهميّة. وهذا فيما أرى من أكبر الأدلة على حالة الجماعات العقلية وبالأخص على سهولة التأثير فيها. فللوهميّ عليها من ذلك ما للحقيقيّ تقريباً، وهي ميالة ميلاً ظاهراً إلى عدم التمييز بينهما».

وكنت أعتقد أنّ لا شيء يُؤثّر في نفوس الجماعات غير إخلاص الدعاة. ثم استحال عليّ التوفيق بين ما أعتقد وبين ما أعلم من أطوار زعماء الحزب الوطني ودخائل نفوسهم أنّهم لا يطلبون مما يعملون في هذه الحياة غير ما يطلب كلّ عامل فيها من لقمّة سائغة، وجرعة صافية، ومزكّب فارهِ (١) ومُتكَأ (٢) وثير. حتّى اهتديت إلى حل هذه العقدة في قول صاحب «روح الاجتماع»: «وجد القواد في الأمم علي الدوام. غير أنّهم ليسوا جميعاً من أهل الاعتقاد الصادق الذي يصير به المرء رسولاً في قومه. بل هم في الغالب سופسطائيون لا يسعون إلا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوي المشاعر السافلة؛ ليكتسبوا رضاهم. وقد يكون النفوذ الذي ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جداً أنه سريع الزوال».

وكنت أعتقد أن أقدّر الناس على قيادة الجماعات أذكاهم قلباً، وأوسعهم عقلاً، وأفصحهم لساناً، وأجرأهم قلماً. فلما رأيت أن قواد الحزب الوطني ليس فيهم من يمتاز عن أفراد الطبقة التي نشأ فيها بميزة خاصة من طلاقة لسان، أو بلاغة قلم، أو علم واسع، أو خلق مؤثّر، وفتت أمام هذه المعضلة المستعصية وقفة الحائر المضطرب، حتّى قرأت في «روح الاجتماع» قوله: «ليس القواد غالباً من أهل الرأي والحصافة، بل هم من أهل العمل والإقدام، وهم قليلو التبصر. على أنه ليس في استطاعتهم أن

(٢) وثير: لين ناعم، يقال: ينام على فراش وثير.

(١) فاره: خفيف نشط حازق.

يكونوا بَصْرَاءَ؛ لأن التأمل يُوَدِّي غالبًا إلى الشك ثم السكون. وهم يخرجون عادةً بين ذوي الأعصاب المريضة المتهوِّسين الذين اضطربت قواهم العقلية إلى النصف، وأمسوا على شفا جُرف الجنون، لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلاً ولا تثنيهم حجة عن طلب ما قصدوا بالغاً منها الخطل^(١) ما بلغ، ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد. بل ذلك يزيدهم تهوُّسًا وعنادًا.

وقوله في موضع آخر: «وكان أكبر القواد من الأمم خصوصًا قواد الثورة الفرنسية من قِصار العقول جدًّا، وكان أكبرهم تأثيرًا أشدهم قِصرًا في العقل. فإن الإنسان ليدشُّ مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدرًا وهو روسبيير. ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار... صيغ كُليَّة جارية على كل لسان، وشقشقة^(٢) في الفصاحة محفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعتنا في نفس خلوها أكثر من انحطاطها، نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع إلا ما تعودت التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله: هل من مبار؟ وليس هناك رأي ولا تدبير ولا شاردة عنف مُمل وشدة مُسئمة، فإذا فرغ القارئ من تلك المطالعة المُملة شعر بالحاجة إلى قول «أف» كما كان يفعل الرجل الظريف كاميل ديمولان».

وكنت أعجب لبعض أتباع الحزب الوطني وبعض كتّاب جرائده، كيف استحالوا إلى جناة مجرمين بعد أن كانوا أشرفاءً أنقياء، وكيف هان عليهم أن يُجاملوا نفوسهم بالإغصاء عما تقترفه من سب الأبرياء وهتك أعراض الأشراف والعب^(٣) في الدماء البشرية بصورة وحشية بعد أن كانوا يترفعون عن لِمَم^(٤) الذنوب وصغائر الدنيا. كما كنت أعجب لهذا البائس المسكين الذي كان أندى الناس وجهًا، وأكثرهم حياةً وأدبًا، كيف حسن في نظره منظر جريمة القتل التي ارتكبها، ثم هلك في سبيلها فضرب بجريمته الوطن الذي يحسب أنه يخدمه ضربة هيات أن يتل من بعدها. ثم عرفت أن ذلك لازم من لوازم الجماعات عندما قرأت قول صاحب «روح الاجتماع»: إن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال في أمياله مما كان يحجم عنه مُنفردًا بالضرورة. ثم هو لا يكبح جماح نفسه؛ لأن الجماعة لا تسأل عن

(٢) شقشقة: كلام في غير محله.

(٤) لِمَم الأمور: صغائرها.

(١) خطل في منطقته ورأيه: لم يفعل الصواب.

(٣) عب الشيء: شربه من غير تنفس.

أفعالها لشبوعها بين جميع الأفراد، فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجزئه العمل عليه من التبعة. وهذا الشعور هو الراجز للنفوس عما لا ينبغي».

وقوله في موضع آخر: «تصدر الجرائم عن الجماعات غالباً بسبب تحريض قوي، ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم. وهذا ليس شأن الجنة في الأحوال الاعتيادية».

وهنا يمكنني أن أستخلص مما تقدمت الحقائق الآتية:

١- ليس إجماع واحد أو عشرة آلاف أو مائة ألف متأثرين بشعور واحد مستمدين قوة واحدة على رأي من الآراء، دليلاً على صحة ذلك الرأي؛ لأنه رأي فرد واحد تأثر به الباقي تقليداً أو عدوى. ورأي الواحد مترجع بين الخطأ والصواب.

٢- ليس انضمام جماعة من أذكيا الناس وعقلانهم في حزب من الأحزاب أو جمعية من الجمعيات دليلاً على فضل ذلك الحزب أو شرف مقاصده أو صحة مبادئه، لأنهم لا يجتازون عتبة إلا بعد أن يخلعوا عقولهم ومواهبهم مع أديتهم وعصيتهم خارج بابيه.

٣- لا يشترط في قيادة الجموع أن يكون القائد ذكياً أو عاقلاً أو داهية أو مفكراً أو فصيحاً، بل يكفي من ذلك كله شيء من العلم بأذواق أتباعه وسبل الوصول إلى قلوبهم لا يزيد عن علم التاجر بأذواق زبائنه ورغباتهم.

٤- ليس حب الجماعة لبعض الناس وبغضهم لآخرين دليلاً على رفعة من يحبون، وضعة من يبغضون. وليست جرائمهم التي يفترونها باسم الشعور الذي يشتركون فيه دليلاً على أن من يقتلون يستحق القتل، أو يشتمون يستحق الشتم، أو يحتقرون يستحق الاحتقار، بل كثيراً ما تكون الحقيقة على العكس من ذلك عندما يكون قائد تلك الجماعة من أشرار الناس وأدنياهم.

٥- لا يكون مقتدرًا تمام الاقتدار على قيادة الجماعات واستوائها أو مقاومتها ومصارعتها من يذهب في كتاباته أو خطابه مذهب القياس الصحيح والبرهان العقلي، ومن يكون كثير الاحتراس من الكذب والتلفيق والسفسطة والتضليل، أو طاهر اللسان والقلم من السفاهة والشتم.

٦- لا سبيل للإنسان إلى الخلاص من خطل الجماعات وضلالها مهما كان ذكياً أو

مُفَكِّرًا إِلَّا إِذَا حَبَسَ نَفْسَهُ عَنِ الْإِنْضِمَامِ إِلَيْهَا، أَوْ كَانَ لَهُ مِنْ عَزِيمَةِ الرَّأْيِ وَصَلَابَةِ النَّفْسِ مَا يُمْكِنُهُ مِنْ تَرْبِيَةِ نَفْسِهِ عَلَى التَّجَرُّدِ حَتَّى يَصِيرَ طَبِيعَةً لَهُ، فَيُحَضِّرُهَا شَاهِدًا كَعَائِبٍ وَمُجْتَمَعًا كَمُفْرَدٍ.

٧- لا يجوز للتلميذ في أثناء الدراسة أن ينضمَّ إلى حزب من الأحزاب أو جمعية من الجمعيات بالفعل أو القوَّة، إلا بعد أن يستمدَّ من العلم قوَّةً تساعدُه على اكتساب ملكة التجرد التي لا بدَّ لها من معالجة اكتسابها للخلاص من جنون الجماعات وتهوُّسها إن اضطرَّ في مستقبل أمره إلى الانضمام إليها.

٨- جميع القوى التي يتوسَّلُ بها قائدُ الحزب أو الجماعات إلى التأثير على أتباعه أو تكثير عددهم، ضعيفةٌ بجانب القوَّة التي يستمدُّها من مقاومة الحكومة التي يعيش فيها له بالتهديد أو السجن أو التعذيب، فإنه يستفيد من ذلك عطف أتباعه عليه، وتشبُّههم به ويؤنس بأحاديث نكيبه ونوادِر رزيبته قلوبهم كلما ألمَّ بها الممل منه ومن وعوده الكاذبة وأقواله المرددة. فإن كان لتلك الحكومة أرب في القضاء عليه وعلى أتباعه، وكانت قادرةً على قطع الصلَّة بينه وبينهم بقفل جريدته إن كان صحافيًا، أو قطع خطابته إن كان خطيبًا، فلنفعَل، وإلا فلتتركه وشأنه حتى يعتني بأمرهم، وتنفذ بقيَّة القوى التي يتوسَّلُ بها إليهم.

٩- ليست تلك الطبيعة المقررة للجماعات المؤلفة من البسطة والبَّله وسُرعة الصَّدق والاندفاع والغلوُّ شرًا دائمًا، بل قد تكون خيرًا مخلصًا إذا رزق الله تلك الجماعات قوًّا دهاءةً مُقتدرين على الخداع الشريف يسوقونها إلى سعادة أممهم وهنائها، وحرَّيتها واستقلالها.

١٠- ليس وجودُ التهوُّس والتحمُّس والغضب والتهوُّر في حزب من الأحزاب المصرية دليلًا على تأخر الأمة وانحطاطها انحطاطًا كثيرًا، لأنها صفات عامَّة في كلِّ الجموع الشرقية والغربية، وإن كان خطرُها علينا أكثر من خطرِها على غيرنا.



الاتحاد



أَلَمْتُ بِي فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ الْمَاضِيَةِ كُرْبَةً مِنْ تِلْكَ الْكُرْبِ الَّتِي لَا تَزَالُ
تَتَعَهَّدُنِي كَمَا تَتَعَهَّدُ الْمَحْمُومَ نَوْبَاتُهُ حِينَ بَعْدَ حِينٍ، كُرْبَةً مَا كَفَّاهَا أَنهَا
أَمْسَكَتْ قَلَمِي عَنِ الْكِتَابَةِ وَفِكْرِي عَنِ الْحَرَكَةِ حَتَّى حَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ
مُطَالَعَةِ الصُّحُفِ وَإِشْرَافِ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ نَوَافِذِهَا بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ. ثُمَّ
أَدْرَكْتَنِي رَحْمَةُ اللَّهِ فَاسْتَفَقْتُ فَإِذَا صَحْبٌ وَلَجِبٌ، وَغَوْغَاءٌ وَضَوْضَاءٌ،
وَأَصْوَاتٌ مِلءُ الْفُضَاءِ، وَكَيْطَةٌ^(١) الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، فَمَا هُوَ إِلَّا سُؤَالُ
السَّائِلِ وَإِجَابَةُ الْمَجِيبِ حَتَّى عَرَفْتُ كُلَّ شَيْءٍ.

عَرَفْتُ أَنَّ الْأُمَّةَ الشَّرْقِيَّةَ فِي مَوْقِفٍ مِنْ أَحْرَجِ مَوَاقِفِهَا، وَمَسَلِكٍ مِنْ أَضَلِّ مَسَالِكِهَا،
وَأَنَّهَا بَيْنَ مَاضِعِي الْأَسَدِ وَفَوْقِ رُوقِ الظُّبْيِ، وَأَنَّ حَوَادِثَ الدَّهْرِ وَعَادِيَاتِ الْأَيَّامِ قَدْ
مَلَكَتْ عَلَيْهَا سَبِيلَهَا وَتَنَفَّتْ حَوْلَهَا التَّنَافُفَ الْحَيَّةَ بِالْعُنُقِ، وَأَحَاطَتْ بِهَا إِحَاطَةُ الْجَامِعَةِ
بِالْيَدِ، وَالْقَيْدَ بِالرُّجْلِ. فَمَثَلُهَا كَمَثَلِ رَجُلٍ أَحَاطَتْ النَّارُ بَيْتَهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَعَلَقَتْ
بِسُقُوفِهِ وَجُدْرَانِهِ وَنَوَافِذِهِ وَأَبْوَابِهِ، فَمَا هُوَ بِنَاجٍ إِنْ أَرَادَ نَجَاةً، وَلَا بَبَاقٍ إِنْ أَرَادَ حَيَاةً
مُدْلَهَمَةً قَدْ غَابَتْ كَوَاكِبُهَا وَاسْتَسْرَتَتْ نَجُومُهَا فَوْقَ وَقْفَةٍ وَحَفَّةِ الْحَائِرِ الْمُضْطَرِبِ يَسْمَعُ
الْعَوَاءَ وَالزَّرْتَرَ، وَالضَّجِيجَ وَالصَّفِيرَ، فَلَا يَعْلَمُ، فَيَزِدَادُ ضَلَالًا، أَمْ يُحْجِمُ فَلَا يَجِدُ مَجَالًا،
أَمْ يَقِفُ فَيَصْبِحُ فَرِيسَةَ الْمَفْتَرَسِ وَلِقْمَةَ الْمَزْدَرِدِ.

عَرَفْتُ أَنَّ الْأُمَّةَ الشَّرْقِيَّةَ أَصْبَحَتْ لَا تَدْرِي مَا تَرِيدُ وَلَا مَا يُرَادُ بِهَا، وَلَا تَجِدُ مَنْ
يُرِدُّ إِلَيْهَا رَشْدَهَا، وَلَا مَنْ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَيْهَا لِيَأْخُذَ بِيَدِهَا فِي هَذَا الظُّلَامِ الْحَالِكِ وَاللَّيْلِ
الْمُدْلَهَمِ^(٢).

كَثُرَ رُؤُوسًا وَوَمَا، وَتَعَدَّدَتْ قَادَتُهَا، وَتَنَوَّعَتْ مَدَاهِبُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ، وَاسْتَحْكَمَتْ
حَلَقَاتُ الْبَاسِ بَيْنَهُمْ، فَلَمْ يَتَّفِقُوا فِي شَأْنٍ مِنْ شُئُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا عَلَى وَضْعِ
حَبْلِ مَتِينٍ فِي عُنُقِهَا قَدْ أَخَذَ كُلُّ مَنْهُمْ بِطَرَفٍ مِنْ جَانِبِهِ يَجْذِبُهُ إِلَيْهِ جَذْبَةَ الْمُسْتَقْتَلِ

(٢) يقال: ليل مدلهم، شديد الظلام.

(١) كَيْطَةٌ: بمعنى ملء.

المُسْتَمِيتِ حَتَّى يُحَّصِ صَوْتُهَا وَضَاقَ صَدْرُهَا، وَتَعَلَّقَتْ أَنْفَاسُهَا، وَجَحَظَتْ مُقْلَتَاهَا، وَجَفَّ رَيْقُهَا وَتَحَجَّرَ لِسَانُهَا، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا نَظْرَةَ الدَّاعِرِ^(١)، اللَّاعِبِ، وَلَا أَحْسَبُ أَنَّهُمْ تَارَكُوهَا حَتَّى يُفَرِّقُوا بَيْنَ الرَّأْسِ وَالْجَسَدِ فِرَاقًا لَا لِقَاءَ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ.

لو بُعِثَ أَرَسَطُو وَاضِعُ عِلْمِ الْمَنْطِقِ مِنْ قَبْرِهِ وَأَرَادَ أَنْ يَضَعَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ حَدًّا تَامًا جَامِعًا مَانِعًا لِمَا اسْتَطَاعَ إِلَّا أَنْ يَضَعَ لَهَا هَذَا الْحَدَّ «الْأُمَّةُ الشَّرْقِيَّةُ هِيَ الَّتِي تُصَدِّقُ كُلَّ مَا يُقَالُ»، وَلَقَدْ عَرَفَ كُلُّ أَوْلِيكَ اللَّاعِبِينَ بِهَا وَالْعَابِثِينَ بِمُيُولِهَا وَأَهْوَائِهَا مِنْهَا هَذَا الْخَلْقَ وَتِلْكَ الطَّبِيعَةَ، وَكَانُوا قِسَاةَ الْقُلُوبِ غِلَاظَ الْأَكْبَادِ، فَتَفَذَّوْا مِنْ تِلْكَ الْأَذَانِ اللَّيْتَةِ إِلَى تِلْكَ الْقُلُوبِ الطَّبِيعَةِ فَمَا بَلَّغُوهَا حَتَّى أَخَذُوا يَلْعَبُونَ بِهَا لَعِبَ الصَّبِيِّ بِكَرَّتِهِ، وَيَتَلَقَّفُونَهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَهِيَ لَا تَرْتَفِعُ حَتَّى تَتَنَاوَلَهَا الصَّوَالِجَةُ، وَلَا تَسْتَقِرُّ حَتَّى تَدْفَعَهَا الْأَقْدَامُ، كُلُّ يَزَعُمُ أَنَّهُ صَدِيقُهَا، وَكُلُّ يَزَعُمُ أَنَّهُ يَدُلُّهَا عَلَى عَدُوِّهَا، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ أَعْدَاؤُهَا قَبْلَ الْعَدَاءِ، وَخُصُومُهَا قَبْلَ أَكْثَرِ الْخُصَمَاءِ، وَأَنَّ السَّمَاءَ بِصَوَاعِقِهَا وَرُجُومِهَا، وَالْأَرْضَ بِزَلْزَلِهَا وَبِرَاكِبِهَا أَعْجَزُ مِنْ أَنْ تَبْلَغَ مِنْهَا مَا بَلَّغُوهَا، أَوْ تَجْنِي عَلَيْهَا مَا جَنُوهَا.

فيا أيها الرؤساء والزعماء..

أَيُّ خَيْرٍ تَطْلُبُونَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ أَنْ أَنْ فَرَّقْتُمُوهَا شَيْعًا، وَصَيَّرْتُمُوهَا أَحْزَابًا وَقَسَّمْتُمُوهَا عَلَى أَنْفُسِهَا، وَقَطَعْتُمْ أَوْصَالَهَا وَوَسَائِجِهَا^(٢)، وَأَلْقَيْتُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَوَلَدِهِ، وَالرَّجُلِ وَأَخِيهِ، وَالْجَارِ وَجَارِهِ، وَالصَّدِيقِ وَصَدِيقِهِ، حَتَّى رَكَبَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا رَأْسَهُ وَمَضَى لِسَبِيلِهِ، وَحَتَّى تَنَافَرَتِ الْوُجُوهُ، وَاسْتَوْحَشَتِ النُّفُوسُ، وَأَصْبَحَتِ سَاحَةُ الْبَلَدِ كَسَاحَةِ الْحَرْبِ، لَا تَرَى فِيهَا إِلَّا نَابًا يَقْرَعُ نَابًا، وَعَيْنًا تَنْظُرُ شَرْزًا، وَصَدْرًا يَغْلِي حِقْدًا، وَقَلْبًا يَخْفِقُ خَوْفًا وَحَذَرًا.

كُلُّ غَرَضٍ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَسْعَوْنَ إِلَيْهِ لَا بِلَاغِ هَذِهِ الْأُمَّةِ آمْنِيَّتِهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالْهِنَاءِ، لَا قِيمَةَ لَهُ بَعْدَ مَا أَضَعْتُمْ عَلَيْهَا مِنْ أَغْرَاضِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ الْإِتِّحَادُ قَائِدًا إِلَيْهِ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ.

ليس هذا التناقض بين أفراد الأمة والتفرق بين جمعياتها حالة من الحالات الطبيعية التي لا بُدَّ منها ولا مناص^(٣) عنها، أو حادثة من الحوادث السماوية التي تحتلها

(١) يقال: زجل داعر، وامرأة داعر، والدعارة الفجور والوقاحة.

(٢) الوشائج: العلاقات والروابط.

(٣) لا مناص: لا غناء عنها ولا فكناك منها.

النفوس وتسكن إليها القلوب وتغضي عليها العيون إجلالاً للسماء، ورضاءً بالقضاء، وإنما هي صنع أيديكم، وجناية أقدامكم. ولو أنكم تركتم هذه الأمة وشأنها، وحلثتم بينها وبين فطرتها ما كان يخطر لها ببال أن تتعادي وأن تتباغض ولا كان يوجد بين أفرادها من تحدته نفسه بمقاطعة أخيه في سبيل صحيفة من الصحف أو حزب من الأحزاب.

عجز الاختلاف الديني بين عنصري الأمة الشرقية أن تفرق بين أوصالها وبين جامعيتها، وعجز الاختلاف الجنسي أن يؤثر في جامعيتها تأثير أمثاله من الجوامع الأخرى، فكيف لا يعجز الاختلاف الديني والجنسي لولا أنكم كبرتم ما صغر من هذا الاختلاف، وعظمت منه ما حقر وألححت عليه إلحاحاً شديداً حتى حولتموه إلى فتنه شنعاء، وغارة شعواء.

أنا لا أطلب منكم بهذه الأمة، ولا شفقة عليها، فإن قلوباً مثل قلوبكم التي تنطوي عليها جوانحك أقسى على أن ينفذ فيها سين الضارب، فضلاً عن قلم الكاتب وإنما أريد أن أحدث الأمة الشرقية بكلمة لا أريد منها أن تأخذها مني عفواً، ولا أن تسلم بها قبل إمعان نظرها فيها وعرضها على عقلها، فذلك ما لا أحبه لها بل ذلك ما أنقمة عليها.

أيها الشرقيون..

إني لا أكتب إليكم كلمتي هذه وليس على وجه الأرض، ولا تحت أديم السماء، أمة أحب إلي منكم، وحسبكم ذلك الحب أنني أسمع بالكارثة تحل بكم والنازلة تنال منكم، فيشغلني من أمركم ما لا يشغلني من أمر نفسي، وتجد عيني في سبيلكم على ما بها من جفاء وغلظة بما لا تجود بمثله في أخرج مواقفها وأصعب مواطنها.

بهذا القلم الذي يستمد مداده من هذا القلب المخلص لكم، أدعوكم إلى الاتحاد والائتلاف، وأن تتبايعوا بين يدي الله والوطن على الحب والود والصفاء والإخلاص بينكم، ولا تجعلوا لهؤلاء المفسدين منفذاً ينفذون منه إلى قلوبكم. فإن طاف بكم طائف من شياطينهم، فأعرضوا عنه وامضوا في سبيلكم، واحذروا أن تكونوا تبعة لرئيس أو لعبة في يد زعيم، ولكن كل منكم زعيم نفسه، ومسترشد قلبه، فنفوسكم أرحم بكم، وقلوبكم أصدق في نصيحتكم. فإن فعلتم ذلك نجوت من ذل الانقياد،

وَسَلَكْتُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ، وَأَصْبَحْتُمْ وَإِذَا أَنْتُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ تَرَى رَأْيًا وَاحِدًا وَتَحْسَبُ بِإِحْسَاسٍ وَاحِدٍ.

واعلموا أن ما بينكم اليوم من الاختلاف في الرأي والاضطراب في المذهب إنما هو وهم من الأوهام الكاذبة، وخيال من الخيالات الباطلة. ولو رجعتُم إلى أنفسكم وأصغيتُم إلى أصوات قلوبكم لتبين لكم أنه لا يوجد فرد من أفرادكم إلا وهو أحرص من أخيه على حب الوطن وإرادة الخير له.

سَدَّدَ اللهُ طَرِيقَكُمْ، وَأَنَارَ لَكُمْ سَبِيلَكُمْ، وَأَفَاضَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ مَا يُفَرِّجُ كُرْبَتَكُمْ، وَيَكْشِفُ غَمَّتَكُمْ، وَالسَّلَامَ.

